ملاحظات على

ثروة الأمم

كتاب آدم سميث الذي هز العالم

ملاحظات على

ثروة الأمم

كتاب آدم سميث الذي هز العالم

بي. جي. أورورك

نقله إلى العربية

معين الإمام

العبيكان
Obeikan

Original Title
On The Wealth of Nations
Books That Changed the World
Author: P. J. O›Rourke

ISBN-13: 978-1-848872578

Published by Atlantic Books, Ormond House, 26-27 Bosewell Street, London, WC1N 3JZ (U.K.)

ح العبيكان، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.
أوروك، بي. جي.
ملاحظات على ثروة الأمم./ بي. جي. أوروك؛
معين الإمام - الرياض، ١٤٣٣هـ.
٢٨٨ ص؛ ١٤ × ٢١ سم.
ردمك: ٤-٢٢٥-٥٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- السياسة الدولية. ٢- الاقتصاد الدولي. ٣- العلاقات الدولية.
أ.الإمام، معين (مترجم) ب. العنوان
ديوي ٣٣٧ رقم الإيداع ١٤٣٣/٦٦٤

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية
طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٠٨٠٩٥
ص.ب ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

موقعنا على الإنترنت
www.obeikanpublishing.com
متجر العبيكان Obeikan على أبل
http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية
طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول
هاتف ٤٨٠٨٦٥٤ فاكس ٤٨٨٩٠٢٣
ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥
www.obeikanretail.com

المحتوى

كلمة شكر

يعود الفضل إلى توبي موندي، رئيس دار أتلانتيك بوكس Atlantic Books على الفكرة اللماحة لهذه السلسلة من الكتب التفسيرية. كان توبي هو من اختارني (ولا يحق لي الحكم على مدى صواب الاختيار) لكتابة واحد منها. لكن بغض النظر عن شعور القارئ وحكمه، أشعر بالامتنان على التجربة. مع أنها رمت بي في غيهب الطرف العميق من البركة الفكرية، حيث لم أعتد السباحة.

أعبر عن الشكر أيضًا لمورغان إنتريكين، رئيس مؤسسة غروف أتلانتيك Grove Atlantic العالمية، التي قدرت عاليًا أهمية مشورتها التحريرية (بإعادة كتابة كل شيء) وإن لم أعمل بها. نحن، أنا ومورغان، شريكان في ذلك الاتحاد المدني المعروف باسم الكاتب المحرر (وتعترف به غالبية الدول) منذ عام ١٩٨٣. وقد طبع كل كتاب ألفته، على مسؤوليته الشخصية.

ظهر الفصل الثالث من هذا الكتاب، الذي يتناول مؤلف آدم سميث (نظرية العواطف الأخلاقية)، بشكل مختلف إلى حد ما، في مجلة ويكلي ستاندارد Weekly Standard. وأدين بالفضل إلى نشره بذلك الشكل الراقي، الذي أتاح لي على مدى أكثر من عقد من السنين أن أتحدث طويلًا حتى عن (نظرية العواطف الأخلاقية).

أعبر عن جزيل الشكر أيضًا إلى معهد كاتو Cato Institution في واشنطن، وهو مؤسسة استشارية لا حزبية تشجع الحرية الفردية التي نحبها كلنا، وتلح على المسؤولية الفردية التي لا نحبها بالقدر نفسه. يرأس المعهد إد كرين؛ ويقوم بمعظم النشاط نائب الرئيس التنفيذي ديفيد بوز، أما أنا - الباحث الزميل في المعهد - فلا أفعل شيئًا. توم بالمر، كبير الزملاء الباحثين في معهد كاتو، والمختص الأصيل بآدم سميث، هو الذي أخذ بيدي وهداني في متاهة (ثورة الأمم). وهو الذي أشار إلى أن آدم سميث، حين استخدم مثال القنادس والغزلان الميتة لاستكشاف طبيعة القيمة، لم يكن يعرف ما يقول. وهو الذي لاحظ المفارقة المثيرة للسخرية في السياسة الميركانتيلية، حيث تحاول أن تفعل في البلد زمن السلم ما يسعى العدو إلى فعله فيها زمن الحرب.

قبل بضع سنين، عرض علي معهد كاتو إلقاء سلسلة من المحاضرات بعنوان (تشجيع المجتمع المدني)، وسرعان ما تحولت إلى أقراص مضغوطة وأشرطة تسجيل (كاسيت). وكانت التسجيلات الأربعة التي كرست لكتاب (ثروة الأمم) ممتازة ومفيدة وبليغة. في حين كان الاستماع إليها، وفقًا لمصدر مرجعي مطلع (زوجتي)، أمتع من الاستماع إلي.

زودتني مارغريت ماريوتي، بما تتميز به من مهارات لغوية ومعرفة عميقة بالثقافة الفرنسية السائدة في القرن الثامن عشر،

بترجمة قابلة للفهم لرسالة مدام ريكوبوني إلى ديفيد غاريك. فحتى بالنسبة للخبير المطلع على الفرنسية، بدت تلك الرسالة خلطة مشوشة لا يمكن فك رموزها، تشابكت فيها القواعد اللغوية البائدة والعبارات المحكية الميتة منذ عهد بعيد.

وزود جيمس كيغلي، ببراعته ومهارته المعهودتين خلف عدسة الكاميرا، القراء بصورة أبدو فيها - بطريقة تفتقد إلى الصحة ربما - ذكيًّا أريبًا وسيمًا.

تحدثت عن كتابي (دون نهاية كما أخشى) إلى الذين ناقشت معهم كل ما يتجاوز فهمي (لكن نادرًا ما تجاوز أفهامهم): أندي ودينيس فيرغسون، ونيك وماري إيبرستادت، ومايكل ليهنر، وتينا أورورك. ونظرًا لأن هذه الأخيرة متزوجة من المؤلف، فقد كان عليها تحمل الكلام ليلًا ونهارًا. أشكرهم كلهم على صبرهم الجميل وأفكارهم الحكيمة.

أتى مزيد من الصبر الجميل والأفكار الحكيمة من إد كرين، وديفيد بوز، وريتشارد ستار، وفيليب تيرزيان، وريتشارد بايبس، وتشارلز موراي، وكريس ديموث، وتوبي ليستر، وكولين موري.

أدين بالفضل أيضًا إلى ديفيد بروكس على تذكير القراء، في إحدى مقالاته الممتازة في صحيفة نيويورك تايمز (يجب أن يمنحوه إدارة الصحيفة برمتها)، بأن أسس مبادئ السوق الحر

كانت مفهومة منذ عصر ألبيرتوس ماغنوس في القرن الثالث عشر على أقل تقدير. كما أشكر روبرت صمويلسون على تقاريره المدهشة المستمرة حول تحليل الشؤون الاقتصادية. في عام ٢٠٠٥، أثبت صمويلسون في عموده في صحيفة واشنطن بوست فهمه الكامل لحجة آدم سميث ضد السيطرة الحكومية والتخطيط الاقتصادي والادعاء بأنهما يمثلان الحل للمشكلات كلها، في جملة واحدة: (كلما تناقص فهمنا للاقتصاد تحسن وضعه).

روى لي الدكتور وليام فروند، الذي ظل سنين طويلة كبير الخبراء الاقتصاديين في بورصة نيويورك، دعابة وجدت تذكرها مفيدًا: (الاقتصادي رجل يعرف مئة طريقة وطريقة لممارسة الحب دون أن ينجب طفلًا).

اشتكيت أمام المحامي والخبير القانوني بيتر هوبر من بعض الجفاف والصعوبة في تفكير سميث. فقال: يمكن للكاتب أن يكون مملًّا وجافًّا في الأسلوب بقدر ما يشاء طالما يعرض أفكارًا لماحة ورؤى مبتكرة. مما جعلني أتذكر أنني لا أفعل، ومن ثم دفعني إلى واجب الحفاظ على أفكاري الخاصة بعيدًا عن الموضوع بقدر الإمكان، وهذا ما آمل، لكن لا أعد، به.

ما أعد به هو امتنان لا ينتهي لكل من تينا أورورك وكايتلين رودس على ما أجرته من أبحاث وما بذلته من جهد لأخذ الشكل

الـذي تحولـت إليه، بعـد مرورها عبر جهـازي الهضمـي الذهني، وتلقيمه إلى جهاز الكمبيوتر.

أود في الختـام الإشـارة إلى جهة لا يوجـد داع لشكرها: جامعة كامـبردج، التـي فصلت دراسة علـم الاقتصاد عـن دراسة مبحث الأخلاق عام ١٩٠٣. مبكرةً قليلًا.

(لم يأخـذ منـه سوى مـا أتاحت له قدرة عقلـه المسطح، بينما تـرك جوهر تفكير آدم سميث. ولا ريب في أن مجرد استعارة قبعة لأي غرض تتطلب نوعًا من التماثل في حجم الرأسين).

مؤرخ سيرة آدم سميث، جون راي،

في تعليق على مؤلف سابق حاول انتحال عمل سميث الشهير.



١

بحث في طبيعة
ثروة الأمم وأسبابها

يُعد (ثروة الأمم) دون ريب كتابًا غيّر العالم. لكن تأثيره تطلب وقتًا. فعلى الرغم من انقضاء مئتين وواحد وثلاثين عامًا على نشره، ما زالت الحقائق العملية لأفكار آدم سميث في طور بداية الفهم والتمثل والهضم. وكثيرًا ما تخفق دروس آدم سميث في التأثير في المجالات التي تحظى فيها بالأهمية القصوى - مجالس الاتحاد الأوروبي، ومنظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد الدولي، والبرلمان البريطاني، والكونغرس الأمريكي - بقدر ما يزداد فهمها ويتعاظم تمثلها.

مبادئ آدم سميث البسيطة:

كشف آدم سميث سر الاقتصاد المبهم بجملة خاطفة كلمح البصر: (الاستهلاك هو الغرض الوحيد للإنتاج كله)[1]. لا يوجد

سر مكنون. أبعد سميث (الميتا) عن (الفيزيقا). فالاقتصاد هو بالضبط عيشنا ورزقنا وحياتنا ولا شيء سواها.

يؤكد (ثروة الأمم) بالحجة ثلاثة مبادئ رئيسة، ويثبتها بالتفكير النظري وبوفرة من الأمثلة العملية. حتى المفكرين/ المنظّرين يجب ألا يواجهوا صعوبة في فهم أفكار آدم سميث: يعتمد التقدم الاقتصادي على حق فردي خاص ثلاثي الشعب: السعي وراء المصلحة الشخصية، وتقسيم العمل، وحرية التجارة.

لا يوجد خطأ لزومي متأصل في السعي وراء المصلحة الشخصية وفقًا لأفضل الرؤى الثاقبة لآدم سميث. ولا يعد ذلك خبرًا جديدًا للقارئ في القرن الحادي والعشرين. بل هو المضمون الحقيقي للأخبار كلها. ففي هذه الأيام، تُعلن الغيرية ذاتها على رؤوس الأشهاد، بعد أن تخلى المحسنون عن مبدأ (لا تعرف اليمنى ما أنفقت اليسرى). ومن المؤكد أن الشهرة تجسد أيضًا سعيًا وراء المصلحة الشخصية. فقد وجد بوب غيلدوف(*)، مثلًا، طريقته الخاصة للشهرة والبقاء في نادي المشهورين. لكن في معظم حقب التاريخ، تطلبت الحكمة والمعتقدات والأعراف والتقاليد إخضاع الأنا، وكبح المطمح الشخصي، والتضحية بالنفس (وبأفراد الأسرة، كما فعل إبراهيم الخليل بابنه إسحق).

(*)مطرب (روك) أيرلندي ولد عام ١٩٥٤. في منتصف الثمانينيات، أنشأ جماعة خيرية (Band Aid) بهدف جمع التبرعات وإغاثة ضحايا المجاعات في العالم، خصوصًا في إثيوبيا. (المترجم).

كان لهذه الطاعة والخضوع وعدم أخذ زمام المبادرة هدف وغاية. إذ حرم غالبية الناس (الرعية) من حق التحكم بظروفهم المادية، أو حتى بأجسادهم ونفوسهم (إن كانوا من العبيد أو الأقنان). ففي حياة الذل والخنوع التي سادت في العصور القديمة والوسطى، دفع التقشف البشر إلى الشعور بأن حياتهم لا تختلف كثيرًا عن (عيشة الكلاب).

لكن آدم سميث عاش في مكان وزمان بدأ فيهما الأفراد يتمتعون ببعض القدرة على السعي وراء مصالحهم الشخصية. في فصل (في أجور العمل)، في الجزء الأول من (ثروة الأمم)، كتب سميث ملاحظًا بنبرة اقتربت من التورية الساخرة الحديثة: (هل يجب اعتبار هذا التحسن في ظروف الطبقات الدنيا ميزة لمصلحة المجتمع أم مثلبة وسببًا لمشكلاته؟)[٢].

إذا لم يُعّد الرخاء (الاقتصادي) في مصلحة الطبقات الدنيا من الناس حتى القرن الثامن عشر، على الرغم من وضوح الفكرة الصارخ الذي لا يحتاج إلى دليل، فإن السبب يعود إلى عدم اهتمام أحد بأخذ رأيهم. وفي كثير من الأماكن، لم يأبه أحد بمعرفة رأيهم حتى ذلك الحين. لكن ليس من الحمق أو الخطأ أو الابتذال أبدًا أن نحسن ظروفنا المعيشية، ولا ينتهك هذا المسعى المقدسات والمحرمات، المسألة كلها تتعلق بطريقة تحقيق هذا المسعى وأسلوبه.

الجواب هو تقسيم العمل. كانت الإجابة جلية للجميع اللهم باستثناء معظم المفكرين الذين نظّروا للاقتصاد قبل آدم سميث. إذ وجد تقسيم العمل منذ وجود البشر. منذ أن تقاسمه أبوهم آدم وأمهم حواء فيما بينهما. ولأن القسمة كانت ظالمة، فقد تحملت المرأة آلام المخاض في حين بقي الرجل (يقطف الورد ويشم الهوا) في الحديقة.

لم يكن آدم، وفقًا للاعتبار الراهن، أول فيلسوف يلاحظ التخصص أو يرى تقسيم العمل بوصفه أصيلًا وفطريًّا كالعمل تمامًا. لكن بالمستطاع إثبات أنه أول من فهم المضامين المتعددة والمقتضيات المتنوعة لتقسيم العمل. وفي الحقيقة، يبدو كأنه ابتكر التعبير.

الذكي النحيل الضعيف، صاحب العقل المبدع يبتكر للقناة سنانًا. والغبي الشجاع القوي، صاحب العضلات المفتولة يطعن به الماموث. والفنان ينقش المشهد على جدران الكهف. شخص يصنع شيئًا، وآخر يصنع شيئًا آخر، والكل يريدون كل شيء.

من هنا ولدت التجارة. قد تكون التجارة جيدة نظريًّا، أو يكون الاكتفاء الذاتي أفضل منها، لكن حتى مجرد التفكير في مثل هذه النظريات مضيعة لذلك التخصص المفيد بين الحين والآخر. التجارة حقيقة واقعية.

رأى سميث أن أنواع التجارة كلها، حين تكون حرة، هي – بالتعريف – تبادلية في الفائدة والمنفعة. شخص لديه شيء ويرغب

في شيء آخر لدى شخص آخر يريد ما عنده. ربما كانت القسمة في المثال السابق ضيزى. إذ لا يمكن لمشاهدة لوحة منقوشة على جدار كهف أن تساوي مئة وخمسة وعشرين كيلوغرامًا من لحم الماموث. ربما تكون السمة التبادلية غير متوازنة. الفنان الجائع يلتهم اللحم الشهي طوال شهور، في حين يقف الغبي الشجاع الخاضع للسيد (الفنان) الجديد مذهولاً محتارًا في كهف لاسكو(*). وماذا عن المبتكر الماكر للسنان وعملية شحذه؟ لا بد أنه أخذ نصيبه من شرائح لحم الماموث. لم يسألونا رأينا. ويجب ألا نتدخل في الاتفاق المعقود بينهم، فالعقد شريعة المتعاقدين.

لماذا لا يعد استقصاء مبادئ آدم سميث البسيطة استقصاء لآدم سميث؟

لا يحق لنا التدخل في معظم ما يفعله الناس في أغلب أوقاتهم. هذه فكرة حديثة تماماً. وتجعل الحياة الخاصة - التي لا يحق لنا حشر أنوفنا الفضولية فيها - أكثر سحراً وجاذبية للناس من الحياة الخاصة في الحقب ما قبل الحديثة. وآدم سميث ينتمي إلى الحقبة ما قبل الحديثة، لذلك نظم كتابه بأسلوب عتيق الطراز. فأفكار الإنسان تأتي أولاً، وبعدها يأتي هو. ساعد آدم سميث على إنتاج عالم من الفردانية، والاستقلال الذاتي، وتحقيق الرغبات

(*) Grotte de Lascaux: كهف اكتشف في فرنسا عام ١٩٤٠، يحوي رسومًا منقوشة على جدرانه تعود إلى الحقبة الممتدة بين عامي ١٣٠٠٠-٨٥٠٠ ق. م. (المترجم)

الشخصية، لكن ذلك العالم لم ينتجه. فقد انتمى إلى مدرسة فكرية أقدم عهدًا في تراثها، وأكثر تجريدًا في تقاليدها.

حين تغير أفكار شخص معاصر ملمحًا من ملامح وجه العالم، نريد أن نتعرف عليه وننبش تاريخ حياته. على سبيل المثال، هل أتت جوليا تشايلد(*) من خلفية لها علاقة بالطهي، أم أن أمها حضرت عجة البيض مع الجبنة ولحم العجل الكندي على طريقة أمهاتنا؟ ما العناصر الطبيعية والتغذوية، والعوامل النفسية، والخبرة والتجربة، التي طورت تفكير جوليا تشايلد؟ لكن مر زمن تطورت فيه غالبية الأفكار من أفكار أخرى. لم يكن المفكرون يفكرون في أنفسهم، ولم يكن جمهورهم يفكر فيهم أيضًا بوصفهم شخوصاً من لحم ودم. ضاع الكل في الفكر. اعتذر دوغلاس ستيوارت، الذي نشر عام ١٨٥٨ أول سيرة تؤرخ لآدم سميث، عن الأحداث الشخصية النادرة التي وردت فيها بالقول: (يمكن لتاريخ حياة الفيلسوف أن تضم أكثر قليلًا من تاريخ أفكاره التأملية)[٣].

ثمة سبب آخر لتقديم تاريخ آدم سميث الفكري على تاريخ آدم سميث الشخصي؛ يتمثل في أنه عاش حياة تناقض الحياة الحديثة لم تشهد أحداثًا مهمة لكنها مثيرة للاهتمام. كان أكاديميًّا لكنه لم يثر النزاع والخلاف. إذ تبنى آراء سياسية إصلاحية تقليدية

(*) (١٩١٢-٢٠٠٤): خبيرة أمريكية في الطهي، ومؤلفة، وشخصية تلفزيونية شهيرة، أسهمت في نشر الطبخ والمطبخ الفرنسيين في الولايات المتحدة. (المترجم).

ومعتدلة، وربما سينضم إلى حزب (الويغ) - الأحرار فيما بعد- المناهض للمحافظين لو اهتم بالانخراط في معترك السياسة الحزبية. أصبح موظفًا بيروقراطيًّا حكوميًّا. لكن جوهر تفكيره - ليس من حقنا التدخل- سوف يقلب رأسًا على عقب (كما آمل في نهاية المطاف) ما تفعله السلطات السياسية والدينية وفعلته على مدى عشرة آلاف سنة. التفكير يحقق نجاحاً منذ الآن في بعض الدول. هنالك أصقاع من الأرض تشهد فيها الحياة اختلافًا بينًا عن تلك التي لوح فيها أول طاغية مستبد بعصاه مهدداً أو أعلن أول مشعوذ دجال طقوسه المبهمة ونطق بأفكاره المشوشة، لتوكيد السلطة القراقوشية وترسيخ الطغيان في المقام الأول.

تقوم السلطة أساسًا على التدخل في شؤون الآخرين. إذ لا يمكن للأمراء والكهان مقاومة فرض القيود والحدود على السعي وراء المصلحة الشخصية، وتقسيم العمل، وحرية التجارة. فالمساعي الناجحة في هذا السياق تعني تحدي السلطة. فإذا حصل الناس على الوظائف التي أرادوها سوف يسعون وراء حريات أخرى. أما بالنسبة للتجارة، فيجب التحكم فيها.

لا يعد التقييد تقييداً إلا إذا شمل نوعاً من الإكراه والإجبار. لو عدنا إلى مثال كهف لاسكو، أمكننا القول إن الإكراه يحدث حين يستولي أحدهم على سنان الرمح، ولحم الماموث، واللوحة المنقوشة على جدار الكهف، والكهف. ثم يقتل الآخرين.

يدمر الإكراه طبيعة المنفعة التبادلية للتجارة، وهذا يقوض بدوره المتاجرة، فيدمر تقسيم العمل، وتلحقه المصلحة الشخصية. وعند وضع القيود، مهما كانت واهية، على حرية التجارة، تحدث قفزة شبيهة بالقفزة الماوية الكبرى(*) إلى الأمام. كما يؤدي تقييد أي من الحقين الآخرين إلى النتيجة نفسها. في حين يتحول من يقيد الحقوق الثلاثة إلى ماو تسي تونغ آخر.

مبادئ آدم سميث الأقل بساطة:

يتضح من كتابات آدم سميث الأخرى أنه كان مؤيدًا للحرية وأخلاقياتها. لكن الحجج المقدمة لمصلحة الحرية في (ثروة الأمم) تعد براغماتية إلى حد مقلق تقريباً. إذ عارض سميث معظم القيود الاقتصادية: التعرفة الجمركية، وزيادة العرض، والحصص، والتحكم في الأسعار، وتضامن العمال لرفع الأجور، وموافقة أرباب العمل على الأجر الثابت، والاحتكارات، والكارتيلات، وحقوق العمال، والنقابات، وعقود تدريب العمال والحرفيين، والعبودية بالطبع. بل عارض حتى تراخيص الأطباء، على اعتبار أن التراخيص سوف تشرعن على الأرجح الأطباء المزيفين أكثر من السوق. لكن سميث فضل وضع كثير من القيود على الأشخاص، خوفاً من أن تصبح القوة الغاشمة عملة شائعة في دولة فوضوية يغيب عنها القانون.

(*) سياسة اتبعتها جمهورية الصين الشعبية بين عامي ١٩٥٨-١٩٦٠ لتحديث القطاع الزراعي عبر أساليب اعتمدت على تكثيف العمالة. (المترجم).

وبكلمات أشد إثارة للحزن وأكثر صدقًا مما اعتدنا سماعه من خبير اقتصادي، أعلن سميث أن (الأمن والنظام في المجتمع أكثر أهمية حتى من إغاثة البؤساء والمحرومين)[٤]. في غياب الحرية الاقتصادية يزداد عدد البؤساء والمحرومين، مما يتطلب مزيدًا من القيود لإخضاعهم والحفاظ على الأمن والهدوء بينهم، فيؤدي ذلك إلى خسارة مزيد من الحرية.

أدرك سميث أيضاً أن للحرية الاقتصادية جوانب تثير الاستياء والتململ. وأقلقته بوجه خاص نتائج المبالغة في تقسيم العمل: (الرجل الذي يقضي حياته كلها يؤدي بضع عمليات بسيطة.. يعاني عمومًا أقصى درجة من الغباء والجهل ينحدر إليها مخلوق)[٥]. رأينا ذلك في عدد لا يحصى من السياسيين الذين يخوضون الحملات الانتخابية بأساليبهم المكررة وأقوالهم المعادة. لكن التخصص عامل مفيد، والإنتاجية من كل نوع يمكن أن تزداد به. والتخصص في السياسة يمنع السياسيين على أقل تقدير من إدارة الشركات والنشاطات التجارية، حيث يمكن لما يتصفون به من غباء وجهل أن يسبب ضرراً أفدح للنمو الاقتصادي.

مبادئ آدم سميث الأكثر تعقيداً:

دحضَ منطقُ سميث عندما أظهر كيفية زيادة الإنتاجية عبر السعي وراء المصلحة الشخصية، وتقسيم العمل، وحرية التجارة، النظريةَ القائلة إن تحسين حال شخص يؤدي لزومًا إلى تدهور حال

آخر (النظرية ما يزال يعتنقها اليساريون، وكل شقيق أصغر سنًا من أخيه البكر). لكن الثروة ليست قطعة من البيتزا. فإذا أكلت أنا عدداً كبيراً من الشرائح، لست مضطرًا أنت لأكل العلبة الكرتونية.

وعبر إثبات حقيقة عدم وجود حجم ثابت للثروة في الأمة، برهن سميث أيضاً على استحالة القول إن لدى الأمة كومة من الكنوز الدفينة. إذ يجب قياس الثروة بواسطة حجم التبادلات التجارية في السلع والخدمات ما يجري في مطابخ القلاع وإسطبلاتها، لا ما يكدس في الخزائن المقفلة في أبراجها. وحدد هذا المقياس في الجملة الأولى من مقدمته لـ (ثروة الأمم): (العمل السنوي لكل أمة هو الصندوق الذي يزودها أساسًا بضروريات الحياة ومتطلباتها التي تستهلكها سنويًّا)(٦). ومن ثم، أوجد - بضربة واحدة - مفهوم الناتج المحلي الإجمالي. ومن دون الناتج المحلي الإجمالي، لن يبقى للخبراء الاقتصاديين المتحذلقين في عصرنا الحديث ما يقولونه على شاشات التلفزيون.

إذا كانت الثروة في حالة مد وجزر فكذلك مقياسها: المال. ليس للمال قيمة ذاتية متأصلة فيه. وأولئك الذين امتد بهم العمر وسمعوا عن جمهورية فايمار ثم شهدوا عهد إدارة كارتر لا يعبرون عن خيبة الأمل بهذه الحقيقة. لكن المال في القرن الثامن عشر كان لا يزال مصنوعاً من المعادن الثمينة. ولا بد أن ملاحظات سميث لى المال قد خيبت آمال قرائه قليلًا، على الرغم من المثال الذي

جسدته أمام عيونهم إسبانيا، الواسعة الثراء في الظاهر - لكن الفقيرة في الواقع - ليثبت آراءه. صحيح أن الذهب يساوي.. وزنه ذهبًا بالتأكيد، لكنه لا يساوي، بالقدر نفسه من التأكيد، كل شيء آخر. بدا الأمر وكأن سميث، بعد أن أثبت قدرتنا كلنا على جني مزيد من المال، أراد إثبات أن المال لا يشتري السعادة. لا، لا يشتري السعادة؛ بل يؤجرها.

مبادئ آدم سميث: تأثيرها الرئيس:

في مصادفة محكمة، نشر كتاب (ثروة الأمم) في السنة ذاتها التي أعلنت فيها أعظم دولة رأسمالية في التاريخ استقلالها. وبالنسبة إلى المثقفين في بريطانيا العظمى، كانت فكرة قيام الولايات المتحدة الأمريكية تتجاوز في تناقضها مع المنطق والعقل والتوقعات، وفي الغرابة، أفكار آدم سميث كلها. لم يكن (ثروة الأمم) كتابًا سهلًا، حتى وفقًا لأصعب معايير قراء القرن الثامن عشر. لكنه حقق نجاحًا كبيرًا لدى النقاد وبعض النجاح لدى القراء العاديين. إذ بيعت الطبعة الأولى في ستة أشهر، مما فاجأ الناشر. وفيما عدا ذلك، لم يفاجئ عمل سميث على ما يبدو معاصريه أو يصدمهم.

على سبيل المثال، لم يفزع أحد اقتراح سميث بإعطاء الأولوية الاقتصادية للمصلحة الشخصية. فالمصلحة الشخصية التي تجعل عجلة الاقتصاد تدور قد نالت الاعتراف والإقرار منذ أن بدأت

الأرض تدور – سر مفضوح يعلمه الكل. وأقلقت الفكرة المقلقة بأن المال عبارة عن قيمة متخيلة صديق آدم سميث المقرب ديفيد هيوم(*) قبل ربع قرن. وفي الحقيقة، فهمت الخاصية الوهمية للمال منذ العصور الكلاسيكية. ففي الحقبة التي امتدت مئتي عام بين حكم الإمبراطورين نيرون وغاليينوس، قلصت الادعاءات الإمبراطورية المزيفة قيمة ما تحتويه دار سك النقود الرومانية من فضة من ١٠٠٪ إلى صفر.

لكن على الرغم من أن محتوى (ثروة الأمم) لم يصدم القراء أو يذهلهم، إلا أن شيئًا فيه تعشق مع تروس التفكير في عصره - إذا جاز التعبير. ولا يزال ذلك الشيء موجودًا في أذهاننا. وأستطيع الشعور به حين يخطر ببالي موضوع المصلحة الشخصية.

لا، لا، لست أنانيًّا. بل أفكر في البيئة والمواطنين الأقل حظًا. وأرثي لحال أولئك التعساء الذين لا يأبهون لمشكلة التلوث، والاحتباس الحراري، وانقراض الأنواع. أفكر فيهم كثيرًا، وآمل أن يخسروا الانتخابات القادمة. ليحل محلهم في المناصب الحكومية مسؤولون يتميزون بقدر أكبر من الاهتمام والرعاية والتعاطف مع الآخرين، ويتخلون عن دوافعهم الأنانية. فإذا انتخبنا محافظًا من أنصار حماية البيئة، لن يتمكن مسؤولو البلدية من اعتراض اقتراحي بشأن المحيط.

(*) (١٧١١-١٧٧٦): فيلسوف ومؤرخ اسكتلندي. (المترجم)

دعونا نواجه الحقيقة. (الطبقات الدنيا من الناس) تملك كثيرًا من المال فعلًا. انظروا مثلًا إلى ويتني سبيرز. أو إن أردتم أشير إلى مثال أوضح: الأثرياء المغرمون بالمظاهر الذين يبتاعون القصور على طول الشاطئ. ربما تظن أنك لا تنتمي إلى (الطبقات الدنيا)، لأن لديك سيارتين ومطبخًا مجهزًا بأحدث الأدوات، وتجني الكثير من المال. لكن أسلوب حياتك لا يعد (ملائمًا للمجتمع) في ذروة نجاحه، مثلما تكتشف حين أعدل مكان سيارتك الفارهة التي تحتل مساحة ثلاث سيارات في الموقف.

أعرف نوعك. أنت تعمل طوال النهار، ثمانين أو مئة ساعة في الأسبوع، في مجال تخصصي معين لا يفهمه غيرك، في شارع المال (Wall Street)، أو في مكتب محاماة فخم، أو في غرفة عمليات في مستشفى شهير. شخص يحاول إقامة توازن بين الوظيفة والحياة والأسرة.. ليصبح متوازنًا. لهذا السبب نخطط، أنا وزوجتي، لنأكل مما نزرع (يمكن تخزين جذور اللفت مدة سنة كاملة!)، ونتعامل مع خدمات التجارة الإلكترونية النزيهة فقط، وندفئ المنزل بالطاقة النظيفة من المصادر المتجددة، مثل قوة الرياح المستمدة من التيار الذي يهب من تحت الأبواب، ونحيك ملابس أطفالنا بالصوف الحيوي من الخراف التي تربت في ظل ظروف إنسانية، في حديقة المنزل. وهذا يجعل الأطفال يشعرون بالدفء والراحة، مع بعض المنغصات القليلة، ويبني شخصياتهم لأنهم سيتعرضون للمكايدة في الشارع.

حسنًا. أعترف بأن إزالة كل عائق يقيد حرية السوق عمل (يفيد الاقتصاد). لكن المال ليس كل شيء. لنفكر في الخطر والضرر على المجتمع. فلولا قوانين الحكومة وأنظمتها لتمكن كبار المتنفذين الذين يديرون شركات مثل إنرون، وورلدكوم، وتايكو (Enron, WorldCom and Tyco) من الاحتيال على المستثمرين وخداعهم واختلاس الملايين. ولولا القيود على مبيعات المواد الخطرة والضارة لسهل على الشباب ربما تدخين السجائر وشرب المسكرات، بل تناول المخدرات. ولولا التراخيص الضرورية لممارسة مهنة الطب لأصبح الطريق معبدًا أمام التداوي من الأمراض بالطب البديل، مثل المعالجة اليدوية، ومعالجة الاعتلال العظمي، والعلاج بالزيوت والمراهم النباتية. ولو لم نؤسس النقابات العمالية لبقي ثلاثون ألف عامل في شركة جنرال موتورز (GM) يعيشون على أجر لا يسد الرمق، ولتحولت حياتهم اليومية إلى أشغال شاقة مؤبدة لا هدف لها ولا غاية. ولولا الأشكال المتنوعة من التعاون السري بين محطات الوقود في الصناعة النفطية، لتنافست على تقديم أرخص سعر ممكن، واضطررت إلى التجول في شوارع المدينة كلها بحثًا عن أرخص سعر، وهذا يهدر كثيرًا من الوقود!

لنفكر أيضًا في الضرر الذي يحدث لبلدان العالم النامي. الأغنيات التي يمكن تحميلها على أجهزة (MP3) الرخيصة المستوردة من الولايات المتحدة سوف تؤثر في كل فرقة موسيقية في

البيرو وتدفعها إلى الإفلاس وتخرجها من الميدان. إضافة إلى ذلك كله، تتطلب بعض الوظائف حماية لضمان أدائها ضمن المجتمعات المحلية. وظيفتي هي ابتكار الملاحظات الساخرة والدعابات الهازلة والتعليقات العابثة. لكن هناك شخص في مومباي، أكثر شبابًا وذكاء وهزلًا، على استعداد لأداء مهمات وظيفتي بأجر أقل. ومن ثم يمكنه أن يؤديها بعقد من الباطن؛ لكنه يختار الدعابات التي يريدها وفقًا لمزاجه. فمن يؤنب زوجتي وينتقدها؟ ومن الذي ستتهمه حماتي بأنه أهانها بدعاباته؟ ومن الذي سيتجنب لسانه أصدقائي؟

ربما يستطيع هذا الشاب المجهول، على بعد عشرة آلاف ميل، أن يجمح بروح الدعابة التي يتمتع بها. ربما يكتب الآن، مثلًا، تلك المقالة المسلية التي أكتبها مرة في السنة عن المعاناة والمشقة (واللحظات الإنسانية النبيلة) للأطفال الذي يؤخذون لزيارة مانهاتن في عطلة عيد الميلاد. حيث يحاصرون خلف الواجهات الزجاجية للمتاجر متعددة الأقسام، ويدفعون دفعًا تحت شجرة عيد الميلاد المنتصبة عند مركز روكفلر، ويتعرضون للاصطدام والسقوط في حلقة التزلج في سنترال بارك المكتظة بالأوروبيين واليابانيين والأمريكيين القادمين من مناطق الغرب الأوسط.

من أجل المحاسبة والمساءلة، والحساسية تجاه اللغة المزعجة، والمسؤولية الاجتماعية تجاه الأشياء كلها، يحتاج حديثي عن التدفق الحر للسلع والخدمات، الذي أشار إليه آدم سميث، إلى مصاحبة

تهديد بتدفق سيل آخر على الأقل: رمي أحد المستنكرين لما أقول بمحتويات كأس الشراب في وجهي.

ثم هنالك مسألة السلع والخدمات – الناتج المحلي الإجمالي الذي كتب عنه آدم سميث. أنا محلي إلى أقصى حد كغيري. لكن أين الناتج؟ كيف حدث وتدفقت السلع والخدمات كلها خارجة من حسابي المصرفي بدلًا من التدفق إليه؟ أعرف بالطبع أن المال لا يمثل القيمة الحقيقية. بل هو الحب. وحسابي المصرفي متخم بالحب، وسوف أصرفه من هناك. وإذا كان المال لا يهم، فلماذا بقي ألان غرينسبان(*) شخصية نافذة ومهمة ومؤثرة على مدى تلك السنين؟ هل كان يذهب إلى مكتبه ليحل الكلمات المتقاطعة طوال اليوم؟

في الحقيقة، لا يأخذ أحد منا بديهيات آدم سميث بوصفها حقائق راسخة لا تحتمل النقاش على الأقل إلى أن تقدم لنا مكاسب ضخمة، ورواتب هائلة، وعلاوات مغرية عند نهاية السنة نتيجة تحرر الأسواق من القيود والعراقيل، وانخفاض تكاليف العمل، وزيادة الإنتاجية، وسياسة الاحتياطي الفيدرالي الراهنة. وعلى شاكلة (الاتحاد الأمريكي للشغل ومؤتمر المؤسسات الصناعية)

(*) (١٩٢٦–): خبير اقتصادي أمريكي ورئيس سابق لمجلس الاحتياط الفيدرالي. تبنى غرينسبان (الجمهوري المعتدل) مبدأ إزالة القيود والعقبات عن الصناعة المصرفية، وعارض التدخل الحكومي في الاقتصاد، خصوصًا في أزمة الانكماش التي شهدتها الولايات المتحدة في تسعينيات القرن العشرين. (المترجم).

(AFL-CIO)، وفرنسا، ومختلف أطياف المحتجين الغاضبين في الشوارع، نخالف آدم سميث ونتشاجر معه. وإذا أردنا لهذه المشاجرة أن تكون فكرية فنحن بحاجة إلى تفحص وجهة نظر آدم سميث واستقصائها بكليتها. فكتاب (ثروة الأمم) يمارس تأثيراً مهماً في عالم اليوم، مثلما اعتاد أفراد جيلي القول عنه في عالم الأمس.



٢

ما السبب وراء ضخامة سفر (ثروة الأمم)؟

حين نجلس لنقرأ تحفة آدم سميث (ثروة الأمم)، ونضع في حضننا أجزاءه الثقيلة، ثم نفتح الصفحة الأولى من صفحاته العديدة، نجد أنفسنا في حالة من الإحراج الفكري التي تتجاوز مجرد الاختلاف مع منطق سميث وحكمه البدهي السليم. نواجه إشارة استفهام كمية. وهذا ما يحدث لمعظم قراء غالبية الأعمال العظيمة (خصوصًا في وقت متأخر من الليلة السابقة على الامتحان). حتى أشد المخلصين للتفسير النصي/الحرفي للكتاب المقدس، في أي ندوة معمدانية محافظة، لا بد أن يفكر فيها (الإشارة) وهو يخوض في قوائم أنساب الأسباط في الأسفار التاريخية (في العهد القديم)[1].

وأنا، أو في الأيام السعيدة التي أعتقد فيها أنني كذلك، مؤيد مخلص للأسواق الحرة ومدافع متحمس عنها. لكن (ثروة الأمم)، في نسخة

(مودرن لايبراري) التي بحوزتي، مؤلف من تسعمئة صفحة، إضافة إلى تمهيد، ومقدمة المحرر، وملحق.

قيل لي إن من مسرات الكهولة قراءة الكلاسيكيات مرة أخرى. لكنني الآن، بعد مرور أربعين سنة تقريباً على آخر درس حضرته في الجامعة، نسيت كل شيء عنها. من المفترض بي أن أكتسب رؤية إدراكية جديدة وناضجة من (حوارات) أفلاطون؛ وأتذوق طعمًا جديدًا وطازجًا في (ضياع الفردوس)؛ وأعرف بوصفي راشدًا بالغًا العجائب المنسية لـ (ثروة الأمم). وهذه تشمل التساؤل: هل قرأته فعلًا من قبل؟ ثم اختبرت نفسي بسؤال صريح: هل نسيت المرجع الشهير الذي يشرح روائع الكتب (مونارك نوتس) (Monarch Notes)؟

على أي حال، ثمة متعة أخرى في منتصف العمر هي أن الكهل لا يتأثر كثيرًا بالغضب الناجم عن الخذلان وخيبة الأمل. فأنا الآن على أتم الاستعداد لطرح السؤال الذي لم أمتلك الشجاعة لطرحه، حين كنت طالبًا جامعيًّا. تصوروا طالبًا في سنة التخرج يستحضر ما لديه من جرأة ليسأل عن السبب وراء التطويل الممل في رواية جورج إليوت (ميدلمارش Middlemarch)!

يتمثل أحد أكثر الأسباب بساطة وراء عدم اقتصاد سميث في الكلمات في أنه ملائم اقتصاديًّا. فحين نشر الكتاب بلغ سعر النسخة جنيهًا وستة عشر شلنًا. ووفقًا لتقديرات سميث ذاته، لم يتجاوز (أجر العامل العادي) آنذاك عشرة شلنات في الأسبوع.

وكان المستهلكون، حتى المستهلكين الميسورين للسلع الفكرية المترفة، يطالبون بأن يكون المنتج ثقيل الوزن كبير الحجم. لنقارن الحال مثلًا مع (اعتذار عن حياته) لبيل كلينتون الذي يمكن إيجازه ببضع كلمات مختارة.

جمع (القارئ الليبرتاري)، الذي نشره معهد كاتو عام ١٩٩٧، الأفكار الجوهرية لآدم سميث، المقتطفة من (ثروة الأمم)، في سبع صفحات ونصف الصفحة. وحين كان ديفيد بوز، نائب المدير التنفيذي للمعهد، ومحرر (القارئ)، يكتب المقدمة، أضاف شيئًا بقصد توفير المتعة الكاملة لقراء كل عمل أصيل استمد منه مادته. لا، لا، ليس (ثروة الأمم)، حسبما قال توم بالمر، كبير الزملاء في المعهد والخبير المختص (المقيم) بآدم سميث.

تمثل نبوغ سميث في ترسيخ علم الاقتصاد بوصفه فرعًا معرفيًّا متميزًا عن الخليط المتشابك والمشوش للعالمين العقلي والمادي الذي نواجهه في الاقتصاد الفعلي على أرض الواقع. لكن الأمر لا يتطلب مواجهة اقتصادية شاملة لاستحضار الخلطة المتشابكة من الفروع العلمية والمعرفية إلى رأسي. والتفكير في علم النفس، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والهندسة الميكانيكية المعنية عندما أكتشف أن طفلي البالغ خمس سنين أخذ لعبة من المتجر (السوبر ماركت) دون أن يدفع ثمنها. كان آدم سميث، مثلنا أنا وطفلي المنتحب، على استعداد للابتعاد عن المعايير الاقتصادية الصارمة.

هـا هو هنا، يسبـق عصرنا بأكثر مـن مئتين وثلاثـين سنة ليوضح السبب الكامن وراء الثروة المشينة التي جمعتها أنجلينا جولي:

> **هنالك عدد من المواهب اللطيفة والبديعة يحظى امتلاكها بنوع معين من الإعجاب؛ لكن ممارستها في سبيل المكسب تظل محل مساءلة وأخذ ورد.. مثل (الأعمال غير الشريفة).. فالمكافآت الضخمة التي ينالها الممثلون، ومغنيات الأوبرا وراقصاتها إلخ.. مؤسسة على.. ندرة المواهب وجمالها، ومسألة استخدامها[٢].**

هـذا النوع مـن الآراء هـو الذي يجعل الصفحـات التسعمئة (٨٩٢ صفحـة على وجه الدقـة) من (ثروة الأمم) غـير المتضمنة في نسخـة (القارئ الليبرتـاري)، تستحق القـراءة. أو بعضها على الأقـل. لم يخطئ تـوم بالمر فيمـا يتعلق بالقـراءة المتمهلـة المتأنية لـ (ثـروة الأمم). إذ لا تتصل استطرادات سميـث كلها براقصات الأوبرا اللاتي تتثـين وتمايلن على أنغام مونتيفيردي (شبه عاريات كما نعتقد). هنالك على سبيل المثال (الاستطراد المتعلق بالتغيرات في قيمـة الفضة على مدى القرون الأربعـة الماضية). هنا، تستعمل الخدمـة الطويلـة (للمزارعـين من أصحـاب الأراضـي) في سبيل إبطـال الفكرة القائلـة إن لبعض السلع المعينة قيمـة ثابتة، أو نحن نريدهـا أن تكون كذلك. لكن بالنسبـة للقراء غير المهتمين بالتاريخ المكتوب لمورد العملة، يبدو الأمر مثل قراءة كتاب (النضج الحديث) باللغة الأوردية.

ربما قيدت ضخامة حجم الموضوع ذاتها رغبة سميث في الإيجاز. وربما فكر، وقد بلغ الثالثة والخمسين وتدهورت صحته عندما نشر (ثروة الأمم)، بأنه لن يؤلف كتابًا آخر. وهذا ما حصل فعلاً. فقد كان (لديه الكثير مما يريد قوله وسنحت فرصة مواتية)، على حد تعبير توم بالمر.

كان القرن الثامن عشر عصر وضوح التعبير – حقبة استراحة بين الأسلوب البياني المتأنق في العصر السابق، والأسلوب الرومانتيكي السخيف للعصر اللاحق. لكن أسلوب عصر الأنوار بقي مع وضوحه مبالغاً في الإطناب والإسهاب. ولم يُعّد الاستطراد، إن بدا مهمّاً، مشتتًا لذهن القارئ. ونظر إليه القراء بالطريقة ذاتها التي تنظر عبرها الأمهات العاملات في القرن الحادي والعشرين إلى تعدد المهمات. كانت القراءة أكثر بطئاً وتمهلاً في القرن الثامن عشر، ولدى القارئ فسحة زمنية أطول يخصصها لها، نظرًا لعدم وجود جهاز تلفزيون يستهلك وقت فراغه كله!

كتب إدموند بيرك(*)، الذي لم يخرج هو أيضًا عن أسلوب الاستطراد السائد، في رسالة إلى آدم سميث يقول: (أنت في بعض المواضع مثل السيد لوك في معظم كتاباته، مغاليًا في الإطناب والتطويل. لكن هذه نقيصة من النوع السخي، ومفضلة إلى أبعد

(*) (١٧٢٩-١٧٩٧): سياسي وخطيب بريطاني دافع عن قضايا حقوق الإنسان وجذب الانتباه إليها في خطبه. كما طالب بالمصالحة مع المستعمرات الأمريكية والتوقف عن ممارسة القمع في الهند. (المترجم).

حـد على الأسلوب الجـاف العقيم، الذي يرجـح أن يسقط في فخه أصحاب المخيلات المملة البليدة)[٣].

كانـت معرفة القراءة والكتابة بـين عامة الناس ظاهرة جديدة نسبيًّا في عصر سميث، ولم يتصور أحد بعد الأسلوب الجاف العقيم في الكتب الحديثة لتدريس علم الاقتصاد. والكلمة المطبوعة أقرب مـا تكـون إلى الكلمة المنطوقـة. ولا يزال الـكلام مصـدرًا للتسلية والترفيه. أما اليوم، فلا يمكن للدليل الأخضر لـ (مؤسسة ميشلين) أن يمنـح نجمة امتياز إضافية إلى مطعم يقدم لزبائنه وجبة عشاء مـن خمسة أطباق في عشرين دقيقة. وللسبب ذاته، لم تكن البلاغة في الإيجـاز، ولم يشتهر به الخطباء – والكتّاب بالتوسع – في القرن الثامـن عشر. وربمـا يكون الإيجاز روح البلاغـة والذكاء والظرف، لكن (ثروة الأمم) ليس دعابة أو طرفة. وعلى أي حال، كان الإيجاز في التعبـير أسلوبـاً جديداً لم ينتشر إلا منذ مـدة قريبة. على سبيل المثال، لم يتلق خطاب لينكولن في بتسبرغ استجابة حماسية. إذ بقي الأميـون وأنصاف المتعلمين يفضلون الخطبـاء والخطب الحماسية والتهييجيـة على طريقة هوغو شافيز في فنزويلا، ومقدمي البرامج الإذاعية المحلية المملة.

كان آدم سميـث خطيباً ممارسـاً مفوهاً. بدأ حياته المهنية، في إدنـبرة، بإلقاء الخطب الفكرية المأجـورة. وقضى ثلاثة عشر عاماً يحاضـر في جامعـة غلاسكو، أولاً بوصفه أستـاذاً في المنطق، ثم في

فلسفة الأخلاق. فمهنته هي إلقاء المحاضرات. إذ لم يكتف أساتذة الجامعات في ستينيات القرن الثامن عشر بطرح الأسئلة المفتوحة للنقاش في الصف، ثم التشدق بالقول: (نتعلم من طلابنا أكثر مما نعلمهم). فالشكل يتبع الوظيفة. وتشبث آدم سميث بالقاعدة التي اتبعها خبراء الأسلوب التلقيني كلهم: قلْ ما تريد قوله، وما تقوله، وما قلته.

وفقاً لجون ميللار، أحد تلاميذ سميث، الذي سيصبح أستاذاً في جامعة غلاسكو أيضًا، كان أسلوب سميث (جافًا وواضحًا وبعيدًا عن الرشاقة.. لكن بمرور الزمن أصبح أكثر دفئًا وحيوية، وتميزت تعابيره بالسهولة والسلاسة)[٤]. أو، عبَّر عن رأيه بكل صراحة. وعلى الأصح يمكن القول إنه عبَّر عن رأيه إلى أقصى حد. لم يبق من محاضرات غلاسكو سوى بعض المقتطفات والملاحظات الناقصة التي دونها طلابه، لكن هناك أدلة فيها تثبت أنه بدأ يشكل أفكاره تحضيراً لـ (ثروة الأمم). إذ تمدد أسلوبه المنهجي المسهب ليشمل أحاديثه الخاصة. ذكر أحد أصدقائه: (كثيرًا ما قلت له بعد نصف ساعة من الحديث: سيدي، قلت ما يكفي لتأليف كتاب)[٥]. وهكذا، يبدو كتاب سميث أحيانًا وكأنه نسخة مكتوبة لتنصت على مكالمة هاتفية بين عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، باستثناء الأفكار الأكثر عمقًا والألفاظ البذيئة.

(قلت ما يكفي لتأليف كتاب) تعليق صحيح أيضًا لأن سميث أملى كتاب (ثروة الأمم) على الأرجح. إذ زعم أنه وجد فن

الكتابة باليد بطيئًا وصعبًا، وأظهر ذلك خطه الرديء ومراسلاته الشخصية. ربما جعلت الطبيعة المسهبة للإملاء وما تتصف به من إطناب وحشو (ثروة الأمم) كتابًا طويلًا وضخمًا، لكن يجب ألا نشتكي من ذلك. فمعظم الكتاب يطيلون في الكلام وكثيرًا ما استهلكوا ما يمتلكونه من مهارة لفظية مفوهة في أحاديثهم الفارغة بدلًا من كتاباتهم. هنا، يمكننا مغايرة ما يتصف به كل من سميث والدكتور جونسون(*) من مهارة وألمعية. في هذه الأيام، يجب أن نلجأ إلى بوزويل(**) لنتعرف العبارات الذكية واللماحة للدكتور، التي لا تتمثل تمثيلًا جيدًا في أسلوبه الممل والكئيب في الشعر والنثر.

ثمة سبب آخر للطبيعة المتوسعة والمطولة لـ (ثروة الأمم) يجسده جهده المبذول (الذي يذكر بهنري جيمس) لتحديد عباراته وجعلها ملائمة لإنتاج المعنى الدقيق الذي أراده. وبالطبع، كان سميث يتعامل مع الواقع الحقيقي، لا الحالة الذهنية العابرة والمشوشة للطبقة الغنية المصابة بالسأم كما تبدو في هذيان العجائز. فضلًا عن أن جمل سميث تنتهي قبل أن تطول كثيرًا. وحين تصل إلى النهاية يكون المعنى قد اتضح. على سبيل المثال، نقدم جملة من الاستطراد آنف الذكر عن الفضة:

يجب أن نتذكر دومًا أن العمل، لا أي سلعة أخرى أو مجموعة من السلع، هو المقياس الحقيقي لقيمة الفضة والسلع الأخرى كلها في آن معًا[٦].

(*) صمويل جونسون (١٧٠٩-١٧٨٤): ناقد، وشاعر، ومعجمي، ومحدث إنجليزي مفوه. (المترجم).

(**) جيمس بوزويل (١٧٤٠-١٧٩٥): مؤلف اسكتلندي ومؤرخ مخلص لسيرة صمويل جونسون. (المترجم).

يمكن اختصار الجملة السابقة ببضع كلمات: (العمل.. هو مقياس..القيمة). وعند الاقتباس من آدم سميث، تمثل (..) (المحذوفة) أكثر ما قاله مضاء وحدة وأهمية. وربما كانت هذه الكلمات المحذوفة الحادة في (ثروة الأمم) هي التي جعلت كارل ماركس مجنونًا. لنلاحظ عند قراءة جمل آدم سميث الأصلية أن (نظرية قيمة العمل) الماركسية العظيمة لم تكن قد ابتكرت بعد. بل إن سميث - بعد ثلاث مئة صفحة -، يقدم النوع ذاته من الحجج عن الحبوب الغذائية: (في نهاية المطاف، تقاس القيمة الحقيقة لكل سلعة أخرى وتقرر.. بواسطة السعر النقدي الوسطي للحبوب)[٧]. ومن ثم، يؤكد أن العمل (أو عنصرًا وثيق الصلة به، مثل رغيف خبزنا اليومي) يوفر مؤشرًا منطقيًّا لتقرير كم تساوي الأشياء الأخرى بالنسبة لنا. إن تقرير هل نقصّ العشب بأنفسنا أو نكلف ابن الجيران بقصه - مع الأخذ في الحسبان احتمال أن يأكل طعامنا وقت الغداء، ويصيب قدمه بجرح، ويقاضينا، فنضطر إلى البحث عن وظيفة أخرى لدفع تكاليف الإجراءات القانونية - هو أمر يفعله الكل على الدوام. والماركسية، مثلما اكتشفت الأنظمة الماركسية على اختلاف أنواعها، فكرة لن يطبقها أحد أبدًا لو استطاع إلى ذلك سبيلًا (بالمناسبة، إذا كانت نظرية قيمة العمل صحيحة، سيكون بعض الأطفال أقل قيمة من سواهم).

يعوض الذكاء الحاد لكتابة (ثروة الأمم) عن العمل المضني الذي تتطلبه قراءته المتأنية. كما يكتشف القارئ شيئًا آخر ذا

قيمة – شيئًا لم يلمح له الاقتصاديون أو الباحثون – ألا وهو روح الدعابة التي يتميز بها سميث. ها هو يقوض فكرة أن على الأمة تجنب استيراد السلع التي تُستهلك، والتشبث بدلًا من ذلك باكتناز الذهب والفضة، لأن للمال قيمة دائمة:

> **لذلك، لا شيء مما تدعيه يمكن أن يتجاوز في ضرره (لأي بلد) التجارة المكونة من تبادل مثل هذه السلع الدائمة مقابل تلك المستهلكة. لكننا لا نفترض أن التجارة ضارة حين تتألف من تبادل الخردوات المعدنية الإنجليزية مقابل العطور الفرنسية؛ مع أن الخردوات سلعة أكثر متانة وتحملًا، ولولا هذا التصدير المتواصل، الذي تراكم على مر العصور، لما حظيت القدور والأباريق بهذا الدعم غير المعقول في البلد[٨].**

تتبدى المواضع التي لا يُعوض فيها الجهد المرهق المطلوب لقراءة (ثروة الأمم) على الدوام عند الخوض في الفقرات الصعبة التي يحاول فيها سميث صياغة ميدانه الفكري. وعلى وجه الخصوص عندما يحرث في البراري الشاسعة البور لعلم الاقتصاد الإحصائي (وهو الرائد الوحيد في هذا المجال). إذ لم تتوافر إحصائيات موثوقة في القرن الثامن عشر، ولم توجد بالتأكيد مجموعة منها تغطي عقودًا ماضية من السنين. وعبر القراءة الواسعة والمراسلات المطولة، تمكن سميث من العثور على أرقام لتوكيد نظرياته. لكن تطلب كل رقم التفحص الدقيق للتأكد من صحته وفائدته

للمقارنات. وعلينا البقاء هناك مع سميث وهو يتفحص التفاح والبرتقال بتمهل وترو مثل عجوز صعبة الإرضاء في أسوأ متجر للخضار والفواكه في العالم.

بعد ذلك يخضع سميث البيانات الرقمية لتحليل بياني مفصل في غياب العنصر الضروري الذي لا غنى عنه: الرسوم البيانية. رسم أول تمثيلات بيانية مفيدة للإحصائيات مواطن آدم سميث الاقتصادي الاسكتلندي وليام بليفير عام ١٧٨٦، أي عند المراجعة النهائية لمخطوط (ثروة الأمم). عرف سميث بليفير، الذي كان شقيقًا لصديق مقرب منه. لكن للأسف، لم يعترف النابغة بالنابغة. في الحقيقة، لم يعترف نابغان اثنان به. قال الاقتصادي جيرمي بينثام(*) عن أفكار وليام بليفير الاقتصادية: (تسعة أعشارها مكتوبة بمذكرات سيئة)(٩). وبوصفه مفكرًا لا مساحًا، كان بليفير مبتدئًا، لكنه رغب في أن يبدي سميث اهتمامًا بالشاب المبتدئ. ربما أمكن لمئات الصفحات في (ثروة الأمم) التي يمر عليها القراء مرور الكرام اختصارها في عدة صفحات يمكن تجاهلها كلية.

ثمة شيء آخر يفتقر إليه سميث، إلى جانب الرسوم البيانية، هو اللغة الاصطلاحية المتخصصة. فقد كان الاقتصاديون في مرحلة جديدة ومبكرة بحيث تعذر عليهم تطوير لغة من الكليشيهات الشائعة. وحين تعذر ذلك على فهم آدم سميث، لم يجد تعابير

(*) (١٧٤٨- ١٨٣٢): خبير قانوني وفيلسوف إنجليزي. (المترجم).

تقنية وجيزة ومثيرة تشكل لغة اختزالية تحل محل اللغة المفككة التي افتقدت الترابط والاتساق. واضطر إلى المبالغة في الإسهاب والتطويل الممل لشرح الموضوع (وإنهاك القارئ معه).

لكن لا بد أن يطول الكتاب في الأحوال كلها. إذ اشتق عصر الأنوار اسمه، من منظورنا الآن، من لحظة كاريكاتورية ساخرة في التاريخ الفكري. فقد بدت المصابيح الكهربائية — التي لم تخترع بعد - مضاءة فوق رؤوس مفكرين من أمثال آدم سميث، الذين أدركوا أن العالم المادي ليس كيانًا غامضًا مقدسًا لا سبيل إلى فهم كنهه إلا بالطقوس الدينية والتأملات الغيبية. بكلمات أخرى، عرفوا أن عدم النظر إلى الأشياء ليس أفضل طريقة للنظر إلى الأشياء. فإذا أنيرت آلية الطبيعة بشيء من الملاحظة والفكر، يمكن رؤية طريقة عملها. الكون قابل للتفسير. وسوف يفسره مفكرو عصر الأنوار، الذين يجسدون (المحرك الأول).

لكن القابلية للتفسير واجهت المصاعب، مثلما تمترس عدم القابلية للتفسير في حصونه المريحة. لنأخذ على سبيل المثال مسألتين اثنتين كان يفسرهما آدم سميث (وتطرقنا إليهما آنفًا): ١) ليس للمال قيمة موضوعية؛ ٢) المال تعبير رمزي عن القيمة الذاتية، لأن في أي تبادل لسلعة (أو خدمة) بين شخصين يحصل كلاهما على أفضل جانب من الصفقة. هذا لا يعني أننا، نحن الذين يقدم لنا ذلك مفسرًا، أغبياء. لكن كل مدير تنفيذي حديث يتلقى تعويضات ضخمة قد جرب التفسير الأول معنا. وكل

تاجر سيارات يحاول تقديم الثاني حين نعرض عليه صفقة مبادلة سيارتنا القديمة بأخرى جديدة.

تبدأ التفسيرات كلها وجيزة مختصرة. لكن سرعان ما يعلق سميث في متاهة متشابكة من التوضيحات، ليقبض عليه القارئ متلبسًا، مثل زوج عائد إلى البيت في الثالثة فجرًا وهو يظن أن زوجته نائمة، بينما هي تقف متيقظة غاضبة في انتظاره!

تبدأ التفسيرات كلها وجيزة مختصرة، باستثناء المسائل القانونية بالطبع. ولا يشذ (ثروة الأمم) عن ذلك. كرس آدم سميث مئة صفحة لإدانة النظام التجاري. إذ مثلت الميركانتيلية(*) النظرية الاقتصادية السائدة في عصره - إن جازت تسميتها نظرية. في الحقيقة، كانت الميركانتيلية (كيس خرق بالية) من الأنظمة التجارية والسياسات الضريبية والتعريفات والرسوم الناجمة عن سياسة المصلحة الخاصة، ونفوذ الباعة المتجولين، والصفقات البرلمانية، مجمعة كلها مع سوء فهم عام للنقد، وتدفق رأس المال، والتمويلات الحكومية. واعتقد دعاة الميركانتيلية أن الطريقة الفضلى لجعل الأمة غنية هي زيادة صادراتها والحد من وارداتها. المثال المتطرف الذي يدعم حجة سميث ضد الميركانتيلية هو: الواردات تمثلها مشتريات التسوق في صبيحة عيد الميلاد؛ والصادرات تمثلها فاتورة بطاقة الائتمان في أول يناير!!

(*) نظام اقتصادي أوروبي أيد الاستيلاء على المستعمرات التي توفر المواد الخام والأسواق، وتحرر الدولة المستعمرة من الاعتماد على الدول الأخرى. (المترجم).

يوجه (ثروة الأمم) أصابع الاتهام إلى السياسيين والتجار الأغنياء في العالم كله. لكن هؤلاء أيضًا أعضاء في هيئات المحلفين، وقضاة، ومسؤولون في المحاكم. والمفاجئ أن قرار تبرئة دعاة الميركانتيلية لم يكن فوريًا. قبل وليام بت، رئيس الوزراء البريطاني في أواخر سنوات سميث، الدليل المقدم وأجرى بعض الإصلاحات التي اقترحها (ثروة الأمم). في حين تجاهلها الكسندر هاملتون، مهندس السياسة الحمائية الأمريكية. لم تحسم القضية حتى الآن بعد نشر الكتاب بأكثر من قرنين وربع القرن - وظهور دعاة الميركانتيلية الجدد الذين يحكمون الصين، ومعارضة العولمة المنتشرة في مختلف أرجاء العالم، والحجارة التي ترمى بين الحين والآخر على نوافذ مقاهي (ستاربكس) لأنها لا تعزز (التنمية المستدامة).

في هذه الأثناء، يواصل آدم سميث تقديم الشهادة. (ثروة الأمم) أكثر من مجرد تفسير، أو تحليل، أو حجة. إنه موعظة طويلة. موعظة جحيمية. اشتهر سميث بمحاباة مبدأ عدم التدخل الحكومي في الاقتصاد (وهو تعبير لم يرد في كتاباته)، وبثقته المزعومة بـ (اليد الخفية) الدافعة للتقدم الرأسمالي. لكنه عرف بأن اليد يمكن أن تقبض وتحتكر: (نادرًا ما اجتمع التجار العاملون في المجال نفسه.. لكن - حين يلتقون - ينتهي الحديث بينهم بمؤامرة على عامة الناس)[١٠].

أدرك سميث أن الاقتصاد الاستهلاكي المزدهر لن يغير الطبيعة البشرية: (كبرياء الرجل تدفعه إلى حب الهيمنة، ولا شيء يذله مثل اضطراره للتنازل وإقناع مرؤوسيه)[١١]. حقًا، هذا ما نشعر به في كل مرة نطلب أجرًا على خدماتنا أو بضائعنا.

اعتقد سميث فعلاً أن الأسواق الحرة يمكن أن تحسن حال العالم. قال ذات مرة، في محاضرة ألقاها أمام جمهور من المتعلمين، إن التقدم لا يتطلب (أكثر من.. السلام، وتخفيض الضرائب، وإدارة رشيدة متساهلة)[١٢]. لكن هذه العناصر الثلاثة، كانت - وما زالت - أندر العناصر في العالم.

انتقد سميث الحمل الجاذب للسلطة والامتيازات الذي سيرهق دومًا - إن استطاع - حياتنا وعيشنا. (ثروة الأمم) متراس حصين من المواعظ الأخلاقية عن الحرية والمشروعات الحرة النزيهة. المواعظ تترى فيه، لكنها يجب أن تبقى زمنًا طويلاً للسبب ذاته الذي يجعل الأسوار والجدران الحجرية باقية. والجدار لا يثبت السقف الذي يوشك على الانهيار فوقنا.





نظرية العواطف الأخلاقية
ومحاولة آدم سميث تنظيف (إسطبلات أوجياس)(*) المشابهة للوضع الإنساني

العنـوان الفرعي غير المطبوع لهذه السلسلـة التي تنشرها مؤسسة (غروف/أتلانتيـك) (Grove/Atlantic) وتشمـل الكتـب التـي غيرت العـالم، هـو: (أعمـال لن تقرأها – كمـا يجب أن نعـترف - بكليتها). ولوليـام كريستـول، رئيـس تحرير مجلـة (ويكلـي ستانـدارد)، الذي يتفـوق علـي في سعة الاطـلاع، عبارة بليغـة لوصف مثل هـذه الأسفار الضخمـة: (يجب أن نقـرأ فيها). من حسن الحظ أنـه يمكننا تطبيق ذلـك على (ثروة الأمم). ومـن سوء الحظ، أن هنـاك كتابًا ألفه سميث قبـل (ثروة الأمم) لم نقرأه قـط: (نظرية العواطف الأخلاقية)، الذي نشر عام ١٧٥٩. ولا يمكن فهم اللاحق دون فهم السابق.

(*) (في الأساطـير اليونانيـة) تمثلـت إحدى مهمات هرقـل في تنظيف إسطبلات الملـك أوجياس التي لم تنظـف منـذ ثلاثين سنـة، في يوم واحـد. أنجز هرقل المهمة حـين حول مجرى نهريـن ليمرا عبرها. (المترجم).

كرس آدم سميث معظم حياته المهنية لمشروع فلسفي وحيد: تحسين الحياة المعاشة. ويشعر القارئ الحديث بإغراء يدفعه إلى الضحك. فالمهمة ضخمة وصعبة وشاقة.. ومسلية. لكن كثير منا تولوا القيام بمهمات من هذا القبيل، مثل تربية الأطفال. إذ تغوينا للدخول في المشروع مسراتُ البدايات - إذا جاز التعبير. البدايات الجديدة ممتعة ومبهجة دومًا. وآدم سميث يقع - فكريًّا - في عشق فكرة التحسين البكر. حظي احتمال إدخال تحسينات بالجملة على الحياة العادية في القرن الثامن عشر بالسحر ذاته الذي تحظى به احتمالات جعل الحياة في أيامنا هذه أكثر بساطة وأقل تعرضًا للضغوط والتوتر (مع منع الرسائل غير المرغوب فيها من الوصول إلى بريدنا الإلكتروني!).

انطلق سميث لفهم كيفية ظهور منظومات الأخلاق والاقتصاد والحكم، وكيف يمكن للناس تحسين ظروفهم الأخلاقية والمادية والسياسية، من فهم طريقة عمل هذه المنظومات. كانت تلك فرصة ثمينة للتفاخر والتباهي، لو انتهزها مفكر حديث — مثل هيربرت ماركوزه، أو نيوت غينغريتش، أو آل فرانكين - للخوض في هذا الموضوع. لحسن الحظ، تمتع سميث بمهارة عصر الأنوار في عرض الأفكار العميقة دون أن يسبب لنا الإحراج أو الإزعاج. وتمثل سره المكنون في القدرة على بلوغ المثالية دون اتخاذ تلك الخطوة اللاحقة، المزعجة والمنبتة الصلة عما سبقها، للتحول إلى حالم من أصحاب

الرؤى. لم يزعم امتلاك (مخطط تفصيلي للمجتمع)، لكنه افترض أن البنــاة الجهلة وغير المؤهلين للمجتمع (مثلــه ومثلنا) لا يمكنهم اتباع مخطط محدد على أي حال. كتب يقول: (في الحقيقة، إن توقع استعــادة حرية التجارة كلية في بريطانيا العظمى يماثل سخف توقع تأسيس أوشيانا أو المدينة الفاضلة فيها)[١].

اختار سميث مقارناته مع السخف العبثي وعينه على أمثال نيوت غينغريتش(*) والــرؤى الحالمة المغالية في أوهامها التي سبقت عصر الأنــوار. كانت المدينة الطوباوية الفاضلة التي تخيلها توماس مور في القرن السادس عشر عبارة عن جزيرة يعيش عليها سكانها بأسلوب جماعي ويشتركون في أملاكهــا المشاعة. واشتق اسمها من الكلمتين اليونانيتــين المتماثلتين لفظًا/ outopus ، eutopos/ وتعنيان/ المكان الطيــب واللامكان/. أمــا أوشيانا فهي مكان مشابــه تخيله قبل مئة سنــة جيمســ هارينغتون الــذي اقــترح سياسات اجتماعيــة خيالية ومستبعدة التحقق مثل إلغاء الدعم الزراعي عن المزارعين الأثرياء. أمــا الطبعــة الحادية عشرة مــن الموسوعة البريطانيــة فقد وصفت كتاب هارينغتون (أوشيانا) بأنه (ممل إلى حد يتعذر إصلاحه).

لكــن كتابــات آدم سميث ليســت كذلك. في الجــزء الثالث من (ثــروة الأمم) عشرون صفحة تتناول قوانين حظر تصدير الحبوب تمثل قراءتها اختبارًا صعبًا لتحمل القارئ. لكن عند نهايتها يجذب

(*) (١٩٤٣-): سياســي أمريكي (جمهوري) ورئيس سابق لمجلس النواب (١٩٩٥-١٩٩٨). عرف بمسعاه العنيد لتحقيق المثل العليا المحافظة، والمطالبة بتقليص سلطات الحكومة الاتحادية. (المترجم).

انتباهه ويعيد إليه اهتمامه بسحر تواضعه في التسليم بصحة مثل أعلى. إذ أدان ظلم هذه القوانين الفادح، لكنه لم يتابع التشدق كما نتوقع اليوم من أولئك الذين يظنون أنفسهم على صواب دومًا. بدلًا من ذلك توصل إلى نتيجة متواضعة دون نسيان حماقات السياسة المحتومة: (ربما نقول عنها ما قيل عن قوانين سولون، أي على الرغم من أنها ليست الأفضل في حد ذاتها، إلا أنها أفضل ما تسمح به المصالح والأحكام المسبقة والمزاج السائد في العصر)[٢].

لولا هذا التواضع لكانت قراءة مشروع آدم سميث الفلسفي تشبه في تجهمها وكآبتها العيش في ظلال المشروع الفلسفي لكيم جونغ إيل في كوريا الشمالية. امتد موقف سميث المتواضع فيما وراء الأفكار المثالية إلى الأفكار نفسها، إلى تقديره لذاته. في مقالة مبكرة بعنوان (تاريخ الفلك)، كتب سميث يقول إنه (يسعى إلى تمثيل المنظومات الفلسفية كلها بوصفها ابتكارات للمخيلة، ووصل ظواهر الطبيعة المنفصلة والمفككة معًا)[٣]. وتابع ليعاقب نفسه على الغلو في الاتفاق أيضًا مع فيزياء السير إسحق نيوتن (باستخدام لغة تعبر عن ارتباط مبادئها معًا.. كأنما هي السلاسل الحقيقة التي تستعملها الطبيعة لجمع عملياتها المتعددة معًا)[٤]. تطلب الأمر نابغة كإنشتاين ليظهر مدى صواب سميث.

أراد سميث نشر ثلاثة (ابتكارات إبداعية للمخيلة): (نظرية العواطف الأخلاقية)، و(ثروة الأمم)، وكتاب عن مبحث القانون،

أي عن تلك الروابط الأكثر ابتكارًا وخيالًا، بين القانون والحكم. لم يستكمل الأخير قط، وقبيل وفاته حرق ملاحظاته ومسوداته. وربما هناك سبب وراء ذلك. فكثير من أفكار سميث عن القانون والحكم تتبدى بجلاء في أول كتابين. ولم تضف ملاحظات الطلاب التي سجلت محاضراته التي ألقاها عن مبحث القانون في ستينيات القرن الثامن عشر الكثير إلى جملة أفكاره وتفكيره. دعونا نعترف بحكمته المتفوقة. يجب أن يكفينا العمل الصالح والجهد المحمود. أما أن نطالَب بواجب الإصغاء إلى الخطب في الحملات الانتخابية، والمساهمة بأموالنا فيها، ثم التصويت لمصلحة الحمقى، فهذا يفوق الاحتمال. ومثلما أعلن سميث نفسه في (العواطف الأخلاقية): (ربما نحقق قواعد العدالة عبر الامتناع عن فعل أي شيء)[٥].

وربما ينبثق إحساسنا بالصواب والخطأ والحق والباطل من هذه العطالة والامتناع عن القيام بأي نشاط، وذلك وفقًا لـ (نظرية العواطف الأخلاقية). فأهم ابتكار إبداعي للمخيلة هو الأخلاق.

يستهل سميث (العواطف الأخلاقية) بلغز تعتمد عليه سعادتنا كلها: (إلى أي حد تصل أنانية الإنسان المفترضة؟ تتبدى بوضوح بعض المبادئ في طبيعته، تثير اهتمامه بحظوظ الآخرين، وتجعل سعادتهم ضرورية له، مع أنه لم يستمد منها شيئًا)[٦]. أما جذر هذه المبادئ فهو التعاطف، وفقًا لسميث. نحن كائنات متعاطفة مع الآخرين. ونمتلك عاطفة واحدة لا يمكن تصنيفها من قبل

المتشككين في الدوافع الإنسانية في خانة الجشع أو الخوف. وهي ليست الحب. فربما نحب دون الشعور بالتعاطف مع الآخرين، مثلما فعل جون هينكلي(*) حين (أثبت حبه) للممثلة جودي فوستر.

يزودنا التعاطف بالقدرة، والحماس، والرغبة في مشاركة أشخاص لا نحبهم أبدًا مشاعرهم. نحب مشاركتهم أحاسيسهم النبيلة والوضيعة في آن. نستمتع بالتعبير عن تعاطفنا مع أحزان الغرباء عنا تمامًا. ونتشوق لمشاركة الآخرين في أتفه أحاسيسنا. بل نتخلى كما كتب سميث: (حتى عن روح الدعابة إذا ضحك صديق على دعابة بصوت أعلى أو مدة أطول مما نظن أنها تستحق)(٧).

ينتج هذا التعاطف، كما أكد سميث، عن المخيلة لا عن مدركاتنا الحسية مثل معظم المشاعر. وبغض النظر عن مدى حدة التعاطف الذي تثيره الحالة، لا نشعر - جسديًّا - بألم الآخرين. وفي دحض استباقي لمنطق أي رئيس مستقبلي للولايات المتحدة، استخدم سميث مثال رؤية شقيق على المخلعة(**). أعلن سميث: (لم تحاول حواسنا، ولا يمكن أن تحاول، جرنا إلى ما وراء ذواتنا الشخصية)(٨). فمخيلتنا هي التي تولد التعاطف وتمنحه قوته.

يتمتع الناس بالموهبة الإبداعية الابتكارية التي تضعهم في مكان الآخرين، وتجعلهم يشعرون بشعورهم. حتى أكثرهم سطحية

(*) في الثلاثين من مارس عام ١٩٨١، أطلق هنكلي النار على الرئيس الأمريكي ريغان. ووجدته المحكمة غير مذنب بسبب جنونه وأودعته مصحة للأمراض العقلية. (المترجم).

(**) أداة تعذيب (قديمة). (المترجم).

واستهتارًا وطيشًا يمتلكون هذه الموهبة الإبداعية (نحن ندعوهم بالممثلين).

لكن التعاطف بحد ذاته - مع البشر، أو الحيوانات، أو آل كلينتون - لا يمكن أن يشكل الركيزة المؤسسة لأي منظومة أخلاقية. وإلا سيعد مشاهد التلفزيون الذي يقضي سحابة النهار أمام شاشته قديسًا. كتب سميث يقول: (يجب ألا يرضى بأعمال الخير الكسولة، ولا يتخيل نفسه صديقًا للبشرية، لمجرد أنه يرغب من صميم قلبه في رخاء العالم وازدهاره)[٩].

على المخيلة، التي تعمل على إظهار مشاعر الآخرين، أن تبذل جهدًا أكبر لتظهر لنا ماهية شعورهم: هل هم على صواب أم خطأ. ثم هنالك مشكلة هل نحن على صواب أم على خطأ. سوف نشعر على الدوام بكثير من التعاطف مع أنفسنا. (لسنا على استعداد للاشتباه في إصابة أي شخص بآفة الأنانية. وهذا لا يمثل أبداً الجانب الضعيف من الطبيعة البشرية)[١٠]، كما كتب سميث. لا يمكن للأخلاق أن تكون مجرد حزمة من المشاعر النبيلة، أو قرصًا نبتلعه لنصبح أخلاقيين.

يجب أن تتولى مخيلتنا القيام بالمهمة الإضافية المتمثلة في إيجاد طريقة لإطلاق أحكام صائبة على مشاعرنا وعلى مشاعر الآخرين وعلى الأفعال التي تسبق هذه المشاعر. جسد آدم سميث أحكام المخيلة الواعية هذه وسمى القاضي الأخلاقي في أدمغتنا

(المشاهد الحيادي). وربما كان ذلك إشارة مراوغة إلى مقالات جوزيف أديسون وريتشارد ستيل التي نشرت في بدايات القرن الثامن عشر في صحيفة (المشاهد) (Spectator)، (حيث المشاهد لا يلعب دورًا عمليًّا في الحياة). كان ذلك مشابها لقول أوبرا وينفري إنها لا تشارك بأي دور. لقد توقع سميث عبر (المشاهد الحيادي) ظهور مضيفي البرامج التلفزيونية الذين ينشرون التعاطف في كل مكان ويأخذون دور الحكم في هذه المشاعر. وبالطبع، لم يكن ناضجًا من الناحية التقنية. وكان على أوبرا ذاتها الانتظار إلى أن يصل تقسيم العمل إلى مرحلة يقوم فيها المختصون بالتخيل نيابة عنا.

أنتج (المشاهد الحيادي) عرضًا لعصر أكثر جدية: (الفلاسفة النفعيون الذين يعانون الحب المسيحي!). يمكن لكتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) أن يتحول إلى عرض تلفزيوني نهاري إذا أنتجته محطة بي بي إس (PBS)، وقدمه مضيف يشبه بيل مويرز في كل شيء، باستثناء ذكائه.

يجب أن يكون المضيف على مستوى ذكاء سيغموند فرويد على أقل تقدير. وصف سميث أيضًا عملية الأنا العليا قبل فرويد بزمن طويل، وبأسلوب أكثر حذقًا وذكاء. ومنحها اسمًا لم يشابه بطل قصة هزلية. ووصل ضميرنا بسمات وخصال إنسانية أكثر نبلًا ومعقولية مما يدفع كلبًا أليفًا للتمسح بأرجلنا.

نحن نتصور المشاهد الحيادي بوصفه يمتلك معرفة كاملة بظروف كل فرد، وتجربته، ومقاصده. ولأنه متخيل موهوم لا ذات

لـه، ليست له مصلحة شخصية في أي حكم يصدره. زعم سميث أن ما نفعله، حين نطور المبادئ الأخلاقية، هو صياغة ما لدينا من مشاعر التعاطف في أفكار وأفعال نتوقعها من المشاهد الحيادي، المتعاطف لكن الموضوعي والعارف بكل شيء (ولا يزال متعاطفًا على أي حال).

(حين تكون مشاعرنا المستكينة على هذه الدرجة من السوء والأنانية دومًا، فكيف تكون مبادئنا الفاعلة على هذا القدر من السخاء والنبل؟)[١١]، حسبما يسأل سميث. الإجابة تكمن في (ساكن الصدر.. القاضي العظيم والمحكم الكبير لسلوكنا)[١٢]. إن معاينة الأشياء من منظور المشاهد الحيادي تعلمنا الانضباط الذاتي العاطفي الذي نحتاج إليه للتصرف بحكمة مقبولة. فكروا بسلوك الأطفال الذين لم يتلقوا بعد تعليماتهم الأخلاقية، أو السكارى الذين نسوا كل شيء عنها.

بفضل تعاطفنا الناتج عن المخيلة، نسعد لسعادة الآخرين، ونحزن لحزنهم، ونأمل أن يبادلونا الشعور ذاته. لكن هذه المشاركة العاطفية مجهدة ومرهقة. علينا تحفيز مخيلتنا لكي نضع أنفسنا محل الذين تتجاوز مشاعرهم مشاعرنا في القوة والشدة - ونندب موت كلب صديق هرم أعرج. يجب أن نسيطر على عواطفنا حين لا تكون مشاعر الآخرين بقوة مشاعرنا ذاتها - ويضحكون بأدب حين نندب كلبنا الأليف ونتذكره.

وفقاً لآدم سميث، يستخدم (الحكيم الفاضل) مخيلته لإبداع (فكرة اللياقة والأدب والكمال). وهذه (تتشكل بالتدريج من مشاهداته وملاحظاته ومسلكه ومسلك الآخرين. عمل بطيء وتدريجي وتقدمي لنصف الإله العظيم الرابض في داخلنا)[١٣]. وإذا لم يسع المشاهد الحيادي لتعليمنا (حماية الضعيف وكبح جماح العنيف ومعاقبة المذنب)[١٤]، سوف يدخل الإنسان (إلى أي مكان يتجمع فيه البشر كأنه يدخل عرين الأسود الضارية)[١٥]، كما كتب سميث. أو غرفة أطفال، أو حانة سكارى. أو كأنما يشارك في عرض تلفزيوني نهاري، أو يجلس في مقعد كلبه المحبوب الميت.

يكشف إدراك آدم سميث للدور الرئيس للمخيلة في التفكير الأخلاقي عددًا من الجوانب المتعلقة بالأخلاق. الأخلاقيات نتاج جهد. والسبيل القويم للسلوك الأخلاقي ليس جزءًا من معرفة غامضة لا يمكن اكتسابها إلا بقراءة نصوص غريبة مبهمة. وعلى القدر ذاته من الأهمية، لا يمكن تعلم الأخلاق عبر القراءة الحرفية النصية للكتاب المقدس. أكد سميث أن (الوصايا العشر تأمرنا باحترام الأبوين وطاعتهما. ولم تذكر حب أطفالنا)[١٦]. إذ لم يضمنه الرب فيها لأنه لا يعدّنا عصبة من الحمقى المحرومين من المخيلة المبدعة. فتعاطفنا مع أطفالنا لا يحتاج إلى وصايا. أما تعاطفنا مع آبائنا وأمهاتنا.. حسناً.. بالمناسبة هل زرت والدتك هذا الأسبوع؟ أم أجلت الزيارة بسبب مشاغل ملحة؟

تخيّل الأشياء عمل. والمخيلة التي يصفها آدم سميث ليست نزوة سهلة، غريبة ومتقلبة، كتلك التي نفرضها على أطفالنا، الذين نتعاطف معهم كثيرًا كما هو مفترض. لا يوجد شيء في (نظرية العواطف الأخلاقية) يشابه الديناصورات الضخمة الملونة والخرافية من آكلات العشب التي تظهر في برامج الأطفال التلفزيونية. فالغناء مع (بارني الذي سيصبح صديقك أيضاً/إن صدقته) يؤدي في أفضل الاحتمالات إلى إنتاج تفاهات مثل أوشيانا. قيل إن كيم جونغ إيل مغرم بالسينما، وربما يعيش حياة خيالية تثير أوهامها مجموعات ضخمة من أقراص الفيديو المدمجة.

المخيلة التي يصفها سميث هي المخيلة الفاعلة التي تمتع بها إنشتاين أو نيوتن، بكل ما تتضمنه من انضباط. (لا يعد التحكم بالذات فضيلة كبرى فقط، بل يبدو أن الفضائل الأخرى كلها مستمدة من بريقه الأساسي المتلألئ)، مثلما يكتب سميث[١٧]. و(لا توجد فضيلة في الدرجة العادية الشائعة من الأخلاق. فالفضيلة هي الامتياز)[١٨].

يربط هذا العمل الإبداعي الصعب التعاطف الأخلاقي المحوري في (نظرية العواطف الأخلاقية) مع التعاون المادي الضروري في (ثروة الأمم). على المخيلة أيضًا بذل جهد خلاق لتقسيم العمل وممارسة التجارة. ويمثل التعاطف والتعاون الجانبين الأكثر إدراكًا والأقل إدراكًا لما يتيح للحضارة الوجود. فهما (المبدآن المتأصلان في طبيعة الإنسان، اللذان يثيران اهتمامه بحظوظ الآخرين).

ينطبق هذا كله علي. فأنا أكثر وعيًا إلى حد ما حين أكون طيبًا مع الأسرة في المنزل في عطلة نهاية الأسبوع، وأقل وعيًا بها في المكتب صباح يوم الإثنين.

رأى سميث إمكانية أخلاقية في اهتمامنا بالآخرين وبمصلحتنا الشخصية على حد سواء. حين نعطي أحدهم زجاجة شراب نعلم أننا أفدنا شخصًا آخر. وحين يتركز اهتمامنا على الأسرة في عطلة نهاية الأسبوع، ونشرب تلك الزجاجة، نعلم أيضًا أننا أفدنا شخصًا آخر – صاحب المعصرة، ومعبئ العصير، وصاحب المخزن. وعندما نشعر بالانفصال والتنافر يوم الإثنين، لا ندرك ذلك إلا إذا عملنا على (ابتكارات للمخيلة، لوصل ظواهر الطبيعة المنفصلة والمتنافرة). كان نظام الفائدة غير المقصودة هو ما عناه سميث بـ (اليد الخفية)، وهو مفهوم ظهر أول مرة في (نظرية العواطف الأخلاقية)[١٩].

إذا لم نقم بأداء العمل الصعب الذي يتطلبه التعاطف المنتج في المخيلة، نضع أنفسنا في ما دعاه سميث (أسوأ الحالات وأكثرها خسة ووضاعة، ونفقد الإحساس الكلي بالسلوك الشريف والمسلك المشين، والرذيلة والفضيلة)[٢٠]. الأشرار شخوص متخيلة في المخيال الشعبي العام فقط. وقد تبدو فضائح الشركات التي تفجرت في السنوات الأخيرة مخططات مبتكرة وأصيلة لعبقرية شريرة. لكن حين يزول الغموض عن الحسابات والأموال، تتكشف اليد المبتذلة المختلسة.

يمكن لرجال الشرطة، والقضاة، والندل، والآباء والأمهات، وغيرهم أن يشهدوا على صحة وصف هانا إرنت(*) لسلوك أدولف أيخمان(**): (ابتذال الشر). الابتذال هو المكون الرئيس في التفكير الإجرامي – بدءًا بالمحتالين والبؤساء وانتهاء بأعلى المستويات في التراتبية الهرمية النازية.

من الخطأ قراءة (ثروة الأمم) بوصفه تبريرًا يسوغ الجشع المحايد أخلاقيًّا. فهو يمثل محاولة إضافية لآدم سميث لجعل الحياة أفضل حالًا. كتب يقول في (نظرية العواطف الأخلاقية): (من أعظم قوانين المسيحية أن تحب جارك كما تحب نفسك)[٢١]. لكن لنلاحظ التشبيه الذي استعمله يسوع المسيح وذلك الذي استشهد به آدم سميث. (نظرية العواطف الأخلاقية) كتاب يتعلق بجيراننا. و(ثروة الأمم) يتعلق بالنصف الآخر من المعادلة: نحن.

وافترض، كما هو واضح، أن الاهتمام بأنفسنا يمثل أعلى مستوى من القداسة. ونحن بحاجة إلى ذلك، منطقيًّا. في (نظرية العواطف الأخلاقية) أصر سميث، مستشهدًا بالفيلسوف اليوناني زينون، على أن كل واحد منا: (موصى أولًا وقبل كل شيء بالاهتمام بنفسه)[٢٢]. و(وهب مبدأ حب الذات)[٢٣]. فحين أكون معدمًا، وجائعًا وعاريًا وكارهًا لنفسي لن أفيد أحدًا من الجيران في الحي.

(*) (١٩٠٦-١٩٧٥): مؤلفة أمريكية، ومختصة بالعلوم السياسية، وأستاذة جامعية، من أصل ألماني. (المترجم).

(**) (١٩٠٦-١٩٦٢): مسؤول نازي أدين بارتكاب جرائم حرب ونفذ فيه حكم الإعدام. (المترجم).

في (ثــروة الأمم)، ألح سميث بإصرار على ضرورة أن نكون أحرارًا في الاهتمــام بأنفسنا. يظهــر كتاب (نظرية العواطـف الأخلاقية) كيــف تجعلنــا المخيلة نهتــم بالآخرين. في حين يبين (ثــروة الأمم) كيف تجعلنا المخيلة نأكل ونلبس ونهتم بأنفسنا.

لا يمكــن إلا للمخيلة تبريــر ما جاء في سفــر التكوين (١:٢٦): (وقال الــرب، لنخلق الإنسان على صورتنا). مــن المؤكد أن ذلك لا يتعلــق بالشكل والمظهر. ربمــا تمثل المخيلة السمــة الوحيدة المميزة للبشــر. إذ تكتشف الحيوانات بحواسها كل مــا يفعله البشر وأكثر. وربما يخطــر ببالها كثير من الأفكار مثلنا، علــى الأقل من التاسعة صباحًا إلى الخامسة مساء. متى موعد الغداء؟ يمكن للحيوانات أن تحب. ووفقًا لما نعلمه، يمكن لشعور رومانسي أن يخترق قلب الأميبا - أو أي متعضــ من المتعضيات وحيدة الخلية - قبل أن تنقسم. لكن الحيوانــات، التي يتضــح بكل جلاء عدم حساسيتهــا تجاه الفضيلة والرذيلــة حين يتمسح كلبك الصغير برجليك، لا يمكن أن تتعاطف، فضــلًا عــن أن تتعاطف أخلاقيًا. ولا يمكن لهــا أن تتعاون بما يكفي لبنــاء حضــارة، إلا إذا حسبــت أن كومة الرمل التــي يجمعها النمل تشابه الأكروبوليس. كتب سميث في (ثروة الأمم): (لم يشاهد أحد قط كلبًا يقوم بعملية تبادل نزيهة وواعية لعظمة مع كلب آخر)[٢٤].

لم يعتقد آدم سميث أن الخير والطيبة متأصلان فينا، ولا صدق بأن الغنى والثراء سمتــان أصيلتان في البشر. لكنه آمن بأننا وهبنا

قــدرة التخيل لنكون أخيــارًا وأثرياء، إن منحنــا حرية بذل الجهود الضروريــة. وتوفــر قــراءة الكتابين معًا مخطــط تفصيلي – للروح أكثر من المجتمع.

لم يطلــق سميــث أي دعــاوى دينيــة فيمــا يتعلــق بمشروعــه الفلسفي. ذيّلَ الفصل الأول من كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) بهامش قــال فيه: (الاستقصــاء الراهن لا يتعلــق بقضية الصواب إذا جــاز التعبــير، بل بالحقيقة)[٢٥]. وقصــد أن يظهر، إضافة إلى (ابتــكارات المخيلة المبدعة والمجردة) ما دعــاه بـ (الخطة والنظام المخلوقَين)[٢٦]. لكن التصميم الذي رسمه لم يكن أقل من الهندسة الميكانيكية للروح القدس.



٤

(ثروة الأمم)، الجزء الأول:
كيف يجعل الثمن الغالي للحرية
أفضل الأشياء في الحياة حرة

نظراً للمجال الهائل الــذي يشمله تفكير آدم سميث، وميله إلى الاستطــرادات، يعــد كتاب (ثــروة الأمم) حسن التنظيــم إلى حد مفاجــئ. قسم سميث كتابــه إلى خمسة أجزاء. يقــدم في الجزأين الأول والثــاني أفــكاره الاقتصادية، حيث يتصــدى في الأول للإنتاج والتوزيــع، ويتنــاول في الثاني رأس المال والأربــاح. أما الجزء الثالث فهــو تأريخ اقتصــادي لأوروبــا الغربية يظهر كيــف ارتقت مختلف الجوانــب المتنوعة للإنتــاج، والتوزيع، ورأس المــال، والأرباح، وكيف سبب ارتقاؤها احتباساً حرارياً - إذا جاز التعبير - في مناخ الحياة العاديــة. ويدحض الجزء الرابع الأفــكار الاقتصادية المغايرة لآراء آدم سميث. كمــا يشمل هجوماً لاذعاً على دعاة الميركانتيلية - على وجــه الخصوص. في حــين يضم الخامس محاولة سميــث تطبيق

أفكاره على حل مشكلات الحكم. لكن نظرًا لأن المشكلات هي المبرر الوحيد للحكومة، فإن حلها لا يستحق النقاش. لهذا وغيره من الأسباب، تدب الفوضى في الجزء الخامس إلى درجة مفاجئة.

من الجدير بالذكر أن آدم سميث لم يبتكر الفرع المعرفي الذي أسسه. وما ندعوه بعلم الاقتصاد ابتدعه فرانسوا كيناي (١٦٩٤-١٧٧٤) والاقتصاديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر، الذين عرفهم جيدًا. لكن هؤلاء بالغوا في التفكير المتعمق في الموضوع وغالوا في تفصيله. رسم كيناي، الذي كان طبيبًا للملك لويس الخامس عشر، مخططًا بيانيًّا تفصيليًّا ومتعرجًا وحاشدًا بالبيانات - يشبه في جزء منه الكلمات المتقاطعة وفي جزء آخر لوحة طاولة الزهر! وربما جعل آدم سميث يتخلى كليًّا عن فكرة التمثيل البياني. أظهر المخطط كما هو مفترض كيف تشكل الزراعة مصدرًا للتقدم الاقتصادي كله، وكيف تضر التجارة والتصنيع بالجميع، وكيف ينمو كل شيء - من عجلات العربات إلى الأباريق الخزفية - في المزارع. الغذاء هو الركيزة الأساسية للعيش، لذلك يجب أن تكون الزراعة القاعدة المؤسسة للحياة. ذلك هو منطق الاقتصاديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر.

بالنسبة لكيناي وزملائه الأرستقراطيين في البلاط، كان الدافع المحفز لاستقصاء علم الاقتصاد شيئًا يراوح بين (من أجل فرنسا!)، والعثور على طريقة لتزجية الوقت في انتظار معالجة الملك

والحاشية الملكية بالعلق. ما فعله آدم سميث هو إعطاء الاقتصاد سببًا للوجود. استهدف استقصاؤه غاية معقولة ومنطقية، هي الفائدة المادية للبشر، بمن فيهم هو نفسه.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول:

دعا سميث الجزء الأول (في أسباب التحسن في قوى العمل الإنتاجية، والترتيب الذي يحكم التوزيع الطبيعي لنتاجها على الناس على اختلاف مراتبهم). لو كان أحد هؤلاء الناس محررًا في دار نشر حديثة لما سمح بهذا العنوان.

بدأ سميث بطرح سؤالين واسعين: كيف تنتج الثروة، وكيف توزع؟ وقدم شرحًا للإجابتين على مدى مئتين وخمسين صفحة من الجزء الأول: (تقسيم العمل) و(عدم التدخل). لكن في أثناء ذلك، يجيب سميث عن سؤالين آخرين أوسع نطاقًا: لماذا نتساوى كلنا، ولماذا نتمتع بحق الملكية؟

خلق البشر كلهم سواسية. نتبنى هذه الحقيقة بوصفها بدهية لا تحتاج إلى إثبات، لكنها تبدو على السطح غير صحيحة. المساواة هي الركيزة المؤسسة للديمقراطية الليبرالية، وحكم القانون، والمجتمع الحر، وكل شيء يرغب فيه القارئ العاقل ويجله ويقدره. لكن هل نتمتع بالمساواة حقًا؟ الأمر ليس كذلك في الأفراح أو المآتم. هل نتمتع بالمساواة لأننا نجد تأكيدًا عليها في إعلان الاستقلال

الأمريكي، والإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان، وإعلان الأمم المتحدة العالمي لحقوق الإنسان؟ تضم كل واحدة من هذه الوثائق كثيرًا من أنصاف الحقائق، والأكاذيب أيضًا. تعلن الأمم المتحدة أن (لكل شخص الحق في الراحة ووقت الفراغ، بما في ذلك حد معقول لساعات العمل). سوف أقنع زوجتي بإبلاغ طفلنا الرضيع بهذا الحق!!

لا تُعد الكتابات المملة عن المبادئ المثالية التي جمعت معًا بواسطة أعضاء من الانتلجنسيا، لا يمثلون سوى أنفسهم، ويعانون في بعض الحالات من التشوش الذهني، نصّاً مقدساً منزلاً. على أي حال، ليس علينا لكي نرى ما يخبئه النظام السياسي الذي يستمد شرعيته من النصوص الدينية (المحرفة) للمجتمع، سوى النظر إلى الطالبان في أفغانستان والبيوريتان (المتطهرين) في ماساتشوستس. لكل إنسان روح خالدة، ولكل الأرواح قيمة متماثلة عند الخالق. لكن ذلك لا يفيدنا كثيرًا فيما يتعلق بالفلسفة السياسية العملية. وآدم سميث كان مفكرًا عمليًّا. والهامش الذي ذيل به (نظرية العواطف الأخلاقية) وأكد أن نظريته (لا تتعلق بقضية الصواب، بل بالحقيقة)، يناسب فلسفته كلها.

حين تناول سميث كيف تطور تقسيم العمل، وجه – لوهلة – انتباهنا إلى سمة مثيرة ومميزة للإنسان. أقوى مخلوقات الأرض هو أشدها ضعفًا وعجزًا وإثارة للشفقة. نحن نولد عاجزين عن رعاية أنفسنا ونبقى كذلك إلى أن نبلغ الأربعين (والدليل شباب

هـذه الأيام!). في عمـر السنتين، حين تبلغ الثدييـات الأخرى ذروة نشاطها، فتصيد وتجمع وتنجب، لا يستطع الطفل البشري استعمال حتـى المبولـة. ولم تتمكن مخيلـة دانييل ديفـو الإبداعيـة من جعل روبنسـون كروزو يـؤدي الأعمـال الضرورية للحيـاة دون مؤونة من السلـع المصنعة التي أنقذت من مخـزن السفينة الغارقة، وخدمات مساعد تنفيذي من أكلة لحوم البشر!!

يجـب أن نعامـل الآخرين بالاحـترام الواجب للأنـداد، لا لأننا نستمـد الإلهام من مبدأ مثالي أو لأن التعاطف الأخوي يترع كياننا، بل لأننا نتساوى في البؤس والعجز وإثارة الشفقة وعدم النفع.

كتب سميـث يقول إن الفرد (يحتاج دومًـا إلى تعاون ومساعدة مجموعـات ضخمة من النـاس، في حين أن عمره كلـه بالكاد يكفي لاكتسـاب صداقـة حفنة مـن الأشخاص)[١]. كانت هـذه العبارة (اليساريـة) تقريبًا المقدمة التمهيدية إلى أشهر فقرات آدم سميث وأكثرها اقتباسًا: (لا نتوقع الحصول على عشائنا من إحسان اللحّام، أو الخبّـاز، أو الخمّار، بل من اهتمامهـم بمصلحتهم الخاصة)[٢]. لم يكـن سميـث يستحثنا علـى السعي الأناني وراء الـثروة في نظام يقـوم على المشروعات الحرة. بل يحفزنـا على التعبير عن الامتنان والشكـر للخباز واللحـام والخمار. فمـن حسن حظنـا أن خالقهم وهبهـم حقوقًا غـير قابلة للتصـرف، لنتمتع نحـن بشرائح اللحم، وأرغفة الخبز، وزجاجات الشراب.

كانت إجابة سميث عن سؤال لماذا نتمتع بحقوق الملكية صريحة ومباشرة أيضًا: (ملكية كل إنسان لعمله وجهده، التي تعد الركيزة الأصلية لأنواع الملكية الأخرى كلها، هي أقدسها وأمنعها على الانتهاك)[٣]. ليست حقوق الملكية من ابتداع الأغنياء لإبعاد الفقراء عن أملاكهم. بل هي العمل الذي نؤديه لامتلاك أنفسنا. قد تكون الملكية متواضعة، لكنها موروثة. كتب سميث يقول: (يكمن ميراث الفقير في قوة يديه ومهارتهما)[٤]. ومن الأدوات المتواضعة، مثل المطرقة والمنجل، تنبثق المشروعات الحرة كلها: (ومنعه من استعمال هذه القوة والمهارة بأي طريقة يظنها مناسبة، دون أن يسبب الأذى لجاره، يعد انتهاكًا صارخًا لأقدس ما يملكه)[٥].

لا يوجد منطق أو معنى في أي تعريف للحرية لا يعتمد على الحق في الملكية والتمتع بحقوق الآخرين كلها. ما نملكه هو من حقنا، ولا يمكن لأحد أن يحرمنا منه. وهذا هو ما نعنيه عمليًّا حين نقول إننا أحرار. أما الحقوق الأخرى فهي مستمدة منه.

حرية التعبير والكلام رائعة، إن كان لديك ما تقول. وأي بحث في مواقع المدونات والتواصل على الشبكة الإلكترونية، يكشف وجود قلة نادرة ممن لديهم شيء يقولونه.

الحرية تجربة روتينية يومية، تأخذ مكانها في العالم المادي الاقتصادي. قبل أن يكتب آدم سميث (ثروة الأمم)، أثبت أننا نحتاج إلى مجتمع يتمتع بالمساواة ونستحقه، ونحظى فيه بالحرية

والتحـرر من ممارسات السلطة الاستبدادية التي يمكن أن تفعل بنا ما تشاء.

قابلية العمل للتقسيم:

لكـن الغرض الرئيس من الجزء الأول من (ثروة الأمم)، مثلما تصـوره سميث، هو إظهـار أهمية تقسيم العمـل. فهدفه، كما كتب هـو (جعل أقـل قدر من الجهد ينتـج أكبر كم من العمـل)[٦]. فهم سميـث أن تقسيـم العمل - التخصص - هو المصـدر الأصيل للنمو الاقتصادي.

يزيـد التخصص القيمـة الاقتصادية. واستخـدم سميث مثالاً مشهورًا: (تصنيع الدبابيس). فعلى الرغم من تفاهة المنتج، يتطلب تصنيـع دبوس واحد يومًا بكاملـه من دون تخصص ومختصين. في المسـودة المبكرة لـ (ثروة الأمم)، لاحـظ سميث أننا (بالكاد نصنع دبوسًـا واحـدًا في السنـة)[٧] إذ قمنا بأنفسنـا بالتنقيب في مناجم الحديـد، وصهر الفلز، وغير ذلك من العمليات. وهذا ما تفعله الآن مجموعـة مـن أصحاب الهوايـات، الذين يمكن الاتصـال بهم عبر الإنترنت، مما أثار حيرة زوجاتهم وقلقهن.

عدم قابلية السعر للتقسيم:

أثبـت سميث هذه النقطـة، وكان يجب أن يكتفـي بذلك. لكننا نجد هنـا صعوبة مثيرة للانتباه في التفكـير العقلاني في الاقتصاد

- المبالغة في العقلانية. هذه هي خطيئة الاقتصاد الأصلية، نقيصة وجدت فيه منذ أن ابتكره الباحثون. وأي طالب في أي كلية اقتصاد يعرف المشكلة وعليه أن يحفظ عن ظهر قلب مختلف الصيغ المعقلنة التي تنتج من المشكلة، بل المشكلات.

عندما كان سميث يكتب عن زيادة القيمة الاقتصادية، قرر التنقيب في مفهوم القيمة ذاته. حاول تحليل السعر، وعجز. فسعر شيء هو ما سيدفعه شخص مقابله، لا أكثر ولا أقل، ولا سواه. امتدح ديفيد هيوم، في رسالة تهنئة إلى سميث على نشر كتاب (ثروة الأمم)، العمل لكن لاحظ الخطأ. (لو كنت هنا بجانبي، سأجادل بعضًا من مبادئك. لا أستطيع إلا الاعتقاد.. بأن السعر يقرر في كليته بالكمية - العرض - والطلب)[٨]. لكن الاعتقاد بذلك عارض ميل سميث إلى التفكير بجوانب الموضوع كافة؛ ففكر بجوانب الموضوع كافة.

قرر سميث أن للسعر (أجزاءً تكوينية). وحدد ثلاثة منها: العمل، وأرباح البضاعة (العائد على رأس المال)، وإيجار الأرض. نظرية السعر منطقة مستغلقة الفهم من الاقتصاد، مثلما يعرف المتاجرون في البورصة، أو أسواق السلع التجارية، أو أسواق حاجات الأسرة، ومثلما يعلم طلاب كليات الاقتصاد، وترعبهم هذه المعرفة. بدا آدم سميث أكثر تشوشًا وارتباكًا فيما يتعلق بالسعر من الاقتصاديين المعاصرين.

حين كان سميث يحاول وضع قيمة على السعر وسعر على القيمة، لم يكن لديه كتاب اقتصادي تعليمي يشرح له (قانون المنفعة الحدية). وهذا سيفترضه بعد قرن عالم الاقتصاد النمساوي كارل فون مينغر (١٨٤٠-١٩٢١)، مؤسس المدرسة النمساوية في الاقتصاد. وعند ترجمة نصوص الكتب التعليمية الاقتصادية إلى الإنجليزية، تعني المنفعة الحدية أننا نقدر قيمة سلعة وفقًا لقيمة الوحدة المحددة من السلعة التي قمنا باستهلاكها حديثًا، لا وفقًا لرأينا في جودتها.

اقترب سميث كثيرًا من التعثر في المنفعة الحدية حين لاحظ (عدم وجود سلعة أكثر فائدة من الماء: لكنه نادرًا ما يشتري شيئاً)[٩]. فمع إضافة ثماني أونصات من الماء لن نحصل على شيء سوى الذهاب إلى الحمام في منتصف الليل. أما مع ثماني أونصات من الذهب، فنمتلك دفعة مقدمة لاستئجار سيارة (ليكزس) فخمة. تفسر المنفعة الحدية السبب وراء ارتفاع سعر الذهب، غير الضروري لحياة البشر باستثناء المغنين والراقصات، والخاطبين والمخطوبات.

لكن السعر المرتفع الذي ندفعه ثمنًا لزجاجة مياه معدنية ممتازة يبطل قانون المنفعة الحدية، كحال نظرية السعر برمتها. لنلاحظ تصارع آدم سميث مع نظريته: (على سبيل المثال، في شعب من الصيادين، يكلف صيد قندس ضعف الجهد المطلوب

لصيد غـزال، ومن ثم يكون مـن الطبيعي أن يسـاوي قندس واحد قيمة غزالين اثنين)[١٠]. انتظروا لحظة! أصحيح أن قتل قندس، ولو افتراضيًّا، أصعب مرتين من قتل غزال فعلًا؟ الغزال سريع كالسهم. بينمـا نعلم أين يعيش القندس. لدينا (عنوانه)! وحتى لو تضاعفت صعوبـة قتل قندس – الخوض في البركة بحثًا عنـه، وضرب رأسه بمجداف الزورق – فمن ذا الذي يرغب فيه؟ من المستبعد أن يعتمر شعب الصيادين كثـيرًا من القبعات المصنوعة من فرائه. وبعد يوم طويل من القنص – هل يرغب الصيادون بشريحة لحم غزال ريانة أم بحساء القندس؟!

ثمـة متعة مبهجـة في مشاهدة شخص أعمق منا فكـرًا وأكثر حذقًـا يرتكب مثل هـذه الأخطاء الفكرية الفادحـة. قرر سميث أن العمل أهـم مكون من مكونات السعر: (لذلك، لا يتفاوت العمل أبدًا في قيمتـه، وهو وحـده المعيار النهائـي والحقيقـي)[١١]. ثم يناقض نفسـه بعد صفحتـين: (يختلف السعـر الحقيقي للعمـل.. اختلافًا كبـيرًا باختلاف المناسبات)[١٢]. لكنه كتب قبل ذلك يقول: (السعر الحقيقي لكل شيء.. هو الجهد والمشقة الضروريان لحيازته)[١٣].

ثمة شيء في عقل آدم سميث الفلسفي الدقيق جعله يقاوم تفوق الواضـح الجلي. هنالـك عبارة من القرن الثالـث عشر، تنسب إلى ألبيرتوس ماغنوس، تشـير إلى أن السعر هو (ما تستحقه البضائع وفقًا لتقدير السوق وقت البيع). لكن قبل تقديم اقتراح بالتخلي عن

تعقيدات آدم سميث والعودة إلى الحس البدهي السليم والتفكير القروسطي البسيط، من المهم ذكر بعض الأفكار الأخرى التي شاعت في العصور الوسطى. دعا ألبيرتوس ماغنوس في مواعظه إلى شن الحملة الصليبية الثامنة، آخر الحملات وأكثرها إخفاقًا وعبثًا. بل لم تحاول حتى الوصول إلى الأرض المقدسة. فقد أبحرت، مثل موكب كرنفالي، إلى تونس.

لكن يجب أن نقول ما يأتي عن آدم سميث: حتى حين أخطأ كان أذكى من غيره. وربما كان أكثر ذكاء على وجه الخصوص من أولئك المزعجين الذين يعرفون دومًا (قيمة) كل شيء ويتشوقون لإعلامنا بسعره الصحيح أو أنه لا يقدر بثمن.

العمل ليس مكونًا من مكونات السعر، الذي لا يوجد فيه مكونات. والتكلفة لا تحدد وفقًا لأسس موضوعية. ولكن عبر تأسيس البنية المنطقية لـ (ثروة الأمم) على فرضية العمل - وعلى كيفية تقسيمه، والتشارك في ثماره، وعلى الجهد والكد في حياتنا - اكتشف سميث مصادفة الضرورة المادية والأخلاقية لحريتنا.

آدم سميث، سوط يجلد الرأسمالية:

لا يمكن القول إن آدم سميث شيد النظام الرأسمالي. ما فعله كان توفير الأس المنطقي للحقوق الاقتصادية التي يمكن أن يبنى على ركائزها المشروع الحر بصورة أسهل. اقترح على البنائين

استخدام الأدوات اللازمة كلها: التجارة الحرة، والمصلحة الشخصية، والتخصص. لكن حين تولى مهمة التفكير بكيفية توزيع المشروع الحر لما ينتجه – (النظام الذي يوزع إنتاجه وفقًا له بصورة طبيعية) – هاجم الرأسمالية هجومًا كاسحًا عنيفًا.

ربما يفاجأ بعض أتباع آدم سميث إذا قرؤوا كتاباته كلها. (لا بد أن يؤسس قمع الفقراء احتكار الأغنياء)[١٤]، كما قال، ويكون هذا المكسب (أعلى دومًا في البلدان التي تسرع أكثر من سواها نحو الخراب)[١٥]. وفيما يتعلق بمفاهيم مثل (الاستخدام الكامل)، يمكن لسميث أن يحدث ضجة مثل جون كينيث غالبرايث(*): (إذا استخدم المجتمع سنويًّا كل العمل الذي يستطيع شراؤه سنويًّا.. فإن إنتاج كل سنة لاحقة سيكون أعظم بكثير من السنة السابقة)[١٦]. ويمكن لسميث أن يتبع ذلك بضجة أسوأ، تشبه صوت ثورستاين فيلبين(**) الأجش: (لكن لا يوجد بلد يوظف فيه النتاج السنوي كله لدعم عمل المجدين. فالكسالى يستهلكون جزءًا كبيرًا منه)[١٧].

كان سميث قاسيًا في هجومه على طبقة النبلاء من ملاك الأراضي: (حالما تصبح الأراضي كلها ملكية خاصة في أي بلد، يحب الملاك، مثل غيرهم، أن يجنوا من المكان الذي لم يزرعوا فيه)[١٨]. سوف تسليه مشاهدة دوقات إنجلترا (من الرجال

(*) (١٩٠٨-٢٠٠٦): اقتصادي أمريكي ولد في كندا. عرف بانتقاده الشديد للنزعة الاستهلاكية الأمريكية وتغول سلطة الشركات على حساب المجتمع والخدمات الاجتماعية. (المترجم).

(**) (١٨٥٧-١٩٢٩): عالم اقتصادي واجتماعي أمريكي، اشتهر باستقصائه التاريخي للبنية الاقتصادية للمجتمع وتحليله للنظام الاقتصادي المعاصر. (المترجم).

والنساء) وقد انحصر نشاطهم في الاحتفاظ بحيوانات السيرك وغيرها من وسائل الجذب السياحي في أملاكهم وضياعهم الضخمة، وتركوا الزوار يتجولون في قصورهم الفخمة، ويصورون اللوحات المرسومة لأسلافهم النبلاء المعلقة على الحيطان.

وكان أشد قسوة على الأشخاص ذاتهم الذين بدؤوا، في عصره، توليد ثروة الأمم الذي اقترح زيادتها. وعلى الرغم من صداقته مع التجار والمصنعين في إدنبرة وغلاسكو، إلا أنه كره هذه الطبقة:

> **يسعى معلمو المهن في كل زمان ومكان، في نوع من التجمع الضمني لكن المستمر والموحد، إلى عدم رفع أجور العمال[(١٩)].**

يشتكي التجار والمصنعون عندنا كثيرًا من التأثيرات السيئة للأجور المرتفعة في ارتفاع أسعار.. بضائعهم في الداخل والخارج. ولا يقولون شيئًا عن التأثيرات السيئة للأرباح المرتفعة. ويصمتون عن التأثيرات الضارة لمرابحهم. ولا يشتكون إلا من أرباح الآخرين [(٢٠)].

إن مصالح التجار.. في أي فرع تجاري أو تصنيعي محدد، تختلف دومًا في ناحية من النواحي عن مصالح عامة الناس، بل تناقضها[(٢١)].

لم يكن سميث متحمسًا لما سيعرف لاحقًا بجماعات الضغط التمثيلية:

يجب الإصغاء إلى اقتراح أي قانون أو تنظيم جديد للتجارة يأتي من (التجار والمصنعين) بحذر شديد، وينبغي عدم تبنيه إلا بعد فحص طويل واستقصاء دقيق.. مع الانتباه المتشكك إلى أبعد حد[٢٢].

من المؤكد أن الفضائح الأخيرة التي تفجرت في الكونغرس الأمريكي فيما يتعلق بجاك أبراموف وأمثاله ستصدم آدم سميث، كما صدمت أي كاتب نزيه في صحيفة واشنطن بوست. لكن سميث، كما يمكن أن نفترض، سيحترم ذكاء قارئه بما يكفي لعدم ادعاء الشعور بالصدمة.

ولم يكن متحمسًا أيضًا لخوصصة وظائف الحكومة. وفيما يتعلق بشركة الهند الشرقية وحكمها للبنغال، كتب سميث يقول: (ربما يكون حكم شركة حصرية من التجار أسوأ أنواع الحكم لأي بلد)[٢٣].

آدم سميث، مدافع ينافح عن الرأسمالية:

ما جعل آدم سميث مختلفًا عن المنتقدين اللاحقين والأكثر حمقًا للرأسمالية أنه لم يفكر قط بأسباب التفاوت الاقتصادي بطريقة ارتدادية أو تراجعية. كتب يقول: (لا يعود سبب غنى رجل وفقر جاره إلى أن الأول يركب عربة والثاني يسير على قدميه)[٢٤].

ولم ينظر بازدراء أخلاقي إلى الربح في حد ذاته، مع أنه (الازدراء) سرعان ما سيصبح إكليل غار يتوج كل ادعاء فلسفي. حيث توج ادعاء بيرسي بيشي شيللي (على الجانب الهزلي)، وبول بوت (على الجانب المأساوي). سيحدث أول تمرد في التاريخ يدعو نفسه (شيوعيًّا) بعد سنوات قليلة من وفاة سميث. واستهدف إسقاط المجلس التنفيذي لحكومة الثورة الفرنسية من بين الأشياء كلها. قاد الانتفاضة فرانسوا - نويل بابوف(*)، الذي اتخذ اسم (غراكوس) تيمنًا بتايبريوس غراكوس (الأصغر)(**)، رائد الإصلاح الزراعي الجذري في القرن الثاني قبل الميلاد، الذي سيصبح ديكتاتور روما. اغتيل تايبريوس، كما هو متوقع، على أيدي معارضيه وخصومه. ولقي بابوف المصير نفسه مثلما هو متوقع أيضًا.

بدلًا من ذلك كله — الذي يعرفه طلاب التاريخ الحديث ويحزنون له - أراد سميث (تأسيس حكومة تقدم للصناعة التشجيع الوحيد الذي تتطلبه: بعض الأمان المعتدل بحيث تتمتع بثمار عملها)[٢٥]. لم يعدّ الأرباح (مكاسب شريرة ضارة). بل اعتقد أن الأرباح الفاحشة هي نتيجة القوانين التي تحدد التجارة أو تعمل على تأمينها وضمانها. أما (الشرطة العنيفة) فكان التعبير الذي استخدمه لمثل هذا التدخل التشريعي/القانوني في المشروع الحر.

وحتى مع وحشية القوانين الناظمة للتجارة، تفضل المكاسب

(*) (١٧٦٠-١٧٩٧): ثوري فرنسي شهير. (المترجم).
(**) (١٥٣-١٢١ ق. م): مصلح وخطيب روماني. (المترجم).

الشريرة الضارة على الخسائر الشريرة الضارة. لنتخيل عالمًا نمارس فيه أنشطتنا اليومية وقد عقدنا العزم والنية على عدم الكسب منها - سوف يصبح عبثيًّا نأكل فيه الحصى، أو نركب السيارة لمجرد الاصطدام بشجرة!!

لم ير سميث في المعدل العادي من الربح ما يعنيه أيديولوجيًّا إلى الأيديولوجي، بل ما يعنيه حقًّا وفعلًا لمن يحقق الربح، فهو (عائده، والتمويل المناسب لعيشه)[٢٦]. أما حرية المنافسة فتدفع جاني الأرباح إلى وضع (أدنى سعر - لبضائعه - يرجح أن يبيعها به.. حيث توجد حرية كاملة على الأقل)[٢٧]. (التشديد مضاف إلى العبارة هنا ولا يمكن التوكيد عليه كثيرًا). كان سميث يتبنى المشروع الحر، ويشجع أيضًا معارضة الاشتراكية، حين يأزف الوقت المناسب. كتب يقول: (لا يوجد أسخف من تخيل أن الناس عمومًا سوف يعملون لأنفسهم بدرجة أقل حماسًا ودأبًا من عملهم للآخرين)[٢٨]. وحين يكون هؤلاء هم (الشعب) - بوصفه كيانًا معنويًّا مجردًا لا أفرادًا - يتحول السخف إلى جنون.

لم يكن آدم سميث ليبرتاريًّا(*) حديثاً، بل ليبرتاريا ناقدا للرأسمالية. إذ لا تحل مشكلات المساواة بمزيد من القوانين. في السوق الحر، ربما تكون الأجور متدنية كثيرًا، إلا أن (من المتعذر على القانون تنظيمها بالطريقة الصحيحة، على الرغم من ادعائه القيام بذلك)، كما كتب[٢٩]. يجب تحقيق قدر أكبر من المساواة الرأسمالية

(*) مؤمناً بالمسؤولية الفردية، والإرادة الحرة، وبمبدأ حرية المعتقد والتفكير دون قيود. (المترجم).

بمزيد من المساواة في رأس المال، بحيث (يرتفع السعر الحقيقي للعمل ارتفاعًا كبيرًا، نتيجة الظروف المزدهرة في المجتمع)[٣٠].

وعلى نحو مشابه، يجب عدم حل مشكلات الأسواق الحرة عبر زيادة تنظيمها وتقييدها، بل بزيادة حريتها: (كثيرًا ما يكون توسيع السوق متفقًا مع مصلحة عامة الناس؛ لكن تضييق المنافسة لا بد أن يكون دومًا ضدهم)[٣١]. تتضمن القوانين التجارية كلها - حتى أكثرها نفعًا وفائدة، مثل قانون الأغذية والأدوية النقية - عنصرًا يضيق المنافسة، ويجب (تفحصها.. بانتباه متشكك إلى أبعد حد). لقد حظر الكونغرس الأمريكي الإعلانات المروجة للسجائر في الإذاعة والتلفزيون عام ١٩٧٠، في الوقت ذاته تقريبًا الذي كانت فيه الأمة بأسرها تعاني تأثير المخدرات. فهل وقف أحد تجارها وراء هذا التشريع؟

آدم سميث، الخبير المالي الأصيل للرأسمالية:

ثمة سبب آخر وراء دفاع سميث عن الحرية الاقتصادية، وجميع الأسئلة المزعجة المتصلة بالمال التي تأتي مع الحرية الاقتصادية، تمثل في فهمه للمال. في الجزء الأول من (ثروة الأمم)، وفي (الاستطراد المتعلق بتفاوت قيمة الفضة)، يمكن القول إنه ازدرى المال، أو نقض فكرتنا عنه (أو أي فكرة تسبب مناقشتها المسهبة الملل والسأم). أظهر سميث أن موقف الميركانتيلية تجاه

المعـادن الثمينـة يمكن تلخيصه فيمـا يأتي: (يتجه أعلـى سعر إلى ثلاثة دولارات للجالـون! من الأفضل ملء خزان السيارة! ولن يكون الوقود دومًـا بهذه القيمة!). وأكد أن الأسئلـة المتصلة بالمال ليست هـي الأسئلـة التـي يجب طرحهـا، لأن (المـال هو المقياس الدقيق للقيمة القابلة لتبادل السلع كلها.. في نفس الزمان والمكان)[٣٢]. أما الأسئلـة التي يجب إثارتهـا فهي المتعلقة بكيفيـة الانتقال إلى زمان أفضل ومكان أفضل.

قد يتصـف الأغنياء بالجشع والنهم، لكن المـال ليس سيرسي[*] التي تمسخهم إلى مخلوقات أكثر طمعًا وجشعًا مما هم عليه الآن. (لا يستهلك الغني قدرًا أكبر من الطعام من جاره الفقير)[٣٣]، مثلما كتب سميـث في إشارة إلى الرخـاء المعقول الذي شهـده في زمانه ومكانه. أمـا في الرخاء غير المعقول في زماننا ومكاننا فالوضع معكوس. فكلما زادت البدانـة وزاد التهام الفطائر انحدر مستوى معيشة المواطن إلى

(*) (في الأساطير اليونانية) أغرت سيرسي البحارة للنـزول إلى جزيرتها حيث مارست معهم الحب ثم حولتهم إلى خنازير. (المترجم).

هـذا ليس صحيحًا تمامًا. وأشهر كلمتين في أعمال سميث استخدمهما أولًا في مقالته (تاريخ الفلك)، التي كتبها على الأرجح حين كان في العشرينيات من العمر. لكنه استعملهما بطريقة الذم. فقد لاحظ أن لـدى الإنسـان دومًا بعض المعرفة بالفيزياء: (النار تحرق، والمـاء ينعش، والأجسام الثقيلة تسقط، والخفيفـة تطفـو أو ترتفع، وذلك بضرورة طبائعها). وحتى القدماء الجهلة فكروا "في أن اليد الخفية لجوبتر استخدمت في هذه الأمور"، كما أكد بكل ثقة (Essays on Philosophical Subjects) (ص ٤٩).

لم يقصـد سميث أن تفهم اليـد الخفية مثلما فهمت عادة، بوصفها عامـلًا تنتج الحرية الاقتصادية بواسطتـه التقدم الاقتصـادي آليًا. وحين قصد ذلك قاله: (الحكومة تقـدم للصناعة التشجيع الذي تتطلبه). والموضع الآخر الذي استعمل فيه العبارة كان في الجزء الرابع من (ثروة الأمم)، ضمن جدل حـول فوائد توظيف رأس المال (في دعم الصناعـة المحلية) (An Inquiry into the Nature of Causes of the Wealth of Nations) (ص ٤٥٦)، حيث أخطأ، وفقًا لمبادئه المتعلقة بالتجارة الحرة ذاتها.

ما دون خط الفقر الرسمي الذي تحدده الحكومة. أشار سميث إلى هذا المعنى بأسلوب أبلغ في (نظرية العواطف الأخلاقية)، في الفقرة التي ذكرت فيها بالأصل اليد الخفية. الأغنياء، كما قال:

يستهلكون أكثر من الفقراء، وعلى الرغم من طبعهم الأناني والجشع.. ومع أن الغاية الوحيدة التي يريدونها من جهود الآلاف الذين يستخدمونهم هي إرضاء غطرستهم ورغباتهم التي لا تشبع، إلا أنهم يتقاسمون مع الفقراء إنتاج التحسينات التي أدخلوها كلها. إذ تقودهم يد خفية للنوع ذاته تقريبًا من توزيع ضروريات الحياة، الذي سيتم لو كانت الأرض مقسمة إلى أجزاء متساوية بين سكانها كلهم[٣٤].

تغمر الفوائد الاقتصادية للثروة في السوق الحر الأثرياء (مثل باريس هيلتون) بسرعة، ثم تتدفق منهم كالسيل، ولا تتسرب قطرة قطرة، إلى المجتمع.

آدم سميث، معالج الرأسمالية:

فهم سميث المالك والمملوك، الناس والمال. فقد عاش في حقبة ما قبل انقسام العلوم الاجتماعية إلى معسكرين متحاربين (أو قبل أن تدعي شرف انتمائها إلى العلم)، وبدا حرّاً في أن يكون عالمًا نفسانيًّا وعالمًا اقتصاديًّا في آن. وجدت عبارة عالم نفساني في القرن الثامن عشر، لكن معناها انحصر في (ذلك الذي يعالج الروح)، أو

كما سيقول سميث على الأرجح: (المخيلة). ورأى أن المخيلة البشرية تضم مطامح أكثر قتامة وتجذرًا من الطمع في المال. كتب يقول في (نظرية العواطف الأخلاقية):

بالنسبة إلى أولئك الذين اعتادوا التملك، أو حتى أمَّلوا بنيل إعجاب الناس، تفسد المسرات الأخرى كلها وتنحط.. المكانة، ذلك الهدف العظيم الذي يقسّم زوجات كبار المسؤولين في المجالس المحلية، هي غاية نصف جهود الحياة البشرية؛ والسبب وراء كل الضجة والاضطراب والنشاط المحموم، وكل النهب والظلم(٣٥).

وجوائز الأوسكار أيضًا..

هنالك حد لما يمكن أن يفعله الناس من أجل المال، لكن لا يوجد أي حد لما يفعله الناس ليظهروا في برنامج جيري سبرينغر. المال ليس كافيًا. فوصف شخص بأنه (يملك مال قارون) لم يكن قط شارة تثبت المكانة والهيبة. فقد انتهى المطاف بملك ليديا الوضيع أسيرًا لدى قورش إمبراطور فارس. وقارون (كريسيس) هو الذي دفع سولون إلى القول: يجب ألا نقول عن إنسان إنه سعيد إلى أن يموت. أو يصبح مشهورًا.

أما فيما يتعلق بالموت والمجد، فثمة مطمح آخر يؤدي إليهما، فضلًا عن الاضطراب والنشاط المحموم والنهب والظلم. فالرغبة في السلطة تدفع الإنسان، كما كتب سميث، إلى (أقصى درجة من الغطرسة.. وتنصيب حكمه في أعلى معيار للصواب والخطأ.. وتخيل

نفسه الحكيم الوحيد والفاضل الأوحد الذي يستحق الاحترام في البلد)[٣٦]. لم يقتصر سميث على وصف باربرا سترايسند فقط، بل كل ناشط في عالم السياسة.

لا يوجد أسوأ ولا أصعب من السياسة. وتظل حرية السوق، على الرغم من عدم القدرة على توكيد عدالتها، أفضل من قيود الحكومة، حيث ظلمها مؤكد لا شك فيه. وهنالك عامل إضافي يجعل التجارة متفوقة على السياسة. رأى سميث أن المجتمع الحر يميل إلى فصل السلطة عن الثروة: (الشخص الذي يمتلك ثروة ضخمة، أو ينجح في جمعها، لا يكتسب بالضرورة ولا ينجح لزومًا في التمتع بأي سلطة سياسية، مدنية أو عسكرية. وربما تزوده ثروته بالوسائل لاكتسابهما معًا، لكنها.. لا تسبغ أيًّا منهما عليه بالضرورة أيضاً)[٣٧]. ولا يقلل من صحة ذلك أي قدر من التذلل والنفاق للتبرع للحملات الانتخابية الراهنة. ربما تتأثر السياسة تأثرًا بالغًا بالمال، لكن يستحيل شراء السلطة السياسية من السوق. أثبت ذلك (بكل سرور) روس بيرو(*)، مثلما فعل (بقدر أقل من السرور) ستيف فوربس.

تختلف السلطات السياسية عن بضائع السوق الحر. ولهذا الاختلاف علاقة بطبيعة الحرية، التي ترتكز على المساواة والملكية الخاصة. إذ يتمتع المواطن في البلدان الحرة بحقوق ملكية لا تنتج عن (قوة يديه ومهارتهما) فقط، بل عن قوة عقله ومهارته

(*) (١٩٣٠-): رجل أعمال أمريكي رشح نفسه (بصورة مستقلة عن الحزبين) للرئاسة عام ١٩٩٢. (المترجم).

أيضًا. و(منعه من استعمال هذه القوة والمهارة بأي طريقة يظنها مناسبة، دون أن يسبب الأذى لجاره، يعد انتهاكاً صارخاً لـ..) حقوق التصويت في فلوريدا عام ٢٠٠٠؟ لا يتعلق الأمر بتعذر شراء أصواتنا فقط، بل نحن نملك نوعاً من الحقوق الحصرية التي تحول دون بيعنا في السوق. وحقوقنا (غير قابلة للتصرف)، حسب تعبير قانون الملكية في وثيقة إعلان الاستقلال.

هنالك سبب آخر يجعل السلطات السياسية مختلفة عن بضائع السوق الحر، له علاقة بطبيعة الأسواق. إذ لا يمكن تحديد التبادل الخاص الحر ولا تقييده - كما تظن الحكومة الصينية - في أشياء معينة. ولا يمكن فصل السلع المادية عن معرفة كيفية صنعها وعن الأفكار المؤسسة لتلك المعرفة. يتعاظم هذا كله ويتضاعف الآن، في (عصر المعلومات). فالسوق الحر يؤدي إلى التفكير، عدو السياسيين من الأزل إلى الأبد.

ليس الجزء الأول من (ثروة الأمم) سوى تحليل للوسائل والأدوات التي نستخدمها للسعي وراء مصلحتنا الشخصية، ومراجعة نقدية لذلك المسعى. وهو أيضًا تحذير من مغبة السعي وراء ما هو أسوأ. لم يرد آدم سميث أن نكون مثل (العامة في إنجلترا)، الذين رآهم (غيورين على حريتهم، لكنهم.. لم يفهموا قط مكوناتها بصورة صحيحة)[٣٨].



٥

(ثروة الأمم)، الجزء الثاني:
(حول طبيعة المخزون، وتراكمه، واستخدامه)
دع آدم سميث يكون مرشدك ومعلمك في السوق

تحقق الكتيبات الإرشادية في مجال الاستثمار والكتب التحفيزية للنشاط التجاري مبيعات مذهلة. وتعاقبها (المراجعة النقدية للكتب في صحيفة نيويورك تايمز) بإرسالها إلى لائحة أفضل الكتب مبيعًا. وهناك، تبقى غالبًا طوال سنين، لتزداد جاذبية وإغراء، وتوفر لمؤلفيها أرباحًا تستحق أن تكون الأسرع في (البلدان التي تسرع أكثر من سواها نحو الخراب). تسبب هذه الأرباح لمؤلفي الأنواع الأخرى من الكتب، كهذا الكتاب مثلًا، حالة من الغضب والحسد، وتعلن أن البلاد سائرة إلى الخراب فعلًا إذا وصلت مبيعات هذه الكتيبات الإرشادية والكتب التحفيزية إلى هذه الأرقام.

النصائح الاستثمارية مملة وصبيانية دومًا. والأسفار التحفيزية مؤسسة في العادة على ملاحظة حاذقة أو مشاهدة

ذكيـة حول النشاط التجاري، توسـع وتضخم وتمط، ويعاد توكيدها وذكرهـا مـرارًا وتكـرارًا إلى أن تبلـغ الصفحـات العـدد المطلوب للطباعـة والتسويـق. علـى سبيل المثـال: (تذكـر أن منافسك رجل متعدد الطبقات. فلا تحكم عليـه وفقًا للطبقة السطحية الظاهرة. حـاول رؤيـة ما يكمـن خلف المظهـر، وافهـم الأشياء التـي تريحه والأشيـاء التـي تزعجه وتدفعـه إلى ارتـكاب الأخطـاء). ذلك هو نموذج لما يرد في كتب من طراز: (ما هو لون الثياب الداخلية)، دار كوك للنشر والتوزيع، عدد الصفحات: ٢٣٠، غلاف سميك، السعر: ٢٩،٩٥ دولار.

لكن هـا هو (ثـروة الأمم)، الحاشد بملاحظـات حكيمة فعلًا علـى كل جانب من جوانـب الاقتصـاد، والمترع بتعليقـات حصيفة حقًـا علـى كل شـأن مـن الشـؤون الماليـة. لنأخذ مثالًا مـن الجزء الثـاني. فقبل مئات السنين من بـدء المهندسين الحضريين الشباب بتصميم النوافذ وفقًـا للأسلوب الكلاسيكي الشائع (والزائف) في القـرن السادس عشر، التي أعاقـت الرؤية منهـا وحجبت المناظر عنهـا، حذر آدم سميث من المبالغة في الرهان على (تراكم المخزون واستخدامه) في سوق العقارات المتقلب.

لا يسهـم بيـت السكنـى، بمـا هـو كذلك، بـأي عائد لقاطنيه.. ونظـرًا لأن البيت نفسه لا ينتج شيئًا، يجب علـى المستأجـر، إذا أُجر، دفع الأجرة مـن دخل آخر..

لذلك، ومع أن البيت قد يوفر عائدًا لمالكه.. إلا أنه لا يولد أي عائد لعامة الناس، وليست له وظيفة رأس المال، ولا يمكن لعائد المجموعة الكاملة من الناس أن يزداد به[١].

فيما يتعلق بالمجال العام في عمل سميث، هنالك إغراء يمكن تفهمه يدفع إلى التساؤل: هل يوجد سطر في كتيبات الاستثمار الإرشادية وكتب التحفيز التجارية لا يمكن استخلاصه من (ثروة الأمم)؟ على أقل تقدير، لا بد من وجود مادة كافية لواحد من هذه الكتب الإرشادية للاعتراف الذاتي بالقصور الذهني، حيث يبدو أن الناس لا يشعرون بالإحراج ربما عند شراء كتاب بعنوان (دليل الجاهل لتحسين الحياة) مثلًا.

وحدث أن الجزء الثاني من (ثروة الأمم) ناسب بصورة كاملة مثل هذه المشروعات. فموضوع سميث هو رأس المال: من أين نحصل عليه، وكيف يوظف للحصول على عوائد كبيرة. هذه هي مادة أفضل الكتب مبيعًا التي تقف على قدم المساواة مع تلك المعنية بالتقنيات الجنسية السرية لأفراد العائلة المالكة في إنجلترا.

لسوء الحظ هنالك مشكلة. فنصائح آدم سميث، ومشورته المتعلقة بالطرق والأساليب، وكتاباته في هذا السياق، موجهة كلها إلى كبار الشخصيات النافذة والمسؤولة، مثل وزراء الخزانة والمالية، ورؤساء هيئة الاحتياطي الفيدرالي، وصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي. هذا لا يعني سوق الجماهير بشيء. من ناحية أخرى،

للأقوياء والمتسلطين أزلام من المتملقين والمداهنين والمصفقين، وربما يشترون كتابي ويقدمونه إلى بول وولفويتز هدية في عيد الميلاد.

المصرف المركزي للحمقى:

المصرف المركزي هو المؤسسة التي تسيطر على مال البلد وتتحكم فيه. وسيكون ذلك أمرًا لا غبار عليه لولا ثلاث حقائق: المال قيمة متخيلة. والصناعة المصرفية لا تشمل المال. والمصرف المركزي ليس مصرفًا.

ما هو المال بحق الجحيم؟

كتب سميث يقول: (المال ليس شيئًا ماديًّا نعمل عليه، ولا أداة نعمل بها)[٢] فهو، مثل (المشاهد الحيادي)، كيان اعتباري متخيل. فكرة حدسية تخمينية تقربنا من معنى القيمة. إن استخدام المال بوصفه قيمة تخمينية متخيلة، يتيح لنا تبادل السلع والخدمات بطريقة أقل تعقيدًا من المقايضة، وأقل إثارة لازدراء (المشاهد الحيادي) واشمئزازه مما تفعله السرقة.

يولد المال من اقتران تقسيم العمل والتجارة الحرة. وهو طفل مشاغب مشاكس. إذ تسبب الأفكار المتعلقة بالقيمة الجدال والخلاف. وهذا ما أشار إليه سميث في محاضرة ألقاها في جامعة غلاسكو: (إن دفع شلن، الذي يبدو بسيطًا وعاديًّا في معناه، هو في

الحقيقة تقديم حجة لإقناع شخص للقيام بعمل ما لأنه يصب في مصلحته)[٣].

كتب سميث يقول إن: (المال، الذي يتم بواسطته توزيع إجمالي إيرادات مجتمع بطريقة منتظمة على مختلف أعضائه، لا يشكل جزءًا من تلك الإيرادات). ولأنه قيمة رمزية متخيلة، لا يمكنه ذلك. أضاف: (العجلة الضخمة للتوزيع مختلفة كلية عن البضائع التي توزع بواسطتها)[٤].

يجب علينا ربما عدم محاولة التفكير بعمق بطبيعة المال. في الجزء الأول من (ثروة الأمم)، كتب سميث عبارة مبهمة أظهرت تأثير مثل هذا التفكير: (أنا على استعداد دومًا للمخاطرة بدفع القارئ إلى الشعور بالملل من أجل التأكد من الوضوح والفهم؛ وبعد بذل أقصى جهد ممكن لأكون واضحًا ومفهومًا، لا يزال بعض الغموض يغلف على ما يبدو موضوعًا مجردًا بطبيعته إلى أقصى حدود التجريد)[٥].

وما هو المصرف؟

المصرف مؤسسة لا تتعامل بالمال. وإذا قبلنا تعريف سميث للقيمة بوصفها (الجهد والمشقة)، فإن المصارف تتعامل بالجهد والمشقة. العمل المصرفي خدمة ذكية لتخزين ما بذلته من جهد

ومشقة. وبدلًا مـن تحميلك رسوم التخزين، يعوضك المصرف على ما تحملته من جهد مرهق ومشقة مضنية.

على سبيل المثـال، لنفترض أنك، وفقًا للجـزء الأول من (ثروة الأمم)، قتلت عـددًا كبيرًا من الغزلان. سـوف تحصل على قندس واحـد مقابـل كل غزالين، ومـع ذلـك سيتراكم عندك عـدد يفوق حاجتك مـن القنادس. وفي غياب النظام المصرفي، عليك تكديسها تحـت السرير حيـث لا يوجد منها أي فائدة لأحـد. ولا بد أن تتعفن وتتفسـخ بمرور الزمن. يسمح لك النظام المصرفي بتأجيرها لي مع (بعض الضمان المقبول) بتلقي عائد التأجير المتفق عليه، وإعادتها إليـك حين أنتهي مـن الصفقة التجارية المربحـة. لا يدخل المال في العملية إلا لأن الصفقة ستكون أكثر سهولة باستخدامه، وأكثر متعة حين يحل محل القنادس.

أعلـن سميـث: (لا يمكـن لأكثر العمليـات المصرفيـة حصافة وحكمـة زيادة صناعـة البلد عبر زيادة رأس المـال فيه، بل بواسطة تحويـل أكـبر جزء منـه إلى رأس مال فعال ومنتـج)(٦). ما لا يمكن أن تفعلـه العمليات المصرفية الحكيمـة والحصيفة هو زيادة الدأب والجـد والطاقـة والعمل - كإقراض المال إلى أحمـق، مثلي، يؤمن بفكـرة مجنونـة عـن تقانـة الطاقـة البديلة تقـوم على إنتـاج غاز الميثـان من القنادس المتعفنة!! كثيرًا ما يزعم السياسيون المطالبون بـ (المحفـز الاقتصـادي) بـأن على المصـارف توفـيره. وكثيراً ما

يدعي المصرفيون أنهم قدموه. لكنهم لا يستطيعون، وليس مطلوبًا منهم تقديمه.

حدثت أزمة مصرفية في اسكتلندا عام ١٧٧٢. ولم يتمكن من النجاة سوى ثلاثة مصارف خاصة من بين مصارف إدنبرة الثلاثين. في كل زمان ومكان نجد معادلًا لازدياد عدد شركات الإنترنت (فقاعة الدوت. كوم)، والشركات المبتدئة في وادي السيليكون. وصف آدم سميث موقف المستثمرين عام ١٧٧٢ المشابه لوضعهم عام ١٩٩٩: (يبدو أنهم اعتقدوا أن على المصارف التزام شرف يجبرها على تزويدهم برأس المال الذي يريدونه للمتاجرة به)[٧].

إذًا، ما فائدة المصارف فعلًا؟

مفيدة لصنع الوهم ودفع الناس إلى تصديقه. فهي متخيلة وهمية مثل الدولارات التي تقرضها. ومبانيها المهيبة، وأروقتها المعمدة، ولوحاتها الكهربائية التي تعلن الحرارة والوقت، مجرد رموز. والرموز تمثل شيئًا آخر أُجبرنا على دعوته بـ (العقد).

من حسن الحظ أن آدم سميث تمتع بالحرية ليكون عالمًا نفسانيًّا وعالمًا اقتصاديًّا في آن معًا. وأي تفحص استقصائي يجريه للاقتصاد سرعان ما يتحول إلى جلسة نفسية، تحلل فيها الأحلام، وتسبر النرجسية، وتحل النزاعات العائلية. المال وليد القران بين

تقسيم العمل وحرية التجارة، طفل مشاغب ولد سفاحًا بينما كنا نستمتع بشيء من التعاون اللاواعي. كما أنتج اقتران حقوق الملكية بالمساواة أمام القانون وليدًا آخر عرف باسم العقد الصحيح والملزم، ونال اعترافًا أوسع نطاقًا بشرعيته من المال. ليس العمل المصرفي الفاشل سوى زواج فاشل حيث تبطل العقد أنانية الملكية الخاصة، وتخفق حقوق المساواة في توكيد نفسها. كتب سميث: (حين لا يلزم القانون بتنفيذ العقد وتطبيقه، يضع المقترضين كلهم على قدم المساواة مع المفلسين أو المدينين الذين يشك في قدرتهم على الوفاء)[٨]. يجب تقديم المشورة والنصح. وإلا قد يبدأ الطفل (=العقد) بالارتباط بأقران السوء، ويفسده المال، وينمو في حالة من تدهور تقدير الذات، ويعاني ميولًا تنزع إلى التدمير الذاتي. وهذا بالضبط ما حدث لصندوق الضمان الاجتماعي في أمريكا.

إذًا، نحن بحاجة إلى تنظيم المصارف!

لا يمكن للحرية أن توجد منفلتة دون حدود أو قيود. ولم يكن آدم سميث ليجبن عن مواجهة هذا اللغز المحير. عندما تناول الصناعة المصرفية، ذكر أكثر مبادئ السوق الحر جوهرية: (في أي فرع من فروع التجارة، أو أي تقسيم للعمل، كلما كانت المنافسة أكثر عمومية وحرية تعاظمت فائدتها لعامة الناس، وسوف تظل كذلك)[٩]. لكن عند تفكير سميث في العمل المصرفي، ذكر أيضًا أهم محاذير هذا

المبدأ: (لكن هذه الجهود المبذولة من أجل الحرية الطبيعية لبضعة أفراد، التي قد تعرض للخطر أمن المجتمع برمته، تقيدها، ويجب أن تقيدها، قوانين الحكومات كلها)[١٠].

هذا كله منطقي ومعقول، مع أنك لن تعرفه حين تسمع المجادلات اللامعقولة بين المشرعين الذين يؤمنون بواحدة من هذه الأفكار، والمشرعين الذين يؤمنون بأخرى. وخلافًا لمعظم السياسيين، كان سميث قادرًا عادة على شق العباب بسفينته دون الالتفات إلى إغراء السلطات الاستبدادية، أو غواية التراخيص والفرص القانونية، ودون أن يحشو رأسه بالأفكار المسبقة، ودونما حاجة إلى ربط جسمه بالسارية. ففكرته عن غرض القانون أكثر وضوحًا من المشرعين أنفسهم. ولم ير في كتابة القوانين منافسة أو سباقًا أو تسوية بين مجموعات تمثل المصالح المتنازعة. بل وجد فيها طريقة لتعزيز (الحرية الطبيعية التي هي مجال عمل القانون، لا لانتهاكها والتعدي عليها، بل لدعمها ومساندتها)[١١]. في بعض الأحيان نحتاج إلى قانون من هذا النوع، وحين نطبقه سيذهب كثير من المصرفيين إلى السجن.

ما هو المصرف المركزي؟

لا يمكنك الحصول على بطاقة ائتمان تسحب بها المال من مصرف الاحتياطي الفيدرالي، مع أن إدارة بوش تستطيع القيام

بذلـك علـى ما يبـدو. لا يهم. المصـرف المركزي ليسـ مصرفًا بل وكالـة حكوميـة. دعاه سميـث (محـرك الدولة العظيـم)[١٢]. فهو ينظم حجـم النقد المتـداول بواسطـة تنظيم المصـارف الحقيقية أساسًـا. فمن المفترضـ أن يساوي عرض الدولة مـن العملة عرض القيمـة الاقتصادية فيها. فـإذا انخفض حجم النقـد المتداول عن مستـوى العمل والسلع سوف ينهار الائتمـان وتعاني الأمة حقبة من الكسـاد العظيم (يشبـه ما حدث عام ١٩٢٩). أمـا إذا زاد فتشهد مـا حدث في سبعينيـات القرن العشرين. يعتمـد رأيك حول أي من الحالتـين أشد سوءًا علـى موقفك: هل أنت أكثر قلقًـا على النسيج السميـك، والمراقص الليلية (الديسكو)، وهـنري كيسنجر، أم من الهـراء المتعلق بـ (أعظم الأجيال)، والإنفـاق الضخم على الرعاية الصحية، ووالديك.

يتمثـل غرض المصرف المركـزي في منع عودة المراقص الليلية، وإقناع والديك بالسكوت. أما الآليات التقنية التي يستخدمها للقيام بذلك فهـي تتجاوز نطاق هذا الكتاب، فضلًا عـن فهم مؤلفه. وكل من يعتقـد أنه سيحل ألغـاز المصرف المركـزي الغامضة هنا حالم واهم. تتجسد أهمية مـا قاله آدم سميث عن المصـارف المركزية في حقيقة أنه، كالعادة، فهم المبادئ العملية الكامنة خلف السر الملغز. وأدرك أن المال ليس من أصول الحكومة ولا مصدر قوة لها، بل دين والتـزام واجبان عليهـا. ودعاه (تلك الوسيلـة العظيمة لكن المكلفة

للتجارة)[١٣]. ولاحظ أن (حجم المال المتداول في أي بلد يجب أن يتطلب نوعًا معينًا من التكلفة، أولًا لجمعه، ثم لدعمه)[١٤].

خطة آدم سميث لزيادة ثروة (الأمم):

كيف تستخدم المصارف المركزية العملة الورقية لجعل الوسيلة العظيمة للتجارة تعمل بتكلفة زهيدة؟

جعل (النوع المعين من التكلفة) للحصول على أداة متاحة للتبادل والتحويل آدم سميث واحدًا من أوائل المطالبين بالعملة الورقية. إذ لا تقتصر التكلفة الباهظة للمعادن الثمينة على المناجم، والنقل، وسك العملة؛ بل تمتلك أيضًا قيمة حقيقية - لا نقدية فقط - في التصنيع والصناعة.

تناول سميث الموضوع حرفيًّا تقريبًا. كتب يقول: (يمكن مقارنة النقود الذهبية والفضية بطريق رئيس، يوزع ويحمل إلى السوق كل ما ينتج في البلد من حبوب وخضار، دون أن ينتج بذاته شيئًا منها)[١٥]. أما العملة الورقية فتمكن (البلد، عبر توفير طريق للعربات في الهواء، واسمحوا لي بهذه الاستعارة التشبيهية، من تحويل جزء كبير من طرقاتها - إذا جاز التعبير - إلى مراع خصبة وحقول صالحة لزراعة الحبوب)[١٦]. (مع أننا لدينا الآن فعلًا "طريق للعربات في الهواء"، لكن لم يتحول كثير من أراضينا بين الولايات إلى مراع خصبة وحقول صالحة للزراعة).

المال معلومات. وفي دفاع آدم سميث عن العملة الورقية، كان يتنبأ بالجانب الافتراضي من الاقتصاد الحديث والكفاءة الفاعلة التي تأتي منه. فلماذا نشتري قطعة باهظة الثمن من الغرانيت ونحفر عليها المعلومات بإزميل العمال المهرة حين نستطيع ترميز المعلومات دون أي جهد عبر الأثير؟

أدرك سميث الخطر الكامن فيما دعاه (أجنحة ديدالوس(*) للعملة الورقية)(١٧). كان مؤيدًا نزيهًا وعاقلًا ومبكرًا للعملة الورقية، التي لم تكن منتشرة ولا معروفة. ولم يكن كثير من مشجعي العملة الورقية في القرن الثامن عشر يفضلونها لأنهم حسبوا أنها تجعل المال أكثر كفاءة وفاعلية، بل لأنهم اعتقدوا أنها تجعله أكثر حرية. وأشهر هؤلاء كان زميلًا اسكتلنديًّا اسمه جون لو (١٦٧١-١٧٢٩). اقترح لو تأسيس مصرف وطني اسكتلندي (تصوره على ما يبدو قادرًا على إصدار أوراق نقدية تعادل القيمة الكلية للأراضي في البلد كلها) على حد تعبير سميث(١٨). رفض البرلمان الاسكتلندي الاقتراح. فذهب لو إلى باريس، وفي عام ١٧١٧ وضع (خطة المسيسبي) سيئة الذكر(**) وفقًا للخطوط ذاتها. قدم سميث وصفاً تفصيليّاً لعمليات جون لو في محاضرة ألقاها في جامعة غلاسكو: (يرهن أكبر جزء من الناس مصائرهم بالورق ويتحولون إلى جماعة من المتسولين)(١٩). وفي

(*) (في الأساطير اليونانية) صنع دادلوس أجنحة من الشمع له ولابنه إيكاروس للنجاة من متاهة ملك كريت. لكن الابن اقترب كثيرًا من الشمس فانصهر الجناحان وسقط في البحر. (المترجم).

(**) خطة غرضها جمع المال لفرنسا. فقد سيطرت شركة لو (الفرنسية) على مساحات شاسعة من الأراضي على ضفاف المسيسبي واحتكرت التجارة فيها على مدى خمس وعشرين سنة. (المترجم).

(ثـروة الأمم)، أعلن أن (العمـلات الورقية في أمريكا الشمالية هي خطة تزوير وغش تمكن المدينين من الاحتيال على دائنيهم)[٢٠].

كثـير من العمـلات الورقية التـي تصدرها المصـارف المركزية هذه الأيـام ليست أفضل حالًا. هل تريد الباقي بالبيزو الأرجنتيني؟ النقـود الحديثة كلها عملات ورقية لكن دون ضمان لقيمتها النسبية باستثناء وعود غامضة من الحكومة، أو وعود أكثر غموضًا من عصبة من الحكومات، كما في حالة اليورو. ليس لدينا سوى عملة ورقية غير قابلة للتحويـل إلى نقد، تصدرها حكوماتنـا، لأن من الأسهل عليها طبع مزيد منها بذريعة (السياسة النقدية الأكثر مرونة). أما نوعية المـال، مثل نوعية الجسـم البشري بعـد انقضاء ثمانيـة عشر عامًا مـن عمره، فلا تتحسن غالبًـا بالكمية. كتب سميث يقول إن (العملة الورقيـة لا تزيد بالضرورة كمية العملة برمتها[٢١] (التسويد مضاف للأسف!). في فبرايـر ٢٠٠٦، أصدر مصرف الاحتياطي النقدي في زيمبابـوي عملـة ورقية جديدة من فئة خمسين ألـف دولار، ولم تكن كافية لشراء كأس شراب.

اقترح سميث وضع قيود ذكية متنوعة على العملات الورقية التي يصدرها المصرف المركزي. لكن لم يعد أي منها مهمّاً اليوم لأن فكرة العملـة الورقية غير القابلة للتحويـل إلى نقد التي تصدرها الحكومة كانت خـارج نطاق تفكير سميث وملكاته المفهوميـة. واعتقد أن المال سيكـون معتمدًا دومًا على قاعدة الذهـب أو قاعدة الفضة، أو قاعدة

من نوع آخر (حين كتب سميث، كما أشرنا قبلاً، عن سعر الحبوب الغذائية الذي (يقرر القيمة الحقيقية للسلع الأخرى كلها)[٢٢]، كان في الواقع يقترح (سلة سوقية) من السلع الاستهلاكية بوصفها قاعدة للعملة).

ترتبط قيمة العملة غير القابلة للتحويل إلى نقد التي تصدرها الحكومة بنزوات سياسية أقل ديمومة بكثير من (القيمة التي وضعها جون لو للأراضي في البلد كلها). تبنت الحكومات الحديثة (خطة المسيسبي) وعملت على إنجاحها باستثناء الحالات التي فشلت فيها بالطبع.

إذاً، هنالك حدود لما يمكن للمصارف الخاصة والمركزية فعله لتحسين الاقتصاد، لكن ألا تستطيع مؤسسات مثل البنك الدولي توفير المحفز الاقتصادي الذي نحتاج إليه للقضاء على الفقر ومساعدة الدول النامية؟

لا. شدد سميث على ذلك في الجزء الرابع من (ثروة الأمم): (لم أعرف قط عملاً مفيداً قام به أولئك الذين ادعوا أنهم يتاجرون في سبيل المصلحة العامة)[٢٣]. في الجزء الثاني ثمة تفسير لفورة الحنق والتشكي هذه حين وصف سميث حالة مصرف اير، الذي أدى انهياره عام ١٧٧٢ إلى تفجر أزمة مصارف إدنبرة. (من المبادئ المعلنة لهذا المصرف تقديم رأس المال لتوظيفه في إدخال تلك التحسينات التي كانت عوائدها بطيئة وبعيدة)[٢٤]. هذا ما يحاول البنك الدولي فعله بالضبط. تابع سميث: (يبدو أن

عمليات هـذا المصرف قد أفـرزت تأثيرات معاكسـة تمامًا للهدف المقصـود)[٢٥]. وهذا ما تبـين للبنك الدولي. كتـب سميث يقول إن اسـم المصرف المدهش (أتاح نوعًا من الارتيـاح المؤقت دون ريب.. لكنـه بذلـك مكـن مقترضيه من الغـرق في الديون بصـورة أعمق، وحين انهار كان السقوط أشد دويًّا)[٢٦].

لم يكـن هنـاك بونـو في تلك الأيـام ليصحـح الأمـور ويعيدها إلى نصابهـا. ليس من الخـير في شيء أن تكون مدينًـا للمؤسسات الخيريـة. ومن الأفضـل أن تستبدلهـا بعمك الغاضـب المقطب، أو المرابي اللئيـم في الشارع القريب. المقترضـون مدينون على الرغم مـن كل شيء. قال سميـث ملاحظًا: (المقترضـون الذين يتصفون بالوعـي والإدراك وحسـن التدبير، من مقرضين أفـراد، يرجح أن يوظفـوا المـال المقترض في مشروعات جديـة.. ومع أنهـا لن تكون عظيمـة ومدهشة، إلا أنهـا أكثر رسوخًا وربحيـة)[٢٧]. تنطبق هذه الحكمة المأثورة على المجالات كلها: بدءًا ببرامج المعونات الخارجية في بلـدان العـالم النامـي، وانتهاء بالمجـادلات في مجالس الإدارة المحلية. وأي بائع شطائر متجول أفضل للمدينة من أي ستاد رياضي تمولـه البلديـة. أعلن سميث أن مصرف ايـر سيظل يمثل حالة من الفشـل حتى لو نجح، ولذلـك فإن (هذه العملية، من دون زيادة أقل قـدر من رأس مال البلد، كانت ستحول جزءًا كبيرًا منه من مشروع ناجح ومربح إلى مشروع متهور وخاسر)[٢٨].

ثمة درس متكرر في (ثروة الأمم) يطالبنا بالتخلي عن الجشع والطمع. ولا يوجد من يتفوق في الجشع والنهم والطمع على أولئك الذي يعملون من أجل المصلحة العامة. إذ لا يكتفون بالملايين أو المليارات لإشباع نهمهم الشخصي الذي لا يشبع، بل يسعون للاستيلاء على تريليونات الدولارات الضرورية لجعل الحياة على الأرض أفضل حالاً لسكانها كلهم. على البنك الدولي الاكتفاء بالصالح الخاص (لا العام)، الذي يتدفق منه الخير كله.



٦

(ثروة الأمم)، الجزء الثاني (تابع)، آدم سميث، الخطيب الذي ينأى عن أسلوب التحفيز

يتفحص الجزء الثاني من (ثروة الأمم)، إلى جانب الجدل حول العملة والنظام المصرفي، التخطيط الاقتصادي –والحاجة الماسة إلى تقليصه. كان آدم سميث واحدًا من أوائل (وأفضل) المشاركين في الحرب الضروس التي لا تنتهي على المحاولات الحكومية للسيطرة على التجارة والصناعة. تمثلت إستراتيجيته في إقناع المسؤولين الذين يوجهون اقتصادات العالم بتركها وشأنها.

العادات الثلاث عشرة التي يتبعها أكثر المخططين الاقتصاديين الحكوميين (كما نأمل) افتقارًا إلى الكفاءة والفاعلية:

١- كن مبتذلاً وواضحاً:

من المفترض أن يتمثل هدف التخطيط الاقتصادي الحكومي في تحسين وضع المحكومين. لكن الصعوبة تظهر حين يبدأ

المخططون الاقتصاديون بالتفكير في ماهية الوضع الأفضل. هل هو سهولة استخدام وسائل النقل العامة؟ أو إنشاء مزيد من الحدائق والمساحات الخضراء؟ أم تحسين الفرص التعليمية؟ يعرف المحكومون مسبقًا، كما أعلن سميث، الإجابة: (زيادة الثروة هي الوسيلة التي يمكن عبرها لجزء أكبر من الناس اقتراح تحسين أوضاعهم والرغبة فيه. إنها الوسيلة الأكثر ابتذالًا وشيوعًا ووضوحاً)[١].

٢- دع المواطن العادي يقوم بالعمل كله:

شدد سميث على (حسن تدبير الأفراد وحسن سلوكهم. وجهدهم الشامل والمتواصل والمستمر دون انقطاع لتحسين ظروفهم). وقدم الحجة على أن (هذا الجهد، الذي يحميه القانون وتتيحه الحرية.. حافظ على تقدم إنجلترا نحو الثراء والوفرة والتطور)[٢]. لكن نظرًا لأن إنجلترا (لم تحظ بنعمة الحكومة الرشيدة المقتصدة.. فإن الادعاء بمراقبة النشاط الاقتصادي للأفراد يجسد أعلى درجات الوقاحة والتطاول، لدى الملوك والوزراء)[٣].

٣- اجعل الحكومة كلها غير منتجة، مثل المخططين الاقتصاديين:

يفترض بالحكومة أن تكون غير منتجة. قسم آدم سميث العمل إلى نوعين اثنين: (النوع الأول.. يضيف قيمة إلى الموضوع الذي

يعمـل عليه)[٤]. النوع الثاني تمثله الحكومة. ولا عيب في ذلك. كتب سميـث يقول: (عمل أكثر الأنظمـة احترامًا في المجتمع.. لا ينتج أي قيمـة)[٥]. لم يقصد هنـا أن عملها ليس له قيمـة بذاته؛ بل حقيقة أنـه لا ينتـج أي سلعـة مادية. العمـل (غير المنتج) لا ينتـج الأشياء المادية – البضائـع، ورأس المال، والمواد الخـام – الضرورية لإنتاج الأشياء المادية الأخرى، التي نعتمد عليها في الحياة والمعاش. لكن لا يوجد تشريع، مهما بلغت البراعة والحصافة في كتابته، يستطيع أن يدفئـك في الشتاء إذا خرجت من البيـت (مع أن رفض إقرار بعض التشريعات، مثـل اتفاقية كيوتو المتعلقة بالمنـاخ، يستطيع ذلك عبر الاحتباس الحراري!!).

كتب سميث يقـول: (الملك، مع كل ضباطه ومسؤوليه عن العدل والحـرب.. وجنود الجيش والبحرية كلهم.. عمـال غير منتجين.. والحمايـة، والأمـن، والدفـاع عن الأمـة ومواطنيهـا، وتأثير عملها كلهـا هذه السنـة، لن يشـتري الحمايـة والأمن والدفـاع في السنة القادمة)[٦]. بكلمات أخرى، الحكومة عبارة عن خدمة، ويجب عدم الخلط بينها وبين مصنع يزودنا بالوظائف والمنازل وحبوب تخفيض ضغـط الـدم. وحيثما سُمع سياسـي يقول إن الإنفـاق الحكومي هو (استثمار)، يجب أن يبلغ بضرورة العثور على وظيفة.

شعـر الاقتصاديون في السنين اللاحقة، مثل جي. بي. ساي في أوائـل القـرن التاسع عشر، أن آدم سميث قلـل من قيمة مساهمات

الخدمات في الاقتصاد. وهذا صحيح. ففي القرن الثامن عشر هناك خدم (وخادمات)، لا اقتصاد خدمات. وكان من الصعب على رجل في تلك الحقبة الاعتقاد بأن خادماً رثّاً نصف سكران، وخادمة شعثاء في مطبخ، يمكن أن يرتقيا إلى فتى ثمل يوصل طلبيات البيتزا، وفتاة تضع قرطًا في لسانها وتجلس خلف صندوق الدفع في السوبر ماركت!!

كان سميث يحاول - دون ضرورة ربما - إقامة نوع من التمييز المنطقي بين السلع والخدمات. لكنه إذا قلل من قيمة الخدمات الخاصة، فقد عوضه بالمبالغة في تقدير قيمة الخدمات العامة، التي يقدمها (موظفو الدولة) ماضيًا وحاضرًا. فما تستهلكه الحكومة من السلع والخدمات يجب أن يوفرها، في نهاية المطاف، الأشخاص الذين يصنعون السلع ويؤدون الخدمات. لاحظ سميث أن (العمال غير المنتجين يعتمدون على النتاج السنوي للأرض والعمل في البلد. وهذا الإنتاج، مهما عظم، لا يمكن أن يكون دون حدود، بل يجب أن توضع له بعض الحدود)[٧]. وهذا بالضبط ما يجب أن تفعله الحكومة.

٤ - اضبط الإنفاق الحكومي. وحرر الأنواع الأخرى من الإنفاق من أي قيد:

كتب سميث: (لا تفتقر الأمم العظيمة بسبب القطاع الخاص، مع أنها قد تعاني الفقر أحيانًا نتيجة تبذير القطاع العام وسوء

تصرفه وإدارته)[٨]. أما السبب وراء ذلك فهو أن (من يقترض لينفق سرعان ما يفلس، ومن يقرضه سوف يندم أحيانًا على حماقته. لذلك، فإن الاقتراض أو الإقراض لهذا الغرض، في الحالات جميعًا، حيث تكون المرابـاة الفاحشة غير مقبولة، يناقض مصالح الطرفين معًا)[٩]. لكن سميث لم يسمع قط عن بطاقات الائتمان. ولو عاين أي فاتورة لبطاقة ماستركارد، لوجد أن المرابـاة الفاحشة أصبحت مقبولة.

٥- اعمل على تخريب الميزان التجاري:

عندما سمع آدم سميث الشكاوى المرعبة حول ميزان المدفوعات المشابهة لما نسمعه اليوم، هاجم بعنف هستيريا العجز التجاري: (لكن مع أن كمية ضخمة من الذهب والفضة أو سندات الخزينة الأمريكية أو ما شئت شحنت إلى الخارج، يجب ألا نتصور أنها أرسلت عبثًا، أو أن مالكيها أرسلوها هدية إلى البلدان الأجنبية)[١٠].

٦- الكل يكره تقليص الحواجز التجارية، قلصها على أي حال:

يتطلب توسيع نطاق الازدهار والرخاء توسيع نطاق الأسواق. في بدايات الجزء الأول من (ثروة الأمم)، كتب سميث يقول: (لأن قوة التبادل هي التي تمنح الفرصة لتقسيم العمل، كذلك يجب الحد

دومًا من مدى هذا التقسيم بواسطة مدى تلك القوة، أو بكلمات أخرى، بسعة السوق)[١١].

من المؤكد أن الخير الناجم عن التجارة العالمية الحرة قد يصاحبه شر يأتي عبر الحدود. لهذا السبب فإن أي توقع (باستعادة حرية التجارة كلية يعد سخفًا) كما اعتقد سميث. بل إنه لم يقاوم التشدد والتطرف في موضوع التجارة الخارجية: (إن شراء.. بضائع يحتمل استهلاكها من الكسالى الذين لا ينتجون شيئاً، والحرير المستورد.. إلخ، يشجع التبذير والإسراف)[١٢]. ولا ريب في أن استيرادنا السراويل التي تكشف السرة ويستهلكها المراهقون الكسالى يقع ضمن هذه الفئة. من الأفضل التشبث بالنقد العنيف الذي وجهه سميث.

٧- رأس المال البشري – لا يقتصر على حملة الدكتوراه فقط:

إضافة إلى الأسواق الموسعة، يعتمد النمو الاقتصادي على استخدام العمل لرأس المال، أو (المخزون). في بدايات الجزء الثاني، يعدد سميث مختلف أنواع المخزون، ومنها (القدرات المكتسبة والمفيدة للسكان كلهم أو أعضاء المجتمع)[١٣]. وهذه تعادل في أهميتها للتطوير الاقتصادي حسابك الادخاري بالتأكيد، وأكثر أهمية من حسابي. لكن بلغة التخطيط الاقتصادي الحديث، فإن (تشجيع رأس المال البشري) يعني تدخلات حكومية واسعة النطاق

في تعليم كل شخص تستطيع الحكومة الوصول إليه وتدريبه. يضع الرئيس بوش تدخله تحت عنوان (يجب عدم ترك أي طفل). لكن ماذا لو كان الصبي يستحق أن يترك؟ ماذا لو كان يستحق صفعة على قفاه؟

لم يكن آدم سميث مدافعًا متحمسًا عن التعليم الحكومي العام. وحين تابع ليشرح في الجزء الخامس من (ثروة الأمم)، اعتقد أن بعض الإعانات الحكومية للتعليم ضرورية بحيث (يتمكن حتى العامل العادي من الحصول عليه)[١٤]. لكن على الدولة دفع أجور المدرسين (جزئيًّا لا كليًّا). (في العصر الحديث، تفسد الظروف جهد المدرسين في المدارس العامة ودأبهم، مما يجعلهم إلى حد ما منفصلين عن نجاحهم وسمعتهم)[١٥]، مثلما كتب ليجعل عصره الحديث مشابهًا لعصرنا. واعتقد أن بعض المؤسسات التعليمية المرموقة تدرس (مجرد كومة متحذلقة وعديمة النفع من السفسطة والهراء)[١٦]. هل كانت جامعة كاليفورنيا في بيركلي موجودة آنذاك؟(*)

تستهدف البرامج التعليمية للحكومات الحديثة تخريج حشود من المتخصصين البارزين. ولا شك في أن المختصين عنصر مفيد في تقسيم العمل. لكن سميث أراد منا تقدير شيء أكثر من المختص العادي (حتى مع أخذ المنفعة الحدية في الاعتبار) وأثمن منه. وعبر

(*) تأسست عام ١٨٦٨. (المترجم).

تصنيف (القدرات المفيدة) بوصفها رأس مالًا، كان سميث يعود إلى مبدأ طرحه في الجزء الأول للتفكير بتقسيم العمل. يجب أن نمنح كل عامل الاحترام الذي نسبغه على المختص البارز، حتى (الفلاح العادي.. الذي يعد نموذجًا للغباء والجهل)[١٧]. كل عامل هو مختص في ما يريده ويحتاج إليه. والأشد غباء وجهلًا أكثر اختصاصًا. (لم يكن تعليم الصنعة قط ضروريًّا للتأهيل للعمل في الفلاحة)[١٨]، كما كتب سميث. (أو بأسلوب آخر، لا تحتاجِ زراعة الملفوف إلى شهادات عليا ولا منح ولا عبقرية). ومع ذلك، أُلف عدد لا يحصى من الكتب المتخصصة عن الزراعة، كما أشار سميث. (من هذه الأسفار كلها نحاول عبثًا جمع تلك المعرفة عن عملياتها المتنوعة والمعقدة التي يمتلكها أي مزارع عادي؛ فكم يثير مشاعر الازدراء أن يدعي مؤلفو بعضها، الجديرون بالازدراء، الحديث عنه)[١٩].

قبل بضع سنين، ساد اعتقاد بأن (الفلاح العادي) في الصين لا يعد من رأس المال البشري. لكنه يعد اليوم أقوى قوة اقتصادية (وعضلية) في العالم. ولا يعود السبب إلى أن مليارًا من الفلاحين الصينيين نالوا شهادات عليا في إدارة الأعمال.

في عام ١٩٤٤، نشر فريدريك هايك(*) (الطريق إلى القنانة)، ثاني أهم كتاب عن الاقتصاد في التاريخ. كرس هايك إدانته للتخطيط الاقتصادي لـ (الاشتراكيين من الأحزاب كلها). وفي

(*) (١٨٩٩-١٩٩٢): اقتصادي بريطاني (ولد في النمسا)، نال جائزة نوبل عام ١٩٧٤. (المترجم).

فصل بعنوان (حتمية التخطيط)، كتب يقول: (من المستبعد وجود عالم أشد صعوبة على الاحتمال – وأكثر تهورًا ولاعقلانية – من ذلك الذي يسمح فيه لأبرز المختصين في كل مجال بالسعي لتحقيق أفكارهم الخيالية دون ضوابط)[٢٠].

حذرنا آدم سميث وفريدريك هايك من النظام التعليمي المدهش في كوريا الجنوبية، والسماح للعالم وو سوك هوانغ بالمضي قدمًا دون ضوابط في تجارب الاستنساخ المزيفة على الخلايا الجذعية للجنين البشري(*).

٨- اشتر بالتجزئة:

كان آدم سميث واحدًا من قلة من المفكرين المتعمقين الذين دافعوا عن تجارة التجزئة. كتب يقول: (لو لم يوجد تاجر كاللحام (القصاب) مثلاً، لاضطر كل شخص لشراء ثور كامل أو خروف كامل في كل مرة. وهذا غير مناسب عمومًا للأغنياء، ومتعذر على الفقراء)[٢١]. وسيكون من الصعوبة بمكان، حتى على عائلة ثرية تملك مجمدة حديثة، شراء ثور بكامله وحفظه فيها.

ومع ذلك، هنالك شعور عام وشائع بالنفور من تجارة التجزئة. الأرستقراطيون يرتعبون من ممارستها (باستثناء العسكر الذين يمارسون تجارة ذبح البشر). والبرجوازيون يخافون

(*) في عام ٢٠٠٤، أعلن فريق من الباحثين الكوريين بقيادة وو سوك هوانغ في جامعة سيول أنهم استنسخوا أجنة بشرية قادرة على بلوغ مرحلة (الكيسة الأريمية)، (الانغراس في جدار الرحم)، ونجحوا في استخلاص خلايا جذعية من أحد الأجنة. (المترجم).

من القبض عليهم متلبسين بممارستها من قبل مستبدين من أمثال ستالين. صحيح أن (المتاجر العائلية)، و(المتجر المحلي القريب على زاوية الشارع) تمتدح أحيانًا، لكن تذم المتاجر التي تبيع كل شيء. في أرياف نيوإنغلند حيث أعيش، يعمل المحافظون الحمقى المنادون بعدم تغيير ملامح الطبيعة، الذين يريدون تحويل كل متجر إلى هري للحبوب، على رص الصفوف مع الليبراليين البله المطالبين بالعودة إلى الطبيعة، ويعتقدون بضرورة حماية الحفر التي تمتلئ بالماء في الطرقات السريعة بوصفها من المستنقعات الحاشدة بالحياة البرية. وأكدوا معًا على ضرورة الاكتفاء بفروع (وال - مارت) التي لا يبعد أقربها أكثر من ساعة بالسيارة. كتب سميث: (لا تستند الأحكام المسبقة لبعض الكتاب السياسيين وتحيزهم ضد أصحاب المتاجر والتجار إلى أساس من الصحة. فلن يتضاعف عددهم إلى حد إلحاق الضرر بعامة الناس، على الرغم من إمكانية أن يلحق أحدهم الأذى بالآخر). يريد العدو الحكيم لسلسلة متاجر (وال - مارت) فرعًا في البلدة – وواحدًا بجواره لسلسلة (تارجيت).

٩- الحياة الحديثة متخمة بالضغوط، والانشغال بهموم العمل والمعيشة، والهوس بالعثور على وظائف – اعمل على إبقائها على هذه الحال:

لا تسقط في فخ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، حيث لكل شخص (الحق في الراحة ووقت الفراغ). كتب سميث: (كان أسلافنا

كسالى بسبب الافتقار إلى التشجيع الكافي للجد والكد. فمن الأفضل، كما يقول المثل السائر، اللهو دون مقابل من العمل دون مقابل) [٢٢]. وما تسلى به أجدادنا لم يزد عن (مطاردة الساحرات)، و(قتل اليهود)، و(إرسال الأبناء إلى الحملات الصليبية الصبيانية).

لحياة العمل والكسب مزايا تفتقدها حياة إنفاق ما كسبه الآخرون. تبدو الحياة عبثية في (مكاتب العمل المكعبة الشكل)، لكنها ليست على الدرجة ذاتها من عبثية التجول والتسكع في مراكز التسوق. ولشرح هذه الحقيقة المهمة، يقارن سميث المدن التي تسيطر فيها الحكومة على النشاط التجاري مع تلك التي يحظى فيها الربح بالأولوية على الاعتبارات الشخصية. (في تلك البلدات التي تتلقى الدعم بصورة مستمرة أو متقطعة من أهل البلاط (انظر جورج بوش أو توني بلير)، وحيث تعتمد الشرائح الدنيا من الناس على إنفاق الريع، تكون الحياة عمومًا كسولة، وفاسقة، وفقيرة) [٢٣]. كسولة وفاسقة في لندن، وفقيرة في واشنطن. وبالمقابل، فإن (البلدات التجارية والصناعية، حيث تعتمد الشرائح الدنيا من الناس على استخدام رأس المال، تعيش عموماً حياة اجتهاد وجدية وازدهار) [٢٤]. وبالطبع، فإن المثال النموذجي تجسده مدينة غوانغ جو الصينية.

١٠- لا تضع مالك في خزانة آمنة:

وإذا لم تتمكن من التفكير في مكان أفضل لحفظ مالك، انفقه. كتب سميث: (كل من يفهم المعرفة الشائعة سوف يسعى لاستخدام

كل مـا تحت تصرفه من مخزون إمـا للاستمتاع بالحاضر أو الربح في المستقبـل)[٢٥]. وفي الحقيقة، كما أضـاف، فإن (المجنون وحده مـن لا يستخـدم كل ما تحت تصرفه من مخـزون، بغض النظر هل امتلكه أم اقترضه من الآخرين، عند وجود درجة معقولة من الأمان والضمـان)[٢٦]. لكن، كما تابع سميـث: (في تلك البلدان المنكودة.. حيـث الناس في حالة خـوف مستمرة مـن عنف رؤسائهـم، فإنهم كثيرًا ما يدفنون جزءًا كبيرًا من مخزونهم أو يخفونه)[٢٧].

المهوَّس بالبقاء والنجاة يخبئ المؤونة في بيته، والمنكود المتقاعد يشـتري الذهب الـذي تروج لـه الإعلانـات التلفزيونيـة، والوحيد المنعـزل يجمع الحبـال، وورق القصدير، وقطع العملـة من فئة ربع الـدولار الفضـي الذي يعـود إلى ما قبـل عـام ١٩٦٥ – لكن هؤلاء جميعًا أقـل جنونًا من الأنظمة السياسية والاقتصادية التي تجعلهم يظنـون أنهم بحاجة إلى ذلك كلـه. وعبارة (حالة الخوف المستمرة مـن عنف رؤسائهـم) ليست قوية بمـا يكفي لوصـف معاناة الذين اختبروا تدقيق مصلحة ضريبة الدخل (IRS).

١١- اصنع حالة من التشوش حول العولمة:

يمكـن حساب تعقيد الاقتصـاد رياضيًّا: اكتب المعادلة الجبرية التـي تمثـل القلـب البشـري واضربهـا بعـدد سـكان العـالم. لقد أثبـت سميـث، في تعليقه علـى المزارعين، بقصـد أو دون قصد، أن

الاقتصاد علم غير قابل للفهم. وما يفعله الفلاحون الجهلة في مخازن الحبوب والزرائب أمر مستغلق على الفهم تمامًا. وحيرة الاقتصاديين اليائسة تجسد أفضل أمل للإبقاء علينا في حالة من التواضع والإذعان حين تصيبنا بالحيرة والذهول. فإذا اعتقدنا أن لدينا نظرية لفك خيوط الكتلة الاقتصادية المتشابكة، سنكون مثل هريرة تلعب بكرة من الصوف – تتحول إلى هريرة مدمرة إذا أردنا ربط الآخرين بتلك الخيوط وإغراقهم في بئر المثالية.

إن خطر محاولة استخلاص سياسة اقتصادية محددة من نظرية اقتصادية عامة حجة أخرى أثبتها سميث، بأسلوب جعله يذعن ويتواضع. إذ تناول في آخر عشر صفحات تقريبًا من الجزء الثاني ما يمكن أن نسميه العولمة. وبدا الرجل الذي ابتدع الاقتصاد الحديث مشوشًا ومرتبكًا مثل أي خبير حديث يعالج الموضوع.

بدأ سميث بمديح يشبه مديح الخمير الحمر(*) للزراعة، فهي (الأكثر فائدة للمجتمع من بين الطرق كلها التي يمكن عبرها توظيف رأس المال)[٢٨]. تبع ذلك سوء فهم للسوق الرأسمالية العالمية: (يجب وضع رأس مال المصنِّع دون أي شك حيث تجري عملية التصنيع)[٢٩]. صحح سميث – جزئيًّا - سوء الفهم هذا في الجملة الأولى من الفقرة اللاحقة: (ليس من المهم كثيرًا هل يكون

(*) الحزب الشيوعي الكمبودي الذي استولى على السلطة أثناء الحرب الأهلية عام ١٩٧٥، وحكم البلاد إلى عام ١٩٧٩. (المترجم).

التاجر، الذي يصدر رأسماله فائض إنتاج أي مجتمع، محليًّا أم أجنبيّاً)[٣٠]. ثم يتبين في الفقرة التي أتت بعدها أنه أساء الفهم وأحسن الفهم في وقت واحد: (الأهم أن يوضع رأس مال المصنِّع داخل البلد.. ربما يكون مفيدًا جدًّا للبلد، مع أن من غير الضروري وضعه داخله)[٣١].

خرج سميث من حالة الحيرة والارتباك فيما يتعلق برأس المال المحلي والدولي بما يكفي ليفضح حماقة المخططين الاقتصاديين لتطوير البلاد الذين يظنون أن الاكتفاء الذاتي في الزراعة، والتصنيع، والنقل، هو الطريق إلى الازدهار والرخاء: (لكن المحاولة غير الناضجة ودون رأس مال كاف للقيام بالنشاطات الثلاثة كلها، ليست بالتأكيد أقصر الطرق)[٣٢]. لكن سميث لا يعلم أن الولايات المتحدة سرعان ما ستجسد مثالًا مناقضًا. كتب سميث: (حين سيتوقف الأمريكيون عن استيراد المصنوعات الأوروبية، ومن ثم يمنحون مواطنيهم احتكار تصنيع سلع مثل.. فسوف يعيقون بدلًا من أن يسرعوا مزيدًا من الزيادة في قيمة إنتاجهم السنوي)[٣٣].

على مدى السنوات المئة والخمسين اللاحقة، سوف تفرض أمريكا تعريفات جمركية على السلع الأجنبية المصنعة بمعدلات راوحت بين المرتفعة جدًّا والأكثر ارتفاعًا. وبالطبع، ستصبح أمريكا الاستثناء الذي يثبت القاعدة عبر استخدام السوق المحلي الحر والواسع. كذلك فإن التفكير في أن سميث أصاب فيما يتعلق

بتأثيرات السياسة الحمائية الأمريكية يخيفنا أكثر من الظن بأنه أخطأ. لنأخذ في الاعتبار أن أمريكا بلغت درجة من الغنى في خمسينيات القرن التاسع عشر مشابهة لما هي عليه الآن – حيث لم يوجد ما تنفق عليه المال سوى استيراد مزيد من العبيد، والثياب المسايرة للموضة السائدة، وسياط الخيل، والمسدسات.

بعد أن أبهم سميث منفعة رأس المال وتدفقه واستخدامه، وتركنا في حالة من الحيرة والارتباك والتشوش، غرق في بحر من الغموض فيما يتعلق بمعدل العائد على الاستثمار: (لكن عوائد التجارة الخارجية للاستهلاك نادرًا ما تكون سريعة مثل عوائد التجارة المحلية)[٣٤]. وعبر التشديد على قيمة الربح السريع، قدم سميث البينة المضادة لحجته المدافعة عن الزراعة. فجني المال من الزراعة يشبه بالضبط مشاهدة العشب ينمو. كان سميث يقترب أيضًا من نظرية (معدل دوران المال)، التي سيعرضها جون مينارد كينز بالتفصيل في ثلاثينيات القرن العشرين، والتي لم يفهمها أحد قط، كما استنتج كينز نفسه.

اختتم سميث هذا الحديث عن العولمة بملاحظة على الإبداع البشري في ممارسة حرية السوق التي جعلت كل شيء كتبه عن رأس المال دون معنى: (نحن نرى كل يوم ثروات رائعة اكتسبت في مجرى عمر واحد عبر التجارة والصناعة، من رأس مال زهيد غالبًا، ومن دونه أحياناً)[٣٥].

١٢- تجاهل الخبراء عموماً:

كتب سميث: (لا تمر خمس سنين دون نشر كتاب أو كراس.. يزعم إظهار أن ثروة الأمة تتراجع وتنحسر بسرعة)[٣٦].

١٣- تجاهل الاقتصاديين خصوصاً:

إن معرفة شيء عن الاقتصاد لا يغير حقيقة أنه علم غير قابل للفهم. ولا يمكن للاقتصاديين التفوق في التنبؤ بالمستقبل على جينيفر آنيستون ودونالد رامسفيلد فيما يتعلق ببراد بيت والعراق!!

من الممكن إثبات حقيقة أن آدم سميث عرف تقريبًا كل شيء أمكن معرفته عن الاقتصاد في أواخر القرن الثامن عشر، لكنه فشل في التنبؤ بأهمية (الشركات المساهمة). لم يعتقد خبراء الرأسمالية المحنكون ومرشدوها الناصحون أن المؤسسة المحورية للرأسمالية الحديثة يمكن أن تعمل بنجاح. وصف سميث الشركات المساهمة بأنها (رأسمال ضخم مقسم بين عدد هائل من الملاك)[٣٧]. وكتب يقول: (لذلك، من الطبيعي توقع أن يسود الحمق والإهمال والإسراف في إدارة شؤونها برمتها)[٣٨]. وكما تبين بالطبع، كان سميث أكثر صوابًا مما يحب المستثمرون في الأسهم العادية.

والأهم في هذا السياق أن سميث أخفق في توقع الثورة الصناعية، مع أنه كان صديقًا لمخترع المحرك البخاري، جيمس واط. ساعد سميث واط في العثور على مكان عمل في جامعة غلاسكو بعد أن

رفضت نقابة المصنوعات المعدنية السماح له بافتتاح متجر في المدينة (وفعلت كل ما بوسعها لإثبات صحة فرضية سميث، بواسطة مثال سلبي، عن حريات السوق). تعرف سميث بجيمس واط في لقاءات نادي غلاسكو، وحين كان يكتب (ثروة الأمم)، استثمر في آلة صناعية طورها واط. إضافة إلى أنه قدر تمامًا عبقرية واط ونبوغه. كتب في مسودة مبكرة لـ (ثروة الأمم) يقول: (لا يمكن إلا لفيلسوف حقيقي اختراع المحرك الناري)[٣٩] (استخدم سميث تعبير /fire engine/ للإشارة إلى المحرك البخاري، الذي يعني بالإنجليزية /عربة المطافئ/، مما يستدعي إلى ذهن القارئ - الإنجليزي - رجالًا يضعون خوذًا، ويمدون خراطيم المياه لإطفاء حريق. لكن من العدل الاعتراف بدقة التعبير).

لم يتوقع سميث الثورة الصناعية لسبب بسيط اعتقد أنه حدث فعلًا. فقد أكد أن هناك ثلاث طرق لزيادة (الإنتاج السنوي) (= الناتج المحلي الإجمالي) للأمة. يمكن تنامي عدد السكان، الذي لا يؤثر كثيرًا في حصة الفرد منه. ويمكن تطوير تقسيم العمل، المقيد بحدود واضحة (أي أستطيع كتابة الأفعال والأسماء، وأوكل أحدهم بكتابة الظروف والصفات، وأستخدم عاملاً زهيد الأجر لإدخال حروف الجر وحروف العطف). أما الطريقة الثالثة لزيادة الناتج المحلي الإجمالي فهي (بعض الإضافة والتطوير لتلك الآلات والأدوات التي تسهل العمل وتختصره)[٤٠]. شعر سميث بأن هذا المنهج الأخير بدهي وجلي ومهم إلى حد أنه لا يستدعي الشرح والتفصيل. في

الفصل الأول من الجزء الأول من (ثروة الأمم)، كتب يقول: (يجب أن يدرك الجميع مدى تسهيل العمل واختصاره عند استخدام الآلات المناسبة. وليس من الضروري تقديم أي مثال)(٤١).

ما أخطأ سميث في تخمينه لم يكن الطبيعة النوعية للثورة الصناعية، بل طبيعتها الكمية الضخمة التي تكتسح العالم. عارض الادعاءات التنبؤية للتخطيط الاقتصادي، وأثبت صواب رأيه في فشله في لعب دور العراف الاقتصادي.

يجب تذكر حقيقة ضياع بعض الحروف من (لوحة ويجا)(*) التي عمل عليها سميث حين نسمع الخبراء المتعصبين يتباهون بثورة الكمبيوتر. فربما تتجاوز نتائجها ما نتوقعه بعشر مرات (أي تقارب نسبة ارتفاع دخل الفرد الأوروبي من الناتج المحلي الإجمالي بين عشرينيات القرن التاسع عشر وتسعينيات القرن العشرين). أو ربما تكون ثورة الكمبيوتر قد استكملت وانتهت، ويمكن تذكرها بوصفها على الأغلب حقبة اعتقد فيها أفراد يضعون نظارات لا تساير الموضة، ويلبسون سراويل جينز عريضة لا تناسب مقاسهم، وقمصانًا خفيفة كتب عليها (غوغل)، أنها تستحق التأريخ.



(*) لوحة (سحرية) عليها حروف ومؤشرات تجيب عن أسئلة مطروحة، ويزعم أن لها قوى غيبية. (المترجم).

٧

(ثروة الأمم)، الجزء الثالث:
(في اختلاف زيادة الوفرة والثراء باختلاف الأمم)
وكيف تحدث بفضل حماقة الأقوياء

عبر أول جزأين من (ثروة الأمم) عن عقيدة آدم سميث المتعلقة بالتقدم الاقتصادي. لم يؤمن سميث بالرأي القائل إن الإنسان صالح بطبعه، بل بمنطق الحس البدهي السليم. مطلوب منا الاهتمام بأنفسنا. ونحن نعمل وفقًا لهذا المطلب. من السهولة بمكان إظهار منفعة أفعالنا للآخرين. الاقتصاد يتقدم، هذا هو المطلوب إثباته. أو سيتقدم (إذا لم تحبط المؤسسات البشرية تلك الميول والنزعات الطبيعية)، كما كتب سميث[1].

ليس الجزء الثالث من (ثروة الأمم) سوى استقصاء سميث للمؤسسات التي تحبط الميول والنزعات الطبيعية، وكيف يمكن منعها من ذلك. لكن العنوان مضلل. إذ يقارن سميث الوفرة والثراء في أزمنة مختلفة، لا في أمكنة مختلفة، في (كبسولة) التاريخ

الاقتصادي لأوروبا الغربية منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى نهاية عصر الإقطاع. وربما يضم هذا الموجز، الذي يشرح موضوعه الرئيس على مدى أكثر بقليل من ثلاثين صفحة، ألمع تحليلات سميث وأذكاها (وأكثرها بلاغة بالتأكيد).

يحظى تمييزه الألمعي الذي يفرق بين الأسباب والنتائج بأهمية خاصة بالنسبة لنا، نحن الوارثين المحظوظين للتقدم الاقتصادي في أوروبا الغربية. الحظ نادر دائمًا، لكن امتلاك آلية للتمتع بالحظ السعيد أمر لم نسمع به من قبل. وقراءة الجزء الثالث تشبه امتلاك تعويذة سحرية تساعدنا على التقاط الأسهم الرابحة في صحيفة وول ستريت جورنال.

يمكن مقارنة ما حدث للمقاطعات الرومانية في أوروبا في القرن الخامس الميلادي بغزو زوجات أعضاء المجالس المحلية الذي وصفه سميث في (نظرية العواطف الأخلاقية). فقد كان البرابرة (.. سبب كل الفوضى والاضطراب والفوران، وكل النهب والسلب والظلم)[٢].

كتب سميث يقول إن (عمليات السلب والنهب والعنف التي مارسها البرابرة) تركت أوروبا الغربية (غارقة في أسوأ حالة من الفقر)[٣]. دمرت التجارة، وهجر السكان بلداتهم، وتركت الحقول دون حراثة. لكن على الرغم مما رافق ذلك من سقوط حكم القانون وحقوق الملكية القانونية، لم تكن النتيجة: (تخيل

وضعًا من دون ملكية وأملاك/ هل تستطيع؟). (لم يترك شيئا في الإمبراطورية الرومانية المدمرة دون مالك)، كما ذكرنا سميث[٤]. ولم يملأ فراغ السلطة لا أفكار الأوثان والرموز الشعبية المشوشة، ولا آراء النقابيين المتطرفين الفوضويين. بل سلطة أشد قوة وسوءًا. فقد كان الزعماء القبليون الذين اغتصبوا أوروبا الغربية على درجة من ضيق الأفق والوحشية يجعلان ميخائيل باكونين(*) يبدو لين العريكة أنيس المعشر مثل الأزواج من أعضاء المجلس المحلي!!

لم يحاول زعماء القبائل البربرية الاستيلاء على الأراضي ليغتنوا، فقد كانوا أغنياء أصلًا. فالتسوق سهل وميسر بصحبة عصبة كبيرة من المسلحين، على الرغم من عدم وجود كثير من السلع الصالحة للتسوق في العصور المظلمة. ما فعله ملاك الأراضي البرابرة كان توزيع إنتاج أملاكهم على الناس.

لم يفعلوا ذلك بدافع الكرم. بل لأنهم طمعوا في سلطة أخرى. كتب سميث يقول: (نظرًا لأن مالك الأرض الواسعة لا يحتاج إلى شيء يبادل مقابله الجزء الأعظم من إنتاج أراضيه.. فهو يستهلكه كله بطريقة سخية وريفية)[٥]. لم يكن ذلك يعني إقامة حفلات ترفيه وتسلية ولا منافسات ومبارزات كتلك التي شاعت في القرون الوسطى. بل إطعام قطاع الطرق وإعالة العصابات. وكلما زاد عدد المجرمين وقطاع الطرق الذين يطعمهم زعيم القبيلة تعاظمت قوته.

(*) (١٨١٤-١٨٧٦): فوضوي وكاتب روسي. (المترجم).

ففي عصر وليام روفوس، ابن وليام الفاتح، كما أشار سميث، لم تكن قاعة ويستمنستر تضم البرلمان؛ بل قاعة طعام. (عُدّت الأرض أداة، لا مجرد وسيلة للبقاء والعيش. أداة للقوة والحماية..[٦] إذ تدفقت السلطة من ملكية الأرض)[٧].

كانت مساواة ملكية الأرض بالسلطة مفهومًا سارع اليساريون إلى تبنيه والاستفادة منه. لكن الرأسمالية هي التي وسعت تعريف ملكية الأرض وأضعفت المساواة بينهما. فقد انحصرت السلطة في سلعة محدودة. وهنالك قدر محدود من السلطة بسبب محدودية الأراضي. وأي سلطة أستولي عليها لا بد أن آخذها منك حين أغتصب باحتك الخلفية. وعبر تحويل السلطة إلى مال بدلًا من أملاك عقارية، جعلت الرأسمالية السلطة غير محدودة، وبدأت عملية فصل السلطة الاقتصادية عن السلطة الساعية إلى الهيمنة على إخواننا البشر: (الشخص الذي يمتلك ثروة ضخمة، أو ينجح في جمعها، لا يكتسب بالضرورة ولا ينجح لزومًا في التمتع بأي سلطة سياسية)[٨]. الاشتراكيون هم الذين سيتحولون إلى أسياد إقطاعيين جدد، إلى لصوص وقطاع طرق متحصنين بقلاعهم. ويعيدون مصدر السلطة/ القوة إلى سلعة محدودة ممثلة بالسياسة. إن أي سلطة أملكها هي سلطة أستولي عليها منك حين أزوِّر الانتخابات.

أصبح الإقطاع مضغة في كل فم، كلمة نستخدمها لتحقير أي نوع نكرهه على وجه الخصوص من السلطة الاستبدادية. لكن آدم

سميث اتخذ موقفاً معادياً للنظام الإقطاعي اعتمد على المعرفة السياسية المباشرة. فحين كان شابّاً يدرس في كلية باليول بجامعة أكسفورد، انتفضت العشائر الإقطاعية في مرتفعات شمال اسكتلندا مع تمرد اليعاقبة الذي اندلع عام ١٧٤٥. ثم تحول الشخصي إلى سياسي، كما يحدث الآن. كان الطلاب الإنجليز في باليول من اليعاقبة ومن المتعصبين المعادين للاسكتلنديين. كان سميث اسكتلنديًّا ومناهضًا لليعاقبة.

لم تجرح مشاعر سميث في الكلية فقط، بل هدد متمردو المرتفعات مسقط رأسه (كيركالدي)، وابتزوا المال من مواطني البلدة، ومنهم والدة سميث. اجتاح المتمردون غلاسكو، حيث ذهب سميث ليدرس في الجامعة. وقاد صديقه، الكاتب المسرحي جون هوم، عصبة من الطلاب المتطوعين في محاولة فاشلة لإبعاد الغزاة عن إدنبرة.

وصف صديق آخر، القس الليبرالي التابع للكنيسة المشيخية، الكسندر كارليل، متمردي المرتفعات الاسكتلندية الذين احتلوا إدنبرة (بالقِصر والقذارة، والمظهر الحقير الجدير بالازدراء)(٩). يمكن أن ينطبق الوصف على النبلاء الإقطاعيين في أوروبا الغربية كلها، من عصر ألريك(*) إلى العصر الذي بدأ فيه الأرستقراطيون الزواج من نجمات السينما الأمريكية. يصح الوصف أكثر حين

(*) (٣٧٠-٤١٠ م): ملك القوط الذي احتل روما عام ٤١٠. (المترجم).

يشير (القِصر) إلى المزاجية ومدى الانتباه، و(القذارة) إلى الأخلاق، و(المظهر الحقير الجدير بالازدراء) إلى حقيقة ظهور النبلاء الإقطاعيين في أوروبا الغربية بالتأكيد.

كره سميث النظام الوراثي البكوري والتوريث المحتبس(*) اللذين أبقيا على الأملاك الإقطاعية دون تقسيم. إذ حظر النبلاء على أنفسهم بيع الأراضي أو التنازل عنها، والتزموا توريثها إلى وريث واحد. فعلوا ذلك، كما كتب سميث (اعتمادًا على أكثر الافتراضات سخفاً.. الجيل اللاحق لا يملك حقّاً متساوياً في الأرض، وكل ما عليها)[١٠]. وأتاحت القيود المفروضة على نقل الملكية للنبلاء التأكد من اعتماد حياة الجميع عليهم، على الطبقة السياسية لدولة الرفاه والرعاية في ذلك العصر.

ثمة سبب آخر تمثل في ضرورة منع الناس العاديين من أصحاب الأملاك العقارية الصغيرة المطلقة من تحقيق الاكتفاء الذاتي. كان المزارعون الملاك أفضل أداء في الزراعة من التعثر بلباس الميدان ودروعه المصفحة. كتب سميث: (من النادر أن يكون كبار الملاك من كبار المصلحين)[١١]. وظهرت الحاجة إلى النظام الوراثي البكوري والتوريث المحتبس لمنع الفلاحين من الهيمنة الاقتصادية. ولاحظ سميث أن الطبقة الحاكمة انشغلت عن الإنتاج. (في عصور الاضطراب التي ولدت فيها هذه المؤسسات البربرية، كان كبار الملاك مشغولين بهاجس الدفاع عن أراضيهم، أو توسيع مناطق نفوذهم

(*) حصر الملكية المستقبلية للعقارات في ذرية محددة، عبر تعليمات تضاف إلى الوصية. (المترجم).

وصلاحياتهم)[١٢]. وحين لم تكن الطبقة الحاكمة منشغلة كثيرًا، عانت العجز وانعدام الكفاءة. كتب سميث: (يتطلب تحسين الأرض بأرباحها انتباهًا دقيقًا للمدخرات الصغيرة والأرباح الزهيدة، ومن النادر أن يقدر على ذلك من ورث ثروة ضخمة)[١٣]. دع السفلة يتملكون الأراضي، وسرعان ما تتمكن عاملة المزرعة الوضيعة، بقطعة أرضها الطينية وبقراتها الخمس، من التفوق على شارلمان في عدد قطاع الطرق الذين تطعمهم.

عبر سميث عن غضبه على (وجوب تقييد أملاك الجيل الحاضر وتنظيمها وفقًا للمشيئة اللاعقلانية لأولئك الذين ماتوا قبل خمسمئة سنة)[١٤]. وهو غضب وجهه أيضًا إلى طبقة الأغنياء من ملاك الأراضي في زمنه. ويمكن أن يوجه اليوم إلى الناشطين في حملات الحفاظ على النظام البيئي الذين يقولون لنا إننا (لا نملك) الأرض فعلاً، لأنها (تعود لأجيال المستقبل) – أي يجب تقييد الملكية وتنظيمها وفقًا للمشيئة اللاعقلانية لأولئك الذين لم يولدوا بعد! ربما قصدت جين أوستن في روايتها (كبرياء وهوى) أن تنطق السيدة بينيت الحمقاء بحكمة غير مقصودة: (لا أحد يعرف ما يحصل للأملاك حالما تصبح من الميراث المحتبس)[١٥].

يسهل تخيل كيف سارت الحياة في العقارات والضياع في العصر الإقطاعي - أو رؤيتها رأي العين حين نقوم (برحلة مغامرة) إلى بعض الأماكن في إفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية. في العصور

المظلمة، كان الكل مثل العمال الأطفال في مصانع الأحذية المطاطية في غواتيمالا (لكن دون أحذية). (كانوا جميعًا من العبيد، بالمعنى الكلي أو التقريبي)، كما كتب سميث[١٦]. والعبيد لا يملكون حقوق الملكية الخاصة. لكن عبيد عصر الإقطاع لم يملكوا حتى الحق في أن يكونوا من أملاك السادة. (فمن المفترض أن يتبعوا بصورة مباشرة الأرض لا السادة)[١٧]. إذ إن للسادة على الأقل مصلحة شخصية في رعاية عبيدهم. وهذه غابت عن النبلاء الإقطاعيين. ونتيجة لذلك، لم تغل أرض النبلاء كثيرًا. (إذا كان من النادر أن نتوقع من ملاك الأرض الكبار إدخال تحسينات كبيرة، فعلى الأقل يمكن توقعها حين يستخدمون العبيد عمالًا)[١٨].

هنا، يغتنم سميث الفرصة ليقدم حجته الاقتصادية ضد العبودية: (أعتقد أن تجربة العصور والأمم كلها تظهر أن العمل الذي ينجز بواسطة العبيد، مع أنه لا يكلف سوى إعالتهم، هو في نهاية المطاف الأكثر تكلفة. فمن لا يستطيع حيازة أملاك، لن يكون له أي اهتمام سوى الأكل إلى أقصى حد، والعمل بأقل جهد)[١٩]. لن يكون ذلك شعارًا مرغوبًا لدى مناهضي العبودية. لكن الحساب المجرد أكثر فائدة للجنس البشري من وليام ويلبرفورس(*)، أو هارييت بيتشر ستو(**)، أو جون براون(***).

(*) (١٧٥٩-١٨٣٣): رجل دولة وكاتب بريطاني، اشتهر بأعمال الخير والإحسان. (المترجم)

(**) (١٨١١-١٨٩٦): روائية أمريكية مناهضة للرق (أشهر رواياتها (كوخ العم توم)/١٨٥٢). (المترجم).

(***) (١٨٠٠-١٨٥٩): ناشط أمريكي مناهض للرق، قاد هجومًا على ترسانة أسلحة في هاربر فيري (بغرض تحفيز العبيد على الثورة)، لكنه أسر، وحوكم بتهمة الخيانة العظمى، وشنق. (المترجم).

ربما مال الأقنان في النظام الإقطاعي إلى الكسل والأكل (إن وجدوا ما يؤكل)، لكنهم لم يكونوا حمقى. فقد استفادوا من برنامج النبلاء المحموم والمتخم بعمليات السلب والنهب والعنف للحفاظ على بعض التجارة مستمرة على حسابهم. فضلاً عن ذلك، كانت بعض التجارة ضرورية حتى لأكثر أساليب العيش انحطاطًا وبدائية.

وحين عجز النبلاء عن وقف التجارة، وضعوا خطة حمائية مخادعة. كتب سميث: (في تلك الأيام، كان من النادر توفير الحماية دون تعويضات مالية باهظة)[٢٠]. وفي هذه الأيام أيضًا. ومن ثم، (فرضت ضرائب على الأشخاص وبضائع المسافرين)[٢١]. كان الأقنان يتعرضون للتفتيش والابتزاز حين يعبرون أرض النبيل، أو يمرون فوق جسره، أو ينقلون حمولة من البضائع إلى السوق، أو ينصبون كشكًا للمتاجرة. ووفقًا لسميث، أطلق على هذه الإتاوات والرسوم الظالمة أسماء مثل: (رسم مرور، ورسم عبور، ورسم بيع على الطريق..)[٢٢]، ولا ريب في أنها من ابتكار مؤسسة قانونية حاذقة.

أوشك النبلاء على الإفلاس بسبب هذا العدد الضخم من المجرمين وقطاع الطرق الذين كان عليهم إعالتهم وإطعامهم. ولم يمض وقت طويل قبل أن يعرف الأقنان أن النبلاء فضلوا الحصول على مبلغ مالي دفعة واحدة على ابتزاز المال بطريقة مخادعة عشوائية من الباعة المتجولين الذين لا يمكن التنبؤ بمكان وزمان العثور عليهم. وكانوا على الأرجح أكثر ذكاء منهم في حساب فائدة

هذه الضريبة الموحدة. إذ لم تقطع أصابعهم (الضرورية للعد) في مبارزات السيوف.

عُرف التجار الذين دفعوا مبالغ مالية محددة لأصحاب النفوذ والسلطة، ومن ثم تحرروا من ربقة التعريفات والرسوم الجمركية الهامشية، باسم (التجار الأحرار)، أو (تجار البلدات)، لأنهم تاجروا في أسواق البلدات والقرى. ثم نمت هذه الأسواق وكثر التجار إلى حد التجمع معًا في جماعات وفرق – لا لتحدي النبلاء ولكن لرشوتهم بطريقة أكثر فعالية. ثم شكلوا مجموعات. وضمنت المجموعة للسيد الإقطاعي تلقي إتاوة من كل تاجر، في وقت واحد، فارتفع المبلغ وزاد (بعد حسم رسوم النقل بالطبع). وسوف تتولى المجموعة مهمة جمع المال الصعبة والمرهقة. وهذا ما أتاح للسادة الإقطاعيين مزيدًا من الوقت للقتال.

وعبر تولي تجار البلدات مهمة جباية الضرائب المفروضة عليهم بأنفسهم، تمكنوا من النجاة من زيارات وكلاء الملاك الذين يجمعون الرشى والإتاوات، وغير ذلك من تدخلات السادة الإقطاعيين. وبالمال والاحتيال، كما أكد سميث، بدأ التجار يكتسبون قدرًا من التحكم بشؤونهم مكنهم من (عرض بناتهم للزواج، وتعيين أبنائهم ورثة لهم، ونقل ممتلكاتهم إلى من يريدون في وصيتهم.. وهكذا نزعت عنهم السمات المميزة الرئيسة التي تسم السفلة والعبيد، وأصبحوا الآن.. أحرارًا تمامًا بالمعنى الراهن لكلمة حرية)[٢٣].

يتبين لنا أن مجموعات التجار الأثرياء، أو الشركات الثرية، لم تفسد حقوق الملكية الخاصة بل كانت مصدرًا لها. وعلى الرغم من أن الحرية قد تكون حقًّا إنسانيًّا موروثًا، إلا أننا نعلم من أين حصلنا على حريتنا فعلًا. لقد اشتريناها.

أما بالنسبة للثمن الذي دفعناه، فقد كان بخسًا. إذ إن الحريات التي اشتراها تجار البلدات من الحكام الإقطاعيين مُنحت شموليًّا تقريبًا، لا مقابل نسبة مئوية من تجارة التجار الأحرار، بل مقابل ثمن سنوي ثابت يدفع بالذهب. لم يفهم المتحدرون من نسل النبلاء الإقطاعيين البرابرة (بما يتصفون به من قصر وقذارة!) النمو الاقتصادي أو التضخم. لم يفهموا شيئًا سوى العنف. يمكننا أن نستشعر رضا سميث وارتياحه.

> **لكن يجب أن يبدو من الغريب أن يبادل ملوك بلدان أوروبا المختلفة بهذه الطريقة، مقابل مبلغ ثابت، لن يزداد، ذلك الفرع من عائداتهم، المرجح أن يتحسن ويزداد مع المجرى الطبيعي للأمور، دون أي تكلفة أو انتباه من جانبهم[٢٤].**

الميل لممارسة التجارة والنجاح فيها ابتكار من ابتكارات الطبقة الوسطى. لم يكن ذلك موجودًا لدى قدماء اليونان والرومان، على الرغم من عبقريتهم ونبوغهم. وإلا لتخلوا عن العمل الإجباري (السخرة) وأعباء الرعاية الصحية والبرامج التقاعدية. وحرروا العبيد، وحولوهم إلى زبائن، ونقلوا (بعقود من الباطن) أداء

الأعمال التي لا تتطلب مهارة إلى آسيا الوسطى وبلاد الغال. أصبح تجار البلدات في القرون الوسطى، إضافة إلى تمتعهم بالحرية فعلًا، أذكياء حقًّا بالمدلول الراهن للكلمة. كتب سميث: (عادات النظام والاقتصاد والانتباه، التي تشكل بواسطتها التجارة بصورة طبيعية التاجر، جعلته أكثر مواءمة لتنفيذ أي مشروع للتطوير والتحسين، بأسلوب ناجح ومربح)[٢٥].

الحكومة الرشيدة ابتكار آخر من ابتكارات الطبقة الوسطى. فقد كان الحس السياسي الفطن ضروريًّا لبقاء البلدات. وشابه تجارها إوزات تضع بيضًا ذهبيًّا للسلطات الإقطاعية، ونعلم كيف انتهت تلك القصة. فلكيلا يحبط سكان البلدات - مجازيًّا - عملوا على الإيقاع بين السلطات الإقطاعية.

لم يسمح آدم سميث لنفسه بالانسياق وراء غواية الدخول في الدغل التاريخي لمعرفة كيف ظهرت الملكية وتوحدت الدول القومية. لكن الغزاة البرابرة تأثروا بالمفهوم الروماني الجليل والمهيب والواسع للإمبراطور. وكان أقوى النبلاء الإقطاعيين يعلنون دائمًا الهيمنة والسيادة على السادة الإقطاعيين الأقل قوة ويزعمون أنهم ملوك على هذه المنطقة أو تلك.

كتب سميث: (احتقر السادة الإقطاعيون التجار، الذين عدوهم.. عصبة من العبيد المعتوقين.. ومن الطبيعي أن يكره التجار السادة ويخشوهم. كما كرههم الملك وخافهم أيضًا؛ لكن.. لم يكن لديه سبب ليكره التجار أو يخشاهم)[٢٦]. فمن ذا الذي يكره

مصدراً للدخل والثروة لا حول له ولا قوة؟ في تلك الأثناء، لم يتأثروا تأثـرًا مباشراً بتنمر الملـك واستئساده، مثلما حصل لهم مع السادة الإقطاعيـين المحليين، ولذلك أحبوا الملك أكـثر. (منفعة متبادلة.. دفعتهـم إلى دعم الملـك، فدعمهم ضـد السـادة الإقطاعيين)[٢٧] (وبقيت صلة جامعة بين سكان المدينة المزدهرة والحكومة المركزية القويـة، تتضـح في الآراء السياسيـة للنخبة الحضريـة. وعلى نحو مشابـه، ما زال تراث العجز يشـكل آراء النخب المدينية فيما يتعلق بمنع حيازة السلاح في أمريكا).

كـي يشتغل التجار بحكمـة سياسية حاذقـة، كان عليهم ابتكار سياستهـم الخاصة بهم. إذ لم تتمكـن البلدات المنقسمة والمتشظية من موازنة الصـراع بين الملك والنبلاء، وسقطـت ضحية للطرفين معًـا. كتب سميـث: (أدخلـت التجـارة والتصنيع النظـام والحكم الرشيـد تدريجيًّا، وأتـت معهما الحريـة والأمن للأفـراد، وسكان البلـد، الذين عاشوا من قبل حالة مستمـرة تقريبًا من الحروب مع جيرانهم، والاتكال الخانع على زعمائهم)[٢٨].

يفترض النقـاد اليساريـون للأسـواق الحرة أن هنـاك جانبًا مخادعًـا في الرأسمالية. وهم على صواب. لقد قمنا بالاحتيال على السلطات الإقطاعية لتمنحنا الحرية، وبقينا أحرارًا عبر الاستمرار في خداعهـا. استخدمنا الغش والتدليس والخداع كي نؤسس مدننا، ونصبـح بورجوازيـين أثرياء، ونزود أنفسنا بوسائـل العيش المريح. تركنا الأرستقراطية البربرية في قلاعها الباردة التي تذروها الريح.

ولم نتوقف قط عن خداع الأرستقراطية النبيلة والاحتيال عليها. فعلنا أسوأ ما يمكن فعله للحمقى والبله؛ أعطيناهم ما أرادوا. استوردت البلدات البضائع المترفة والسلع الكمالية وطورت الفنون والمهن والحرف. اكتشفت الأرستقراطية النبيلة أن من الأفضل إنفاق أموالها على شراء هذه المنتجات بدلًا من تبذيرها على إعالة المجرمين وإطعام قطاع الطرق. فتقلصت ميزانيات المآدب، وانحسر سخاء البربرية وشح كرمها.

قدم آدم سميث الحجة على أن ميل السادة الإقطاعيين إلى الأنانية كان قويًّا إلى حد أنه قهر غريزة البقاء لديهم:

> **يبدو أن الحكمة الشريرة السائدة في كل عصر، وتبناها سادة البشر هي: كل شيء لنا، ولا شيء لسوانا. لذلك، حالما وجدوا طريقة لاستهلاك القيمة الكلية لدخلهم بأنفسهم، لم يميلوا إلى اقتسامها مع أي شخص آخر. فمن أجل إبزيمين بكلتين من الألماس، أو شيء آخر عديم النفع مثلهما، دفعوا.. ثمن إعالة ألف إنسان طوال سنة، ومعه نفوذ السلطة التي يمكنهم التمتع بها. لكن الإبزيمين سيكونان من نصيبهم ولن يشاركهم فيهما أحد؛ في حين أن الطريقة الأقدم عهدًا للتكلفة تفرض عليهم مشاركة هؤلاء الألف على الأقل.. ومن ثم، من أجل إرضاء أكثر دوافع التفاخر والزهو صبيانية وخسة ودناءة، قايضوا بالتدريج قوتهم وسلطتهم[٢٩].**

لا تجـأر بالشكوى مـن حمق المتربعين على عرش السلطة. فهو أفضل سماتهم المتأصلة والموروثة. رأينا في السنوات الأخيرة تشكيلة متنوعـة من الشخصيـات النافـذة تقايض سلطتها مقابـل إرضاء زهوها الصبياني المتبجح. وربمـا سيحين الدور اللاحق على الأسر المالكة المستبدة لتعاني المصير المحتوم الذي وصفه آدم سميث:

بعـد أن باعـوا حقوقهـم الأساسية الموروثـة، لا مثل عيسـو(*)، مقابـل طبق عدس في زمن الجـوع والعسر، بل في زمـن الوفرة واليسر، مقابل بهـارج براقة لا قيمة لها، تناسب لهو الأطفال لا مساعي الرجال الجدية، فأصبحت مكانتهم بأهمية أي تاجر في الريف أو المدينة[٣٠].

كان سقـوط القمـع الإقطاعي ودمـاره، وتأسيس مبـدأ الحكم الذاتي، وظهور (الحرية بالمعنى الراهن للكلمة) - مجرد خدعة. إذ لم يلـق مثاليون من أصحاب الرؤى الحالمة خطبًا حماسية عصماء. ولا قـاد الأبطال الجماهير الهادرة لكسر قيودها. ولم يستشهد أحد في سبيـل القضية. (فأعظم ثـورة مهمة لسعـادة الدهماء حصلت بواسطـة مجموعتين اجتماعيتين مختلفتـين، لم يكن في نيتهما قط خدمة عامة الناس)، كما كتب سميث[٣١].



(*) (١٨١٤-١٨٧٦): فوضوي وكاتب روسي. (المترجم).

٨

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع:
(في أنظمة الاقتصاد السياسي)
آدم سميث يتصدى لتهديد التجارة الصينية

إذا أردنا تقديم سبب عملي وحيد لقراءة (ثروة الأمم)، فيمكن أن نذكره بثلاث كلمات: (التجارة العالمية الحرة). أو، ستكفي بكلمة واحدة: الصين، نظراً لأنها تجسد مثالاً خاصّاً للتجارة العالمية الحرة يدق ناقوس الخطر أكثر من سواه.

يبدو أن التفكير في الصين يستحث التدريب الفكري على مكافحة الحريق الصيني، ويدفع المفكرين من أصحاب الفكر الواضح - لولاه - إلى إرباك أنفسهم بحسابات - أصعب من علم الحساب الصيني - تتعلق بهذا العامل أو ذاك أو غيره، وصلته بسعر الشاي في مكان ما. أدهشتنا الصين وأذهلتنا وحيرتنا منذ (رحلات ماركو بولو). فهي بلاد شاسعة واسعة، حاشدة بالسكان.. وصينية إلى أبعد حد. لم ندرك حتى نهاية القرن الثالث عشر أنها موجودة هناك.

وبالطبع، نحن نتاجر مع الصين، عرفنا أم لم نعرف، منذ عصر الإمبراطورية الرومانية. لكن التجارة مع الصين تبقى مصدرًا للمفاجأة والصدمة. ويبدو أن الصينيين يبيعوننا كل شيء. ولا نكاد نبيعهم شيئًا. الصين تزداد غنى وثراء بسرعة ضارية. فما الذي سيحدث لنا؟

تحتشد المقالات المذعورة عن الميزان التجاري في صحيفة نيويورك تايمز وغيرها. في عام ٢٠٠٥، بدأت أقص هذه المقالات من الصحف وأحشو بها جيوبي فبدوت مثل دمية سوف يحرقها المتظاهرون (وهذا مصير يستحقه أحيانًا الهواة الذين يكتبون عن الاقتصاد).

تزيد واردات الولايات المتحدة كثيراً على صادراتها، والسبب يعود غالبًا إلى التجارة مع الصين. أرى في أي منزل ملصق (صنع في الصين) على كل شيء باستثناء الأطفال والكلاب. ولست واثقًا من الأطفال، فعيونهم بنية وأنوفهم صغيرة!!

في يونيو ٢٠٠٥، بلغ العجز التجاري الأمريكي الربعي ١٩٥ بليون دولار. وزعمت صحيفة نيويورك تايمز أن (الخبر أثار مجددًا المخاوف من أن الاقتصاد لا يستطيع تحمل المستوى المتنامي من حجم الدين العالمي). فاستيراد سلعنا كلها من الصين، باستثناء كلاب الصيد، يعني أن المال الأمريكي يجب أن يرسل إلى الخارج لدفع الفواتير. المال سند تعهد (كمبيالة). والإقرارات الأمريكية

بالديـون تتراكـم وتتكـوم. أشـارت مقالة نيويـورك تايمـز إلى أن (الولايـات المتحـدة تقترض، في الجوهر ١ و٢ بليـون دولار كل يوم لتبقي على الاقتصاد عائمًا).

ليس مهمًّا أن يكـون (عجـز الحسـاب الحـالي) العالمي غير قابـل للمقارنة مـع الدين الخاص. فلن يأتي هـو جينتاو إلى منزلي ليطالبنـي بإعـادة جهاز الـ (دي في دي) لأنني مديـن له بخمسين دولارًا.

لم تمنـع هـذه الحقيقة صحيفة نيويورك تايمـز من العثور على شخصيـات هلوعـة للاستشهـاد بها. فقـد قال ممثل ولايـة داكوتا الشماليـة في مجلس الشيوخ، بايرون دورغـان، إن العجز يصل إلى (مستويات خطرة تضر بمستقبل هذا البلد). وقال عضو الكونغرس عن ولايـة مريلاند، بنجامين كاردين (مستخدمًـا اسمًا مستعارًا لـ "المستقبـل" يطلق جرس إنذار مزيف): (يثـير العجز أسئلة جدية وخطرة حول قدرتنا على التحكم بمصيرنا).

وأعلنـت مقالـة ظهرت في (مجلـة) نيويورك تايمـز (في يونيو ٢٠٠٥ أيضًـا) أن (مستـوى منخفضًـا مـن الهلع من أزمـة الدين، وتأثيرها المحتمـل على الاقتصاد الأمريكي، يـزداد ويرتفع). ونقل عـن رئيس مصرف الاحتياطي الفيـدرالي السابق بول فولكر قوله: (لا أتذكـر شبيهًا بخطورة وصعوبة هـذه الظروف بمجملها). شغل فولكـر منصب رئيـس الاحتياطي الفيـدرالي في عهـد إدارة كارتر

السيئة والمثيرة للحزن. ويبدو أنه نسي ربما مدى عناد روزالين كارتر(*)، وخطورتها وصعوبة التعامل معها.

في افتتاحية لصحيفة واشنطن بوست (فبراير ٢٠٠٥) كتب كبير مراسليها للشؤون الخارجية جيم هوغلاند يقول: (تملك حفنة من البلدان الآسيوية برئاسة الصين قرابة ٧٠٪ من احتياطي النقد الأجنبي في العالم.. وهذا توازن رعب جديد: بمقدور الصين أن تركع الاقتصاد الأمريكي عبر عمليات بيع واسعة النطاق للدولار).

شعر الخبراء المحنكون بالانزعاج مما يحدث للمال الأمريكي، وما يحدث للمال الصيني أيضًا. ويبدو أن الصينيين يلحون بإصرار على أن تكون عملتهم، اليوان، أقل قيمة مما تؤكده أي نظرية أسعار شائعة الآن. لاحظت نيويورك تايمز أن (الذين ينتقدون الصين يتهمونها بتحديد سعر أقل لليوان من قيمته الحقيقية.. مما يمنح المصنعين الصينيين ميزة تنافسية غير عادلة).

وذكر عضوا مجلس الشيوخ تشارلز شومر وليندسي غراهام في افتتاحية نشرتها صحيفة نيويورك تايمز (أو ربما كتبها مساعدون مختصون في التغيرات المفاجئة للعلوم السياسية) أننا (نتيجة الإحباط من فشل الصين في اتباع الأسلوب النزيه في التجارة الحرة، عرضنا تشريعًا يفرض تعريفات جمركية على صادرات

(*) زوجة الرئيس الأمريكي التاسع والثلاثين (١٩٧٧-١٩٨١)، التي أصبحت شريكاً أساسيّاً في كل مرحلة من مراحل حياته، بدءاً بزراعة الفول السوداني، وانتهاء بالسياسة. (المترجم).

الصين إلى الولايات المتحدة إذا استمرت بيجين في الإبقاء على قيمة عملتها، اليوان، منخفضة عمداً مقابل الدولار).

فيما يتعلق بالتجارة الحرة، لا يمكن للبلدان الأخرى أن تخفض عملتها كثيرًا. الأمر يشبه الذهاب إلى وكيل عقاري في لوس أنجلوس لإبلاغه بأن (هناك منزلًا في بيفرلي هيلز سعره خمسة ملايين دولار. لكن البائعين سيقبلون خمسة ملايين بيزو مكسيكي).

حتى قراءة سريعة لـ (ثروة الأمم) سوف تهدئ من روع شومر وغراهام وهوغلاند، وبقيتهم. أو ربما لن تستطيع. فهؤلاء أعضاء في المؤسسة الأمريكية. وكان آدم سميث ناشطاً مناهضاً للمؤسسة الرسمية – وتهديداً داهماً لما تتمتع به من سلطة ومزايا. حاول سميث تحسين الوضع الاقتصادي للناس العاديين. وهذا مشروع هدام، مثلما أظهر الجزء الثالث من (ثروة الأمم) الذي تناول دمار النظام الإقطاعي. وتمثل جزء مهم من محاولة سميث الهدامة في دحض التفكير الميركانتيلي في عصره وتفكير (نيويورك تايمز)، لو استطاع رؤية المستقبل.

في الجزء الرابع من (ثروة الأمم)، كرس سميث لدحض الميركانتيليين وإسكاتهم المساحة ذاتها التي خصصها في الجزء الأول لعرض مبادئه الأساسية فيما يتعلق بتقسيم العمل وحرية التجارة دون قيود. ودفعه هجومه على المؤسسة الميركانتيلية إلى مراجعة بعض من حججه السابقة. فقد أعاد تطبيق المنطق على

موضوعات مثل الإعانات الحكومية الداعمة للصناعة المحلية: (التجارة التي لا يمكن أن تستمر إلا عن طريق المكافآت التشجيعية هي تجارة خاسرة بالضرورة)[١]. كما عرض أمثلة إضافية تثبت أن قيمة المال قيمة ذاتية، تحسبًا لفشل هيئة تحرير نيويورك تايمز في القرن الثامن عشر في فهم الأمثلة الأولى. حاول سميث جعل هذه التوكيدات المكررة مهمة لقرائه الأكثر ذكاء وإدراكًا. وفيما يتعلق بتقدير قيمة العملة، روى سميث الحكاية الآتية:

ظل الاستقصاء الأول للأسبان، بعد مرور بعض الوقت على اكتشاف أمريكا، مقتصرًا على سؤال: هل يمكن العثور على الذهب والفضة في الجوار؟.. يقول بلانو كاربينو، وهو راهب أرسله ملك فرنسا سفيرًا إلى أحد أبناء جنكيز خان الشهير، إن التتار اعتادوا سؤاله مرارًا هل يوجد وفرة من الخراف والثيران في فرنسا؟ استهدف سؤالهم الغرض ذاته الذي استهدفه سؤال الأسبان. فقد أرادوا معرفة هل البلاد غنية إلى حد تستحق فتحها. إذ تعد قطعان الماشية لدى التتار.. أدوات التجارة ومقاييس القيمة. لذلك، تتألف الثروة وفقًا لهم من قطعان الماشية، مثلما تتألف بالنسبة للأسبان من الذهب والفضة. وربما تكون فكرة التتار هي الأقرب إلى الصواب[٢].

لم يتمكن الميركانتيليون قط من إقناع أنفسهم بأن المال المخبأ في جيوبهم ليس هو المقياس الحقيقي للثروة. ولم يستطيعوا رؤية أن

(البضائع يمكن أن تخدم كثيرًا من الأغراض الأخرى فضلًا عن قدرتها المالية الشرائية، في حين لا يمكن للمال أن يخدم أي غرض آخر سوى شراء البضائع)، على حد تعبير سميث[٣].

لا بد أن يسبب المال الخارج من البلد مشكلة بغض النظر عن حجم السلع الإلكترونية الاستهلاكية، الجيدة الصنع والرخيصة السعر، التي تدخل إليه. (صحيح أن التجارة الخارجية تغني البلد، كما أظهرت التجربة، لكن لم يعرف أحد منهم الميركانتيليين تماماً كيف أو بأي أسلوب)، كما كتب سميث[٤].

اعتقد الميركانتيليون أن من الضروري تشريع السعي وراء الميزان التجاري الإيجابي، بفائض حسابه الراهن، أو تحسينه حسب رأي عضوي الكونغرس شومر وغراهام. ألا يعني ذلك أن سميث انتصر وأفحم في جدله. هنالك كثير من الأشياء الممتعة التي يمكن قراءتها في الجزء الرابع من (ثروة الأمم)، لكن الأمتع تجاوزها، لأن سميث يستحث بمهمازه حصانًا ميتًا. إلا أن ما ينطبق على أمريكا الآن هو (ليلة الأحصنة الميتة الحية).

(لا يوجد بلد تجاري في أوروبا لم يتنبأ فيه المحللون بالخراب القادم.. من الميزان التجاري الخاسر)، مثلما كتب سميث[٥]، ليجعل الأخبار الواردة في نيويورك تايمز وواشنطن بوست قديمة و(بائتة) في الواقع. أضاف: (لا شيء أكثر سخفًا من مبدأ الميزان التجاري برمته)[٦]. وكما أوضح من قبل، فإن التجارة التي تمارس

بحرية متوازنــة بالتعريف. والتعريف لا يتغير لأن تاجرًا حصل على جهاز آي بود، وحصل آخر على كمبيالة.

دعونـا نعترف جـدلًا بأن مراكمـة ديون ضخمـة للحصول على أجهـزة آي بود الصغـيرة أمر سيئ. لكن الأسوأ عـدم فعل أي شيء حيال ذلك. إن فرض الحكومة قيودًا على التجارة يعني التخلي عن حريتنا. نحن نتنازل عن مهارة صنع القرار إلى (مهارة ذلك الكائن المؤذي والمخادع، المدعو باللغة المبتذلة رجل الدولة أو السياسي، الذي توجه مشوراته التقلباتُ اللحظية للأوضاع)، حسب تعبير سميث[٧]. وكتب عن أولئك الذين يدعون في اللغة المبتذلة بهذا الاسم:

يدعـي رجـل الدولـة الذي يحـاول توجيـه الناس (في القطاع الخاص) إلى الطريقة التي يجب توظيف رؤوس أموالهم عبرها.. سلطة مرجعية لا يمكن الوثوق بها لا مـن قبـل الأشخاص فقـط، بل مـن أي مجلس أو جمعية تشريعية من أي نوع، ولا يوجد ما هو أخطر من وضـع السلطة في يدي رجل بلـغ به الحمق والقِحة حد التوهم أنه مؤهل لممارستها[٨].

فضــلًا عن ذلك كله، قـدم سميث الحجة علـى أن هذا الكائن المؤذي والمخادع يضطهد الناس ويقمعهم أيضًا:

إن منع الحاذقين والأذكياء.. من فعل كل ما يمكن أن يفعلوه بكل جزء من إنتاجهم، أو من استخدام بضاعتهم

وصناعتهم وجهدهم بالطريقة التي يجدونها أكثر فائدة لهم.. هو انتهاك فاضح لأقدس حقوق البشر[٩].

إذا كان الصينيون، في هذه اللحظة، (شعب حاذق ذكي)، فما الخطأ في ذلك؟ تنبأ آدم سميث بالقدرة الصناعية الصينية (حتى وإن فشل في التنبؤ بالثورة الصناعية): (وبالتوسع في الاستقصاء، نجد أن من الطبيعي أن يتعلم الصينيون فن استخدام الآلات المستعملة في البلدان الأخرى وصنعها)[١٠]. لكن في عصر سميث، تمثلت المشكلة في مفكريهم المتعمقين، لا في مفكرينا. كتب سميث: (لا يحترم الصينيون كثيرًا التجارة الخارجية. أنتم وتجارتكم الهزيلة!! هي العبارة التي استخدمها المسؤولون الصينيون في بكين حين تحدثوا مع المبعوث الروسي السيد دي لانغ)[١١] (يبدو أنهم تمكنوا من إقناعه. فما زالت التجارة الروسية هزيلة في كل شيء باستثناء النفط، والغاز، والرؤوس النووية المسروقة).

ازدرى سميث رد الفعل التجاري المؤذي: (هؤلاء العمال.. الذين عانوا حظر جيراننا، لن يستفيدوا من حظرنا ردًّا عليهم. بل على العكس، سوف يلزمون، هم والطبقات الأخرى من مواطنينا، بدفع سعر أعلى من ذي قبل لبعض البضائع)[١٢].

وبيّن كذب الزعم القائل إن التعريفات الجمركية تحمي العمال العاديين: (إن فرض ضريبة جديدة عليهم.. ولأنهم يدفعون أصلًا

ثمنًا باهظًا للحصول على ضروريات الحياة، ومن ثم جعلهم يدفعون أيضًا ثمنًا مرتفعًا مقابل الجزء الأكبر من السلع الأخرى، سيمثل أسخف الطرق لإصلاح وضعهم)[١٣].

وفيما يتعلق بتدفق مالنا كله إلى الخارج، أظهر سميث في الجزء الثاني من (ثروة الأمم) لماذا لا يلحق ذلك الأذى بالاقتصاد: (علينا ألا نتصور أنه أرسل إلى الخارج دون سبب)[١٤]. وكان يشير إلى سبائك الذهب. فللذهب دومًا بعض القيمة، على الأقل في الذكرى السنوية للزفاف إن أردت حياة هادئة. والمال الأمريكي الذي يذهب إلى الصينيين هو عملة غير قابلة للتحويل إلى ذهب، ويمكن تحويلها إلى أوراق مهملة تلقى في سلة المهملات أي وقت. ولا ينصح بالهدايا من هذا الورق حتى في الذكرى السنوية الأولى.

عبر مراكمة الدولارات والسندات الدولارية، تشتري الصين ديننا. أعلن سميث أن (المجنون وحده من لا يستخدم كل ما تحت تصرفه من مخزون، بغض النظر هل امتلكه أم اقترضه، عند وجود درجة معقولة من الأمان والضمان). وإذا اعتقد الأمريكيون أنهم يستخدمون رأس المال الموجود تحت تصرفهم كله (بالطريقة التي يجدونها أكثر فائدة لهم)، فسيكون من الجنون رفض القبول بالدين.

من الواضح أن الصينيين واثقون من أن المال الأمريكي لن يتحول إلى نفاية. وواثقون أيضًا من أن الأمريكيين يحسنون

استخدام رأس المال، وإلا لما أقرضوه لنا. وفي الحقيقة، يبدو أن ثقة العالم برمته بأمريكا تفوق ثقته بالصين. وليس ثمة تعجل في مراكمة الدين الصيني. وشركة (سميث بارني للسمسرة) لا تستحثك على شراء اليوان.

يبدو أن الكل يثق بأمريكا باستثناء صناع الرأي العام الأمريكي. إذ يشعرون بالقلق من.. في الواقع، لا أستطيع أن أعرف من قصاصات الصحف المذعورة ما السبب الدقيق بالضبط.

إذا بقي الدولار يحتفظ بقيمته الثمينة، سيبقى هذا العجز التجاري المريع. لكن إن تحول إلى نفاية لا قيمة لها، فربما يريد الصينيون شيئًا أكثر أهمية وقيمة مقابل ما يرسلونه إلينا. ربما ينبغي علينا إعطاؤهم المقاتلة (المتسللة) لنحصل على هاتف خلوي جديد مقابلها!

لو كان آدم سميث حيًّا يرزق لطلب منا أن نستفيد من عبرة حكاية اليابان في ثمانينيات القرن العشرين. فقد ظل اليابانيون يصدرون إلينا أجهزة الراديو، والتلفزيون، والمسجلات، والسيارات، وداومنا على إعطائهم المال بالمقابل. ولم يرغبوا في شيء من صنع أمريكا باستثناء أشرطة (كاسيت) أغاني مايكل جاكسون، ولم نكن نصنع حتى تلك (الكاسيتات). ومن ثم، قرروا شراء أمريكا ذاتها. ابتاعوا عمارات المكاتب، وملاعب الغولف، والفنادق. ورفعوا أسعار العقارات الأمريكية إلى أن أصاب الفقاعة ما يصيب الفقاعات

عـادة. وبحلول التسعينيات، امتلك الأمريكيـون كل أجهزة الراديو، والتلفزيـون، والمسجلات، والسيارات، وعمـارات المكاتب، وملاعب الغولف، والفنادق، ومعها المال أيضًا.

ربما سيكون الصينيون أكثر نجاحًا من اليابانيين في محاولتهم لإفقارنـا عبر إعطائنـا منتجاتهم. لكننا أحـرار في رفض العرض. وليسـت لديهم وسيلة لإكراهنا على القبـول بتجارتهم. إذ لم يشنوا حربًا علينا، مثلما شن البريطانيون حروب الأفيون عليهم، لإجبارنا على القبول بمنتجاتهم وفقًا لشروطهم (مع أن أحدهم خاض حرب أفيون معنا، مثلما نستدل مما يجري في أحياء الفقر الأمريكية).

أكـد سميـث أن الحرب أفضـل ذريعة للميركانتيليـين لتقليص الـواردات والحد من الديـن الخارجي. وربما يكـون عجز الحساب الحـالي لا معنى له من الناحية الاقتصادية، (إلا أنه يصبح مؤثرًا، كمـا يعتقدون، في البلدان.. المجبرة على خوض الحروب الخارجية، والاحتفـاظ بأساطيل وجيوش في البلـدان البعيدة. ولا يمكن القيام بذلـك، كما يقولون، إلا بإرسال المـال إلى الخارج لإنفاقه عليها؛ ولا يمكـن لأمة أن ترسل كثيرًا من المال إلى الخـارج، إلا إذا كان لديها ما يكفي منه في الداخل)[١٥].

تمثلـت السياسـة الميركانتيلية في (وضع قيود علـى الاستيراد، وتشجيع الصـادرات)[١٦]. لكـن إذا طبقنا هـذه السياسة، فسوف نفعـل بأمتنا وقت السلم ما نفعله بالعـدو وقت الحرب. فنحن نقيد

واردات العدو زمن الحرب عبر المقاطعة والحصار، ونشجعه على تصدير القنابل وطلقات الرصاص وقذائف المدفعية.

لا يبدو أن مهاجمة الأنا والآخر في الوقت ذاته طريقة ناجحة لإدارة الحرب. ولم أعرف أن بعض الأعضاء في مجلس الشيوخ الأمريكي خططوا لشن حرب على الصين. مع أن ذلك لن يشكل مفاجأة بالنسبة لي. ففي إشارة إلى القوتين العظميين في القرن الثامن عشر، بريطانيا وفرنسا، كتب سميث يقول: (لأنهما جارتان، لا بد أن تكونا بالضرورة عدوتين)[١٧]. وفي هذه الأيام، نحن جيران كلنا في القرية الكونية العالمية.

اعتقد سميث أن على الأمة (النظر إلى غنى جيرانها بوصفه سببًا ممكنًا وفرصة سانحة لها لاكتساب الثروة)[١٨]. لكنه لم يعتقد أن هذا الموقف يمكن أن يترسخ:

> **صممت كل أمة كي تنظر بعين الحسد إلى ازدهار جميع الأمم الأخرى التي تتاجر معها ورخائها، وتعد مكاسبها خسائر لها. والتجارة بين الأمم التي يجب أن تشكل، مثل التجارة بين الأفراد، رابطة طبيعية من الاتحاد والصداقة، أصبحت أخصب المصادر للخلاف والعداء[١٩].**

إذًا، ربما ينتهي المطاف بنا إلى نزاع مسلح مع الصين - حروب البضائع الإلكترونية الاستهلاكية، حيث تبحر الزوارق الحربية في

بحـيرات مراكز التسوق. لكـن حتى في حالة انـدلاع الحرب، يجب ألا نقلـق من امتـلاك الصينيين مالنا كله. كتـب سميث: (لا تعتمد الأساطيـل والجيوش في تمويلها على الذهب والفضة، بل على السلع الاستهلاكيـة)[٢٠]. لا، لا! يجـب أن نقلـق. فالصينيـون هـم الذين يصنعـون سلعنـا الاستهلاكية كلهـا. والميزان التجـاري الذي يميل لمصلحتهم دمر بنيتنا التحتية الصناعية. ليس لدينا مصانع وعمال مهرة لخوض حرب كبرى.

ومـع ذلـك كله، فـإن أمريـكا، لحظة كتابـة هـذه الصفحات، تخوض حربًا علـى أي حال. وتبين أنها حرب كبرى. لكن الحوامات الأمريكية القتالية لا تتجمع في مقاطعة غوانغدونغ.

تعتمـد القـوة العسكريـة علـى النجـاح الاقتصـادي. ويرتكـز النجـاح الاقتصادي على الحرية. كتب سميث: (لا يمكن لأي تنظيم للتجـارة أن يزيد حجـم الصناعة الكمـي في أي مجتمع.. بل يحول جـزءًا منه باتجاه ما كان يجـب لولاه أن يسير إليـه)[٢١]. واعتمادًا علـى الرأسماليـة، فإن تلك الصناعة ستتخذ تلـك الوجهة لو كانت ستحقق مزيدًا من النجاح الاقتصادي هناك. يجب أن يسكت شومر وغراهـام. إذ إن أهـم توصيـات آدم سميث فيما يتعلـق بالسياسة العموميـة لتحقيق النجاح الاقتصادي هي: (يجـب على القانون أن يعهـد إلى النـاس بمسؤولية الاهتمـام بمصالحهـم.. لأنهم عمومًا أقدر على الحكم عليها وتقديرها من المشرع)[٢٢].

أعلن سميث أن الميزان التجاري السلبي لا يبطل صحة تلك القاعدة: (قد تستورد الأمة قيمة أكبر من صادراتها طوال نصف قرن.. وحتى الديون التي تراكمت عليها في التجارة مع الأمم الرئيسة الأخرى قد تزداد بالتدريج؛ ومع ذلك فإن ثروتها الحقيقية، القيمة القابلة للتبادل للإنتاج السنوي لأراضيها وعملها وجهدها، ربما تزداد أثناء المدة ذاتها بنسبة أكبر بكثير)[٢٣].

ربما يفاجأ الميركانتيليون الجدد في أمريكا بالمثال الذي استخدمه سميث لإثبات حجته:

قد تجسد حالة مستعمراتنا في أمريكا الشمالية، والتجارة التي تمارسها مع بريطانيا العظمى، قبل بدء الاضطرابات الحالية، دليلاً يثبت أن هذا الافتراض ليس مستحيلاً[٢٤].

في عام ١٧٧٦، كانت بريطانيا أقوى أمة على وجه الأرض. والسبب بسيط، كما كتب سميث: (الأمان الذي منحته القوانين في بريطانيا العظمى لكل بريطاني وحقه في التمتع بثمار جهده وعمله، سبب كاف وحده لجعل أي بلد يزدهر)[٢٥]. إن القيود المفروضة على هذا الحق - ومنها القيود على الحق في التمتع بقضاء عطلة نهاية الأسبوع متكئًا على أريكة وثيرة وبيدك جهاز التحكم عن بعد أمام شاشة تلفزيون (بلازما) من صنع الصين - لا تعزز الازدهار.

في عـام ١٧٧٦، بلغـت بريطانيـا درجة مـن القـوة بحيث تعذر قهرهـا إلا من شعـب مصمم علـى وضع قوانين تمنحـه مزيدًا من الأمان والحق في الاستمتاع بكل الثمار التي يمكنه أكلها.



٩

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع (تابع): آدم سميث مقابل المنظرين الأيديولوجيين حين كانوا في مرحلة الطفولة البريئة

لم يمثل الميركانتيليون هدف سميث الوحيد. إذ يضم الجزء الرابع من (ثروة الأمم) أيضًا هجومًا مهذبًا (لكن ليس مهذبًا جدًّا) على الاقتصاديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر(*). كان سميث صديقًا لأعضاء المدرسة الاقتصادية الفرنسية. وأعجب بمؤسسها، طبيب البلاط، فرانسوا كيناي، إلى حد أنه نوى إهداءه كتاب (ثروة الأمم). لكن كيناي توفي قبل وقت قصير من موعد النشر. وربما كان ذلك أفضل نظرًا لما قاله عن الاقتصاديين الفرنسيين فيه. عبر سميث أيضًا عن احترامه لقدرات أشهر اثنين من تلامذة كيناي، آن - روبر - جاك تيرغو، الذي شغل منصب

(*) أتباع المدرسة الاقتصادية الفرنسية في القرن الثامن عشر، الذين عملوا على تطبيق المنهج العلمي على الاقتصاد، وعارضوا النظرية الميركانتيلية السائدة، وأكدوا أن الحرية الاقتصادية تؤدي إلى إقامة أكثر المجتمعات ازدهاراً وتمسكاً بالفضيلة. (المترجم).

المفتش المالي للملك لويس السادس عشر، وبيير - صمويل دو بونت دي نيمور، الذي أصبح مستشارًا اقتصاديًّا للحكومة إلى أن اتهم بأنه لم يكن راديكاليًّا بما يكفي.

كانت مبادئ الاقتصاديين الفرنسيين مقصرة في راديكاليتها إلى حد أنها تبدو، لأول وهلة، مشابهة لمبادئ الجمهوريين في النوادي الريفية أو المحافظين البسطاء المتصفين بضيق الأفق. إذ اعتقدوا بالملكية الخاصة، والحد الأدنى من التدخل الحكومي، وعدم التدخل البيروقراطي. نحت أحد مبشريهم الرواد، فينسنت دي غورناي - يوحنا معمدان مذهبهم الفكري - تعبير (حرية العمل) (laissez-fair) . احترم الاقتصاديون الفرنسيون القانون. وحين كان لويس السادس عشر وليًّا للعهد، نصحه كيناي بأن (لا يفعل شيئًا، بل يترك القانون يأخذ مجراه) حين يصبح ملكًا. وكانت نصيحة محزنة نظرًا للقوانين التي سيصدرها اليعاقبة. لكن، مرة أخرى، حافظ الاقتصاديون الفرنسيون على شكوكهم في الديمقراطية الشعبية.

أشار الاقتصاديون الفرنسيون إلى أنفسهم باسم (الاقتصاديين)، وكانوا من أوائل طلاب الاقتصاد الذين يدعون هذا الشرف. فقط كان (الاقتصادي) يعني إلى ذلك الوقت الحصيف في التوفير البارع في الادخار والتقتير. وكانوا أيضًا أول من صاغ نظرية اقتصادية متماسكة. وافق آدم سميث على جميع

الاستنتاجات والاستقراءات الاقتصادية التي توصلوا إليها. وعلى كل ما يتعلق بالنظرية، باستثناء النظرية نفسها.

بالغ (الاقتصاديون) في تطبيق التفكير المنطقي على مفاهيم العمل (الإنتاجي) و(غير الإنتاجي). وكان التمييز بين الاثنين سخيفًا في تحليل آدم سميث اللاحق والأكثر ترويًا وعمقًا، لكنهم تهوسوا بالموضوع. وأقنعوا أنفسهم، حسب ما أوجز سميث، بأن (عمل الحرفيين والمصنعين لا يضيف أي شيء إلى قيمة الحجم السنوي الإجمالي للإنتاج الخام للأرض)، وأن (المخزن الميركانتيلي مجدب وغير منتج)[١]. ومن أجل زيادة ثروة الأمة، تمثل الزراعة وحدها العامل المهم. لكنهم قرروا أن التعدين/التنقيب عامل مساعد أيضًا. ولذلك جعلوا التنقيب جزءًا من الزراعة، كأنما بمقدور الفلاحين الفرنسيين الذين يحرثون الأرض لزراعة اللفت، أن يحفروا أعمق قليلًا للحصول على فلزات الحديد والفحم!

في رأي (الاقتصاديين)، تعد الحرف والمهن غير الزراعية (عقيمة)، لكنها في الوقت نفسه (مفيدة). ولم يقترحوا تقييد التجارة أو التصنيع. واعتقدوا، حسب سميث مرة أخرى، أن (من المستحيل أن يكون في مصلحة الملاك والمزارعين منع حرفة التجار، والمهنيين، والمصنعين، أو إحباطها بأي طريقة)[٢]. ومن ثم أدركوا أهمية التجارة والتصنيع، لكنهم لم يعترفوا بها. وهذا ما وضعهم في مستوى فهم الميركانتيليين نفسه، الذين أدركوا أن (التجارة

الخارجية تغني البلد، كما أظهرت التجربة، لكن لم يعرف أحد منهم تمامًا كيف أو بأي أسلوب).

دحض سميث نظرية الميركانتيليين على مدى عدة صفحات مملة. وربما أمكنه توفير المشقة على نفسه بكلمة واحدة مختارة بعناية. لكن (الهراء) لم يكن كلمة حشو شائعة قبل بدايات القرن العشرين.

لكن هناك شيء آخر لدى (الاقتصاديين) أقلق سميث وأزعجه، فضلًا عن حقيقة أنهم أخطأوا. فقد اعتقد أن الاقتصاد يتشكل بطبيعة الإنسان. في حين اعتقد (الاقتصاديون) أن طبيعة الإنسان تتشكل بواسطة الاقتصاد. وظنوا أن البلدان التجارية والمصنعة يمكن أن تغتني بالاقتصاد وحده، بالمدلول القديم للكلمة - تجميع الدخل وادخاره لإنتاج مزيد من رأس المال - في حين تغتني البلدان الزراعية بزراعة مزيد من الغذاء، ليزداد كل مواطن بدانة وسعادة دونما حاجة إلى التجميع والادخار. فصل سميث تفكير (الاقتصاديين):

لذلك، يمكن للأمم، مثل فرنسا أو إنجلترا، التي تضم كثيرًا من الملاك والمزارعين أن تغتني بالصناعة والإنفاق. وعلى العكس، فإن أممًا مثل هولندا وهامبورغ، تتألف غالبًا من التجار والحرفيين والمصنعين، لا يمكن أن تغتني إلا عبر الادخار والتقتير والحرمان من

ضروريات الحيـاة. ومع اختلاف مصالح الأمم وظروفها إلى هـذا الحد، تختلـف الشخصية المشتركـة لشعوبها. في بلدان النوع الأول، تشكل الحرية والانفتاح والأخوة بـين الموطنـين جـزءًا من تلـك الشخصيـة المشتركة. في النـوع الثـاني، يشكلهـا ضيـق الأفـق، والبخـل، والميـول الأنانية، المعارضة للمسرات والمتع الاجتماعية كلها[٣].

الفقرة السابقة مثال نادر على سخرية آدم سميث المبطنة. فهو اسكتلنـدي، وما تمتعت بـه اسكتلندا من ازدهار دانـت بفضله إلى التجار، والحرفيين، والمصنعـين. وشابهت مناطقها الزراعية كلها، في التجهم والسمات الإقطاعية، ما كانت عليه الحال أثناء انتفاضة عشائر المرتفعـات الشمالية (Highlands). عاش سميث في إنجلترا ست سنين ليدرس في أكسفورد. ولا يمكن وصف تجربته بأنها ممتعة ومبهجة علـى الصعيد الاجتماعي. جسدت فرنسا مشهدًا للحرمان والاستبـداد والمؤامـرات السريـة، وكانـت حاشـدة بالانقسامـات والروابـط المفككـة التـي أدت إلى الثـورة الفرنسيـة. في حين مثلت هولندا وهامبـورغ أغنى المناطق في أوروبا، التـي سكنتها طبقة من البورجوازية المرتاحة اشتهرت بعيشها الرغيد الهانئ.

رأي سميـث أن (الاقتصاديـين) حاصـروا أنفسهـم حصـارًا خانقـًا بالمثالية فيما يتعلق بمصلحتهم ومصلحة الآخرين. ووفقًا له (في مثال ثـان على السخرية المبطنة)، اعتقـد (الاقتصاديون) أن

(إقامة عدالة كاملة، وحرية تامة، هي السر البسيط الذي يضمن بأكثر الطرق فعالية وتأثيرًا أعلى درجة من الرخاء والازدهار)[٤]. لكن (إذا لم تتمكن الأمة من تحقيق الازدهار دون التمتع بالحرية الكاملة والعدالة التامة، لما استطاعت أي أمة في العالم قاطبة تحقيق الازدهار)، كما كتب[٥].

تعامل المحللون مع آدم سميث دومًا، مثله مثل (الاقتصاديين)، وكأنه صاحب نظرية اقتصادية. هنالك العديد من النظريات في (ثروة الأمم)، لكنه لم يضم منظومة نظرية أراد سميث وضعها باستثناء (النظام الواضح والبسيط للحرية الطبيعية الذي يؤسس نفسه بنفسه)[٦].

لم يكتف (الاقتصاديون) بتبني نظام نظري فقط، بل عدوه، بالطريقة التي عد الماركسيون فيما بعد الماركسية، جوهريًّا وأساسيًّا. استشهد سميث بتلميذ آخر من تلاميذ كيناي، المركيز دو ميرابو، فيما يتعلق (بالابتكارات الثلاثة العظيمة التي منحت أساسًا الاستقرار للمجتمعات السياسية)[٧]. وهذه، كما عددها المركيز، هي الكتابة، والمال، ولوحة كيناي الاقتصادية.

تمثل خطر الأنظمة النظرية (والأيديولوجية) في شيء تصدى له سميث في نظريته الخاصة في الجزء السادس من (نظرية العواطف الأخلاقية). كتب هذا القسم من الكتاب في الواقع بعد (ثروة الأمم). إذ نشر كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) في

عام ١٧٥٩ حين كان سميث يدرس في جامعة غلاسكو. لكنه نقحه عام ١٧٨٩. بحلول ذلك الوقت كان قد التقى بـ (الاقتصاديين) وعرف نظامهم المتعلق بالاقتصاد السياسي. في الجزء السادس المعنون (في طبيعة الفضيلة)، حدد سميث شر الأنظمة السياسية - عبر الموضوع العظيم للعواطف الأخلاقية - في الافتقار إلى الخيال. فابتداع نظام سياسي نظري يتطلب الخيال فعلًا، لكن هناك، حسبما حاجج، جانب لا علاقة له بالمخيلة عند وضعه موضع التطبيق العملي:

> **في بعض الأحيان، نبدو، وفقًا لمعنى معين من روح النظام، كأننا نقدر قيمة الوسيلة أكثر من الغاية، ونتشوق لتشجيع السعادة بين إخواننا البشر، بدلًا من تكميل نظام بديع ومرتب وتحسينه، دون أي إحساس أو شعور مباشر بما يعانونه أو يستمتعون به[٨].**

يمكن للمنظرين، كما كتب سميث، أن (يثملوا بالجمال المتخيل لهذا النظام المثالي)[٩]، إلى أن تفسد (تلك الروح العامة المؤسسة على حب الإنسانية)[١٠] بروح النظام الذي (يهيجها حتى إلى درجة جنون التطرف والتعصب)[١١].

اتصف (الاقتصاديون) بالاعتدال، وصفاء النية، والرغبة في المساعدة، والبعد عن التسبب في أي ضرر. لكن غرست في تربة نظامهم المتكلف المغالي في المنهجية، وفي فكرتهم القائمة على قدرة

الأنظمة المصطنعة والمتكلفة على تغيير البشر، بذور مئة مليون جريمة وجريمة. وستؤدي عقائدهم الحمقاء حول الأرض الزراعية إلى الفظائع الاستعمارية التي ارتكبت في الحقبة الفيكتورية (١٨٤٠-١٩٠٠ تقريباً)، وتساعد مجهود قيصر ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، والفوهرر في الثانية، وتدمير ستالين لأوكرانيا، وتجويع ماو للصين. في القرنين اللاحقين على ظهور (الاقتصاديين)، سيتجاوز عدد القتلى نتيجة تجاوزات النظرية وغلوها ضحايا تجاوزات اللاهوت وغلوائه في القرون السابقة كلها (من الجدير بالذكر في هذا السياق أن ابن المركيز الاقتصادي المعتدل كان خطيب الثورة الفرنسية المفوه وصاحب المزاج الناري الشهير، ميرابو).

قبل أن يجرب العالم الحكم الشمولي التوتاليتاري، عبر سميث بحسه المستقبلي عن ازدرائه واحتقاره:

> **يميل رجل النظام.. إلى الخيلاء والغرور؛ وكثيرًا ما تسحره خطته المثالية للحكم بحيث يعجز عن الانحراف ولو قليلًا عن أي جزء منها.. ويبدو أنه يتخيل أن باستطاعته ترتيب الأعضاء المختلفين في المجتمع الواسع بالسهولة التي ترتب بها اليد وتحرك القطع المختلفة على لوح الشطرنج[١٢].**

يبدو أن الأسلاك الشائكة مطلوبة دومًا للحفاظ على أحجار الشطرنج في مربعاتها!

كثيرًا ما يُقرأ الجزء السادس من (نظرية العواطف..) بوصفه إشارة إلى مشرعي الدستور في الجمعية العامة أثناء الأيام المبكرة من الثورة الفرنسية، لا إلى (الاقتصاديين). فقد أدى ممثلو الشعب القسم في ملعب التنس في ٢٠ يونيو ١٧٨٩[*]. ومن المفترض أن تنقيحات كتاب (نظرية العواطف..) قد أرسلت إلى الناشر في الشهر نفسه. وبافتراض أن سميث تأخر في استكمال المخطوط، مثلما يفعل المؤلفون أحيانًا، توفر وقت كاف للاعتقاد بصحة القراءتين كلتيهما للجزء السادس.

لكن إذا كان سميث ينتقد الثورة الفرنسية، إلا أنه لم يعلم قط مدى صوابية انتقاده. فقد توفي في يوليو ١٧٩٠، قبل أن يقطع رأسا الملك والملكة بالمقصلة (١٧٩٢)، ويبدأ عصر الإرهاب (مارس ١٧٩٣- يوليو ١٧٩٤). ولم تتضح له البشاعة الكاملة للأيديولوجية العلمانية. إذ كانت النزاعات على (مكان) - على الأرض أو في السماء - لا تزال تمثل الهم المقلق الرئيس للمراقبين والمحللين السياسيين العاقلين في القرن الثامن عشر.

أمكن لسميث اتخاذ موقف حيادي من الأنظمة السياسية النظرية، فأعلن، دون أن يعلم مسبقًا بعصبة الأمم أو النازية، أن (من الممكن الانتفاع حتى من أضعفها وأسوئها)[١٣].

(*) رداً على الأزمة المالية، اجتمع ممثلو الشعب الفرنسي في ملعب تنس في فرساي، وأقسموا على عدم التفرق قبل كتابة دستور فرنسي جديد. (المترجم).

كان سميث صارماً وحاداً في معارضته للمدرسة الاقتصادية الفرنسية، ورقيقًا ولطيفًا مع (الاقتصاديين) من أتباعها. في (ثروة الأمم)، دعا نظريتهم (أقرب مقاربة إلى الحقيقة ربما نشرت عن موضوع الاقتصاد السياسي)[١٥] (بالطبع، ما زالت مقاربته هو في انتظار النشر).

لحسن الحظ أن مقاربته للحقيقة كانت أقرب. إذ كان (ثروة الأمم) تشخيصًا لا تنظيرًا. وخلا معظمه من الأفكار التجريدية المثالية التي يقتل في سبيلها المناضلون ويردى من أجلها المكافحون. فمن الصعب تصور جماعة غاضبة من الغوغاء تهاجم متاريس الشرطة وتصرخ بشعارات عن: (التحسن في قوى العمل الإنتاجية، والترتيب الذي يحكم التوزيع الطبيعي لنتاجها على الناس على اختلاف مراتبهم!!).

كان يجب على سميث انتقاد (الاقتصاديين) بأسلوب أشد قسوة، واتباع خطى صديقه ديفيد هيوم، الذي أراد أن (يصعقهم، ويسحقهم، ويقصفهم، ويحولهم إلى غبار ورماد)[١٦].



١٠

آدم سميث: العم الهولندي المؤسس لأمريكا

لم يعش آدم سميث ليرى ثمار الثورة الفرنسية. لكنه شهد ثورة من نوع مختلف اختلافًا كبيرًا: (عندما يصبح، في مسار الحياة الإنسانية، من الضروري لشعب حل الروابط السياسية التي وصلته بشعب آخر..). لم تكن هذه ثورة حقيقية على الإطلاق. بل مجرد تفجر محلي عنيف للأحداث بين مواطنين إنجليز أحرار. لكنه سيغير الحياة الإنسانية أكثر من كل الثورات الراديكالية المتعصبة التي ستأتي لاحقًا، كما أمل الناس.

كان آدم سميث مهتمّاً بالمستعمرات الأمريكية (والاضطرابات الراهنة) هناك. ويضم فهرس (ثروة الأمم) أكثر من مئة بند تحت عنوان (أمريكا). كما يكرس سميث فصلًا مطولًا في الجزء الرابع لفلسفة المستعمرات السياسية عمومًا وأسباب التمرد في ثلاث

عشـرة مستعمرة على وجه الخصوص. وفي الجزء الخامس؛ حيث درست طرائـق الحكم ووسائله وأدواته، يعـود سميث إلى الموضوع. في حـين كرست الصفحات الأخيرة مـن الكتاب لاستقصاء مفصل لإمبراطورية بريطانيا الاستعمارية.

يجـب أن نقول شيئًا عن استعمال سميث لكلمة (إمبراطورية). من المؤسف لتاريخ المعنـى اللغوي أننا ندين بفضل التعريف الحالي لـ (الإمبرياليـة) إلى لينـين. فنتيجـة إحباطه من استمـرار فشل الرأسماليـة في إفقار طبقتها العاملـة (البروليتاريا) ثم انهيارها، قـرر لينـين أن الرأسمالية (تحولـت إلى إمبرياليـة)[١] كي (تنهب العالم بأسره)[٢]، بدلًا من مجرد الطبقة العاملة المحلية.

الاسـم الـذي أطلقـه سميـث علـى ذلـك كان الميركانتيليـة. كان ضليعًـا في اللاتينيـة، مثـل قرّائـه. في اللاتينيـة، تعني كلمة / imperator/ (إمبراطـور) ببساطـة شاغل منصـب رئيس القيادة العسكرية. ثم أصبح في الجمهورية الرومانية لقبًا شرفيًّا، أسبغ على الجـنرال المنتصر عـبر استحسان أداء جنـوده. وكان من المفترض بالإمبراطورية الرومانية، كما فُهمت أصلًا، أن يحكمها (إمبراطور imperator) لا ملك (Rex). قبل يوليوس قيصر تعيينه إمبراطورًا، لكنـه رفض توريث المنصـب مثل الملـك. ولم تكـن (إمبراطوريات الشـر) قد وجـدت بعد في زمـن سميـث، باستثنـاء إمبراطوريتين اثنتـين في طـور الانحطـاط والعجز، همـا الإمبراطوريـة الصينية

والإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان سميث حرًا في استخدام تعبير (إمبراطورية) بمعنى مجازي حيادي وحتى متفائل، مثلما فعل صديقه ديفيد هيوم في مقالته (المرتاب): (إمبراطورية الفلسفة تنطبق على قلة قليلة)[٣].

على الرغم من أن سميث لم يكن متفائلًا فلسفيًّا بالإمبراطورية البريطانية، خصوصًا المستعمرات الأمريكية منها، إلا أن الطبقات الحاكمة، كما حذر، يجب إما أن تفهم الطبيعة الصحيحة لإقامة إمبراطورية في أمريكا الشمالية، أو تعاني العواقب (في حالة الانفصال التام عن بريطانيا العظمى.. التي تبدو مرجحة جدًا)[٤].

عُدَّ سميث خبيرًا عارفًا بشؤون أمريكا إلى حد أن الحكومة البريطانية طلبت نصحه ومشورته عام ١٧٧٨. فقد استسلم الجنرال جون برغوين في ساراتوغا في الخريف السابق، ولم تكن الحرب الأمريكية تسير على ما يرام. كتب سميث مذكرة مفصلة إلى عضو حكومة اللورد فريدريك نورث، الكسندر ويدربيرن، الذي كان صديقًا لسميث طوال ثلاثين سنة.

لم يكتشف المؤرخون هذه الوثيقة حتى ثلاثينيات القرن العشرين. وبحلول الوقت الذي رأت فيه النور، بدت تعليقات سميث أكثر صلة ببريطانيا الضعيفة العاجزة في القرن العشرين، مقارنة ببريطانيا القادرة المحنكة في القرن الثامن عشر:

الحكومة التي لم تكن قادرة على فرض احترامها على الناس، في أوقات السلم الراسخ، وأعلى درجات الرخاء والازدهار العام، حين لا يملكون أي ذريعة للشكوى؛ يجب أن تخشى غضبهم وسخطهم في أوقات الخزي والعار والكوارث الفاجعة.. التي تقطع أوصال الإمبراطورية[٥].

ربما يكون (الغضب والسخط) على الطبقات الحاكمة تفسيرًا صحيحًا للسبب الذي جعل بريطانيا، المخبر الأصيل لنظام الحرية الطبيعية الواضحة والبسيطة، تعلق بشباك الاشتراكية الإشكالية التي لم تخلص نفسها من خيوطها بعد. لكن تجربة مختبر أكبر على وشك أن تجري على الطرف الآخر من المحيط.

توقع سميث – لويدربيرن – أن يرفض الأمريكيون نوع المصالحة مع الوطن الأم الذي اقترحه إدموند بيرك عام ١٧٧٥. كما توقع أن تخسر بريطانيا الحرب الأمريكية إذا استمرت في خوضها، حتى لو انتصرت: (من الطبيعي أن تشكل حكومة عسكرية هناك؛ وسيظل الأمريكيون، على مدى أكثر من قرن قادم، على استعداد دومًا لحمل السلاح لإسقاطها)[٦]. وتنبأ بنتائج الحرب: (إخضاع أو فتح جزء، جزء فقط، من أمريكا، يبدو.. مرجحًا على الأغلب)[٧]. أي أن بريطانيا ستحتفظ بكندا. توقع أيضًا عاقبة النتيجة: (لكن التشابه في اللغة والأساليب والسلوك الاجتماعي سوف يدفع الأمريكيين في أغلب الحالات إلى تفضيل التحالف معنا على التحالف مع أي أمة أخرى)[٨].

لم تدخل أي من هذه التوقعات السرور على قلب سميث باستثناء التوقع الأخير. لكنه تبنى رأيًا حياديًّا وباردًا - ربما موقف (المراقب الحيادي) - تجاه النزاع.

في (ثروة الأمم) عبر سميث عن اعتراضات أخلاقية ومنفعية على ما يدعوه مفكرونا المعاصرون، الأكثر تظاهرًا وادعاء بالأخلاق (والأقل نفعًا) بالاستعمار:

يبدو أن الحمق والظلم هما المبدآن اللذان سادا المشروع الأول لتأسيس هذه المستعمرات وحددا وجهته؛ حمق البحث المحموم عن مناجم الذهب والفضة، وظلم الرغبة الجارفة بامتلاك بلد استقبل سكانه الأصليون، الذين لا يسببون أي أذى، أوائل المغامرين بالترحاب واللطف والكرم، فضلًا عن عدم إلحاق الضرر بسكان أوروبا[٩].

لم يكن سميث حداثيًّا في تطبيق التعبير الازدرائي، (لا يسببون أي أذى)، على السكان الأصليين، وبالغ في ذلك في آرائه عن العظمة الحالية لمستعمرات أمريكا[١٠]، التي عدّها تحسنًا مقارنة بالأوضاع التي سبقت وصول كولمبوس، على الرغم من (الظلم الهمجي للأوروبيين.. وما أحدثوه من دمار وخراب في هذه البلدان المنكودة)[١١]. لم يكن سميث حداثيًّا أيضًا حين نسب فضل المنجزات الاستعمارية إلى الحضارة الغربية، بدلًا من قبيلة بوكاهونتاس مثلًا: (تدين المستعمرات بالفضل إلى.. أوروبا على التعليم والآراء العظيمة

لمؤسسيها المتميزين بالنشاط والفاعلية وروح المبادرة والمغامرة)[١٢].
لكن سميث نسب للحضارة الغربية أيضًا فضلًا سلبيًّا وإيجابيًّا في آن: (لم تكن الحكمة والسياسة وراء تحول أمريكا إلى بلاد مأهولة ومتحضرة، بل ما سببته الحكومات الأوروبية من فوضى وظلم)[١٣].
أما الافتقار إلى الفرص داخل الوطن الأم فهو الذي أدى إلى نمو المستعمرات وليس وفرة الفرص خارجه.

انتقد سميث الحكومة البريطانية بسبب (دناءة المصالح الضيقة للنظام الميركانتيلي وخبثها)[١٤]، حيث مثلت قيوده التجارية (شارات وقحة للعبودية)[١٥] فرضت على الأمريكيين دون (أي سبب وجيه، من قبل التجار والمصنعين في الوطن الأم بكل ما اتسموا به من غيرة وحسد لا مبرر لهما)[١٦].

اجتاح سميث غضب شديد من القيود التجارية المفروضة على المستعمرات الأمريكية إلى حد أنه انهمك، على غير عادته، في شكوى مطولة من التنديد العنيف والانتقاد القاسي لـ (أمته المؤلفة من أصحاب المتاجر).

نسب الطعن في بريطانيا وتلطيخ سمعتها بوصفها ليست أكثر من أمة من أصحاب المتاجر، إلى الكورسيكي القصير (نابليون) الذي سرعان ما سيسبب لبريطانيا مصاعب أكبر ومشكلات أخطر من الأمريكيين. لكنها جملة شاعت وانتشرت واستخدمت لوصف أي أمة تجارية. وزعم أن لويس الخامس عشر قالها عن الهولنديين.

لنلاحظ أن سميث لم يعتقد قط أن زعماء بلده ارتقوا إلى مستوى أصحاب المتاجر:

إن إقامة إمبراطورية عظيمة من أجل هدف وحيد هو تنشئة شعب من الزبائن، قد تبدو للوهلة الأولى مشروعًا لا يناسب إلا أمة من أصحاب المتاجر. لكنه مشروع لا يلائم على العموم أمة من أصحاب المتاجر، بل يناسب أمة تتأثر حكومتها بأصحاب المتاجر إلى أبعد حد. أمثال رجال الدولة هؤلاء، وهؤلاء وحدهم، قادرون على تخيل أنهم سيجدون بعض الفائدة في استخدام دماء إخوانهم المواطنين وثروتهم، لتأسيس مثل هذه الإمبراطورية والحفاظ عليها. قل لأحد أصحاب المتاجر، بعني عقارًا جيدًا، وسوف أشتري دومًا ملابسي من متجرك، حتى وإن كان الثمن أغلى من ذلك الذي تعرضه متاجر أخرى؛ لن تجده متحمسًا لقبول اقتراحك. لكن إذا ابتاع لك شخص آخر مثل هذا العقار، سيلتزم صاحب المتجر أمام داعمك المالي إذا فرض عليك شراء ملابسك كلها من متجره. هكذا يمضي سميث على مدى صفحتين اثنتين إلى أن ينتهي الانتقاد المرير بنوع من الإحباط والغضب لذلك كله، لا تنال بريطانيا شيئًا، تحت مظلة نظام الإدارة الحالي، سوى الخسارة من الهيمنة التي تمارسها على مستعمراتها[١٧].

لكن إلهام هذا الخطاب الاتهامي الانتقادي كان الشيء الوحيد المتعلق بالثورة الأمريكية الذي وجده سميث ملهمًا. إذ يثيرنا، نحن

الأمريكيين، التفكير السياسي لآبائنا الوطنيين. لكن سميث لم يكن يتأثر به.

كان سميث مثاليًّا، لكنه لم يمتلك الإيمان الرومانتيكي بالأفكار النظرية المحضة، الإيمان الذي بدأ يتشكل في فرنسا، وفي أمريكا أيضًا. لم يجد الأفكار مهمة إلى حد أنه إذا رأى شيئًا جيدًا يفكر آليًّا بأنه نتيجة لفكرة جيدة. فمشيئة الله تتحقق بطريقة غامضة لا نفهمها، فضلًا عن أهالي ماساتشوستس.

انتقد سميث المستوطنين من سكان المستعمرات. ولم يعدهم وطنيين أصيلين بل عصبة من الطماعين الأنانيين: (لم يسهم سكان المستعمرات إلى الآن بأي شيء للدفاع عن وطنهم الأم، أو دعم حكومته المدنية. بل على العكس، تمتعوا بالحماية إلى الآن على حساب وطنهم الأم)[١٨].

في المذكرة التي رفعها سميث إلى ويدربيرن، أنكر ما اتصف به توماس جيفرسون، وجيمس ماديسون، والكسندر هاملتون، وتوماس بين وغيرهم من ذكاء وألمعية، بجملة واحدة: (في تمجيدهم الراهن للولاء المشترك، من المستبعد أن توافق العقول المتقرحة للأمريكيين على أي اتحاد حتى وفقًا لأفضل الشروط لمصلحتهم)[١٩].

اكتشف سميث أن الدوافع الأنانية العادية – (ليست أضعف جانب من جوانب الطبيعة البشرية) – تكمن خلف المثالية الثورية الأمريكية. في (ثروة الأمم)، فضح زيف الآباء المؤسسين:

الأشخاص الذين يحكمون الآن قرارات ما يدعونه بالكونغرس القاري، يشعرون في أنفسهم هذه اللحظة بدرجة من الأهمية التي نادرًا ما يشعر بها أعظم المواطنين في أوروبا. تحول أصحاب المتاجر، والتجار، والمحامون، إلى رجال دولة ومشرعين، ويُستخدمون في مخطط مدبر لتشكيل حكم جديد[٢٠].

لم يعد سميث هذا النوع الجديد من الحكم فرصة سانحة للبشرية لتحقيق منظومة رائعة من المثل الاجتماعية الجديدة. فقد رأى أمريكا إشكالية من الناحية العملية. وربما من المفيد لنا، نحن الأمريكيين، أكثر الشعوب تمتعًا بالمهارة العملية، الانتباه لوجهة نظر سميث عن الثورة الأمريكية. وربما نتخلى عن الزخارف المثالية، وننظر إلى المرآة السياسية، ونرى أنفسنا على حقيقتنا، ونبحث عن حل عملي.

حتى في أيام النشاط المحموم التي أدت إلى إعلان الاستقلال هنالك جانب عادي ومبتذل وتجاري في الثورة الأمريكية. لم يفجر الثورة الفرنسية نزاع تافه على الرسوم الجمركية. إذ لم يكن الثوار المتطرفون من تجار الطبقة الوسطى المغامرين مثل بول ريفير(*) وصمويل آدم(**). ولم يعتمر اليعاقبة قبعات مريشة لتنظيم وقفة احتجاجية تجارية. ولو كانت هناك (حفلة شاي في باريس)(***)

(*) (١٧٣٥-١٨١٨): صائغ فضيات ووطني أمريكي متحمس، اشتهر برحلته على حصانه (في ١٨/٤/١٧٧٥) لتحذير سكان مستعمرة ماساتشوستس من قدوم الجنود البريطانيين. (المترجم).

(**) (١٧٢٢-١٨٠٣): رجل دولة من قادة الثورة الأمريكية. (المترجم).

(***) احتجاجاً على الضريبة التي فرضها التاج البريطاني على الشاي المستورد، قامت جماعة من المستوطنين الأمريكيين، بقيادة صمويل أدامز (١٦/١٢/١٧٧٣) بإلقاء حمولة ثلاث سفن بريطانية من الشاي في مياه خليج بوسطن. (المترجم).

لما ألقى الثوار الفرنسيون الشاي في البحر، بل لقطعوا رأس كل من صادفوه في طريقهم، ثم رؤوس بعضهم بعضًا. لم تستخدم المقصلة في أمريكا قط.

وجد سميث حلّاً عمليّاً لمشكلة أمريكا العملية – الخروج من هناك. (على بريطانيا العظمى التخلي طوعًا عن السلطة على مستعمراتها، وتركها تنتخب قضاتها، وتطبق قوانينها، وتقرر الحرب أو السلم كما ترى ذلك مناسبًا.. ربما تتخلص منها.. لمصلحتنا في الحرب وفي التجارة، وبدلاً من الفوضى والاضطراب والمواطنين غير الموالين، تصبح أخلص حلفائنا وأكثرهم تعاطفًا وسخاء)[٢١] (مع أن نصيحة سميث لم تجد آذانًا صاغية، لكن تبين أن أمريكا ستكون كذلك، باستثناء ما حدث عام ١٨١٢، وأثناء الحرب الأهلية، وحين كنا على الحياد تجاه ألمانيا بين عامي ١٩١٣-١٩١٩، وفي ثلاثينيات القرن العشرين، وفي أزمة السويس، وفي أي وقت تظهر فيه مشكلة أيرلندا).

لم يعتقد سميث أن هذا الحل العملي عملي بالفعل. فقد سماه (إجراء لم ولن تتبناه أي أمة في العالم)[٢٢]. وما زالت مدركاته وآراؤه عن سبب مطلب (السلام الآن) التي تقع دومًا على آذان صماء، صالحة اليوم. وصف سميث بدقة الواقع السياسي في التيبت، والشيشان، والضفة الغربية، وربما بغداد للأسف:

لم تتنازل أمة طوعًا قط عن الهيمنة على أي مقاطعة، مهما سبب حكمها من مشكلات.. وتصيب

مثل هذه التضحيات، التي قد تبدو مرارًا ضرورية للمصلحة، كبرياء أي أمة بالخزي وعزتها بالعار، وما هو أشد عاقبة أنها تناقض دومًا المصلحة الخاصة للجزء الحاكم منها، الذي سيفتقر إلى الثقة والربح، ويحرم من عديد من الفرص لاكتساب الثروة والتميز، نتيجة حيازة المقاطعة الأشد اضطرابًا وفوضى، ونادراً ما تفيد المقاطعة غير المربحة الأغلبية العظمى من الناس[٢٣].

وجد آدم سميث حلًا آخر للمشكلة الأمريكية لكنه أقل احتمالًا للتطبيق العملي، وهو الاندماج مع بريطانيا العظمى. كان بنجامين فرانكلين قد اقترح مثل هذه الفكرة في خمسينيات القرن الثامن عشر، لكن النفوس كانت أكثر هدوءاً والمزاج العام أكثر اتزانًا. شعر على ما يبدو أنه الشخص الوحيد المؤيد لها. وأبلغ ويدربيرن بأن التكتل السياسي (ليس له مؤيد واحد.. إذا استثنيت هنا وهناك فيلسوفًا منعزلًا مثلي)[٢٤].

مع ذلك كله، كتب سميث في (ثروة الأمم) يقول إنه اعتقد أن جعل أمريكا جزءًا من بريطانيا العظمى (يمكن أن يعد في أسوأ الحالات يوتوبيا مدينة فاضلة جديدة، أقل إمتاعًا بالتأكيد، لكن أكثر عبثًا وعقمًا ووهمًا وخرافة من القديمة)[٢٥]. واستشهد في العمل نفسه بالقصة المتخيلة التي سخر منها سابقًا. ثمة شيء في أمريكا، مبتذل مثل المكان وسكانه، يجعل الناس يحلمون. أبلغ سميث ويدربيرن أن (الخطة.. تهتم بالتأكيد بازدهار الإمبراطورية

ورخائها وعظمتها وديمومتها)[٢٦]. وقدم الحجة على مزايا الاتحاد الأنجلو- أمريكي في الجزء الرابع من (ثروة الأمم)، ثم في الجزء الخامس، عبر مجموعة من الإشارات إلى الموضوع بلغ عددها الإجمالي عشرًا. واعتقد أن مفهومه يمكن توسيعه ليشمل (جميع مقاطعات الإمبراطورية التي يقطنها سكان إما من أصول بريطانية أو أوروبية)[٢٧] (ولكيلا يبدو مفهومًا عنصريًّا، فضل أن يشمل الأيرلنديين). بل رأى مسبقًا، دون أن يغمز بعينه، العلاقة المستقبلية الجامعة بين بوش وبلير:

على مدى أكثر من قرن بقليل، ربما تجاوز إنتاج أمريكا المال المجبى بالضرائب البريطانية. ومن ثم فإن من الطبيعي أن ينتقل مركز قوة الإمبراطورية إلى ذلك الجزء من الإمبراطورية الأكثر إسهامًا في الدفاع والدعم من الكل[٢٨].

لو أثر حلم سميث عاجلًا، في عام ١٧٧٦، بدلاً من آجلاً، في حرب العراق، لكان العالم الذي نعيش فيه مختلفًا. وربما لم يشهد الحرب الأهلية، ولا الحربين العالميتين، ولا الحرب الباردة، ولما دس الاتحاد الأوروبي أنفه الفضولي في كل شيء. من ناحية أخرى، ربما ظهرت عشرة آلاف بلفاست(*) حيث (من الطبيعي أن تشكل حكومة عسكرية)، وحيث يكون الملايين (على استعداد دومًا لحمل السلاح لإسقاطها).

(*) عاصمة أيرلندا الشمالية. (المترجم).

في واقع الأمر، نحن نعيش في عالم مختلف على أي حال. ومن اللافت أن سميث لم يحلم بأمريكا التي تحققت فعلًا. وسوف تثبت الولايات المتحدة فرضيته الأساسية: تعتمد الثروة على تقسيم العمل؛ ويرتكز تقسيم العمل على التجارة؛ وتقوم التجارة على الحرية الطبيعية؛ لذلك كله، فإن الحرية = الثروة.

قدمت الولايات المتحدة دحضًا محرجًا للدليل. ما الذي سيجده علماء الآثار في المستقبل البعيد في آثار الإمبراطورية الأمريكية؟ سوف ينقبون ليجدوا سيارات فارهة تمنعها ضخامة حجمها من التحرك. ولا بد أنها كانت تستخدم لأغراض لها علاقة بالمراسم الاحتفالية والمظاهر الخداعة. فضلًا عن أن أطلال برك السباحة المنتشرة في كل مكان، والأنواع التي تنأى عن الحصر من الأحذية الخفيفة، وبقايا منافذ بيع الوجبات السريعة التي يفوق عددها عدد السكان في القرن العشرين حسب التقديرات كلها، سوف تقنع العلماء والباحثين في القرن الحادي والثلاثين بأننا كنا مخلوقات برمائية تسير على ست أرجل، وعبدت الأطعمة الدهنية وهي في السيارات.

لكن آدم سميث كان رجلًا عمليًّا ولم يحلم بالأشياء السخيفة غير القابلة للتحقق. ونظرًا لأننا، نحن الأمريكيين، نتمتع بالمهارة العملية، يجب علينا ليس فقط فهم ما قاله سميث عن ثورتنا، بل ما قاله عن الوضع الذي ستفضي إليه الثورة في نهاية المطاف: إمبراطورية شبيهة بالإمبراطورية البريطانية.

يمكن للانتقاد العنيف الذي وجهه آدم سميث للمستعمرين والإمبرياليين البريطانيين أن يوجه إلى كل من ينوي الاستفادة والتربح من الإمبراطورية. ولا يهم إذا كان المكسب المأمول ديمقراطية مبتذلة وفظة، أو نبيلة وراقية، أو ازدهارًا تجاريًّا. فالإمبراطورية الناجحة ليست مصفوفة من الدول الاتكالية الخانعة والعميلة واللجوجة في السؤال، ولا مناطق نائية تخضع بالرشوة أو القوة. كتب سميث يقول: (ربما يمكن اعتبارها ملحقات ثانوية، نوعًا من عربات الخيل المبهرجة المتألقة للإمبراطورية)[٢٩].

اعتقد سميث أن أخطاء السياسة الإمبراطورية البريطانية فاحشة وخطرة على الأفراد إلى حد أن إدانتها الشديدة شكلت الفقرة الأخيرة من (ثروة الأمم):

(عمل حكام بريطانيا العظمى طوال أكثر من قرن مضى على تسلية الناس بتخيل أن لديهم إمبراطورية عظيمة على الجانب الغربي من الأطلسي. لكن الإمبراطورية وجدت حتى تاريخه في المخيلة فقط. ولم تكن إمبراطورية، بل مشروع لإمبراطورية؛ لا منجم ذهب، بل مشروع لمنجم ذهب.. ومن المؤكد أن الوقت قد أزف كي يدرك حكامنا أن هذا مجرد حلم ذهبي، ورطوا أنفسهم وربما شعبهم فيه؛ أو يجب أن يستيقظوا هم أنفسهم منه، ويسعوا لإيقاظ شعبهم.

وإذا كان من المتعذر استكمال المشروع، يجب التخلي عنه.. يجب على بريطانيا العظمى أن تحرر نفسها من عبء تكلفة الدفاع عن تلك المقاطعات زمن الحرب، ودعم أي جزء من مؤسساتها المدنية أو العسكرية زمن السلم، وتسعى إلى تكييف آرائها ومخططاتها المستقبلية لتناسب ظروفها الحقيقية والواقعية القائمة)[٣٠].



١١

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس، (في عوائد الملك أو الأمة): آدم سميث، خبير السياسة

كان سميث إنساناً من لحم ودم، وتبدى ذلك بأوضح صورة في الجزء الخامس من (ثروة الأمم). لا يمكن لأحد مقاومة تقديم النصيحة والمشورة. وبوصفه (فيلسوفاً منعزلاً)، كانت نصيحته مفيدة ومشورته صادقة. طبق ذكاءه اللماح وأفكاره السامية على قضايا سياسية كبرى مثل الحرب في أمريكا. لكنه في الجزء الخامس طبق أيضًا أفكاره الذكية على القضايا السياسية العادية والمبتذلة. واستسلم لإغراء النزول إلى سفح جبل الأولمب.

ما كان يجب على مفكر بعمق آدم سميث توريط نفسه في فخ التفاصيل البيروقراطية للسياسة العامة. في (نظرية العواطف الأخلاقية)، حذر من المفكرين (الذين يختزلون مبادئهم إلى مجرد.. نظام تقني من التعريفات والتفريعات والتقسيمات المصطنعة)[1].

ودعا ذلك (واحدًا من أيسر العوامل الفعالة ربما لإطفاء جذوة الحس السليم في أي عقيدة أخلاقية أو ميتافيزيقية)[٢].

خاطر سميث بالتحول إلى (حكيم محاصر بإسار غروره المتباهي)، مثل جيمس كارفيل، أو كارل روف، أو أنثوني غيدنز. في الجزء الرابع، وفي موضوع المستعمرات الأسبانية مقابل المستعمرات البريطانية، عانى سميث الحماقة المركزية المميزة للمستشار السياسي، الحماقة ذاتها التي اكتشفها في الاقتصاديين الفرنسيين: (ما يشكل شخصية كل أمة هو طبيعة حكومتها)[٣]. بحلول منتصف الجزء الخامس، كان سميث يحاضر مثل خبير مطلع على خبايا السياسة في واشنطن أصابه الملل بعد يوم حافل بالأزمات السياسية المهمة والعابرة التي يغرم بها أمثاله من المطلعين:

> **فمع أن الإدارة والحث والإقناع تعد دومًا أكثر وسائل الحكم سهولة وأمانًا، مثلما تعد القوة والعنف أسوأها وأخطرها، لكن يبدو أنهما يجسدان الطبيعة المتغطرسة لكل من يزدري الوسيلة الناجعة، باستثناء الوضع الذي يعجز فيه عن/أو لا يجرؤ على استخدام الوسيلة السيئة[٤].**

من المحزن أن نكتشف أن القضايا السياسية العادية والمبتذلة في زمن سميث هي نفسها التي تواجهنا اليوم: القانون والنظام، الهبات السياسية للمحازبين والأزلام، إخفاقات النظام التعليمي،

تدخل الدين في السياسة، القانون الضريبي المعقد والمتحيز، زيادة الدين القومي، الإنفاق الدفاعي المنفلت. بعد قرنين وربع القرن من الإشكاليات المستعصية في هذه السياسة، يبدو أن الأمور ما زالت مستعصية على الحل.

إذا تصالحنا مع هذه المشكلات المستعصية، يمكن أن تنتفي الحاجة إلى هذا العدد الهائل من المستشارين السياسيين، والمعلقين المفوهين، والخبراء المحنكين. ويمكن أن يفسح المجال في صحيفة نيويورك تايمز لمزيد من الإعلانات الدعائية للملابس النسائية الداخلية. ويمكن استبدال الأحاديث التلفزيونية المملة التي تدور حول السياسة الحزبية صباح كل يوم أحد بإعادة مسلسل (قلص مدى حماسك). وإذا ما أردنا الحصول على رأي عن بعض القضايا الملحة، يمكننا قراءة الجزء الثالث من (ثروة الأمم) والتبحر في ألفاظ آدم سميث المختلطة والمشوشة وفقراته المطولة والمملة.

في تكلفة العدالة:

على الرغم من عنوان هذا القسم، إلا أن سميث لم يقل الكثير عن تكلفة العدالة باستثناء أنها باهظة. (لكن العدالة لم تمنح مجانًا في الواقع في أي بلد)[٥]، مثلما كتب، وهو يضيف مزيدًا من البريق والاحترام إلى تعليق الممثل والمتهم بارتكاب جريمة قتل، روبرت بليك، الذي قال إنه (بريء إلى أن يثبت إفلاسه).

أسف سميث لأن أصل النظام القضائي يتعلق بعائدات الملك وإيراده لا عدله: (كان الأشخاص الذين طلبوا العدالة من الملك على استعداد دومًا لدفع ثمنها.. هذه الخطة المخادعة التي تجعل إدارة العدالة خاضعة لأغراض العائدات المالية، نادرًا ما تفشل في إنتاج عديد من الانتهاكات الفظيعة)[٦]. أنا أفكر الآن بالمخالفات المرورية في بلدة بولاية نيو هامبشير لن أسميها لأني أعيش فيها.

سوف أقود السيارة بسرعة أبطأ لأن آدم سميث، مثل المحللين السياسيين في أيامنا هذه، كان في أفضل حالاته عندما تناول الصورة الشاملة. فقد تميز بالفصاحة البليغة في التعبير عن السؤال الهائل: ما الطبيعة النظرية المجردة للعدالة؟ ولم يكن على هذا المستوى السامي في المسائل العادية المبتذلة، مثل: كيف أصل إلى البيت؟

نجح آدم سميث في التعبير بأسلوب بليغ مبين عن الطبيعة المجردة للعدالة إلى حد أن بمقدوره دخول أستوديو التلفزيون ولعب دور المضيف والضيوف في برنامج لمحطة فوكس الإخبارية.

(أسست الحكومة المدنية.. في الواقع للدفاع عن الأغنياء ضد الفقراء)[٧]، مثلما كتب ليبدو مثل ضيف يساري ملتزم ومتحمس.

ثم بدا مثل مضيف يميني متطرف: (إن كراهية العمل بين الفقراء وحب الراحة والسهولة والاستمتاع، هي الأهواء التي تستحث على غزو الأملاك والعقارات)[٨].

ثـم يعـود اليسـاري مـرة أخـرى: (كلمـا زادت الملكيـة تفاقم الظلم)[٩].

ثـم الضيف اليمينـي المتطرف أكثر مـن المضيف: (تحت مظلة القاضـي المدني وحده يمكن لمالك ذلك العقار الثمين.. أن ينام ليلة واحـدة آمنًا قرير العين. فهو محاط علـى الدوام بأعداء مجهولين، يستحيل عليه تهدئة غضبهم مع أنه لم يستفزهم قط)[١٠].

يتعلـق الأمر كله بإستراتيجيات الحملـة (الانتخابية) في نهاية المطـاف. كيـف نختار هـؤلاء القضاة المدنيـين، هـؤلاء السياسيين (الأنانيين) – الذين يضعون القانون ويطبقون العدالة؟ عند اختيار الزعمـاء السياسيين، استثنى سميث (مؤهلات الفكر)، التي عدها (خلافية دومًا، ومحل نزاع عموماً)[١١] (كأنما مؤهلات الفكر كانت عاملًا مهمّاً في السياسة!!). ورجال الأعمال الناجحون ليسوا أفضل المرشحـين، لأن (سلطة الثروة.. ظلت تجسـد الشكوى المستمرة في كل حقبـة للمجتمع)، حسب تعبير سميث[١٢] (إضافة إلى أن عديدا من الأغنيـاء ذهبوا إلى السجـن أخيرًا، مثلهم مثـل السياسيين). اعتقـد سميث أن في العمر الحقيقـي (لا العمر المقدر حسب التطور الذهنـي أو البدني) شيئًا يوصي بذلك، لأنه (سمة بسيطة وواضحة لا تقبل النـزاع والخلاف)[١٣]. في السياسـة، يمكنك أن تظل وجهًا جديـدًا ومفعمًا بالإمكانيات والقـدرات وإن بلغت الثالثة والخمسين – بعمـر سميث وقت نشر (ثـروة الأمم). لكن ما فضله سميث أكثر

مـن سـواه في السياسة كان (سمو المولد.. وقـدم إما الثروة، أو تلك العظمـة التي شـاع تأسيسها على الـثروة، أو صاحبتها)[١٤]. اعتقد سميـث أن (مولد مثل هـذا الشخص وثروته يكسبانـه طبيعيًّا نوعًا من.. السلطة)[١٥].

يـا له من رأي عتيـق لا يصدق. ربما لا ينـاسـب سميث المظاهر الاستعراضيـة في وسائل الإعلام الحديثة على الرغم من كل شيء. إلا إذا فكـرت بالثريين صاحبي الدمـاء الزرقاء اللذين تنافسا على رئاسة الولايات المتحدة في انتخابات عام ٢٠٠٤.

كان سميـث سينـأى بنفسـه دون شـك عن حضيض السياسة المبتذلـة. وربما أيـد بوش وكيري كليهما. لكنه مـا كان ليتوقع كثيرًا مـن العدالة المجردة نتيجة ما أراد أي منهمـا فعله للمحكمة العليا. كتـب يقول: (حـين يتحد النظـام القضائي مع السلطـة التنفيذية، مـن النـادر ألا يضحـى بالعدالة مـرارًا لصالـح ما يسميـه العامةُ سياسةً)[١٦].

قـدم سميث اقتراحـاً واقعيّـاً متعينـاً لتحسين نظـام العدالة: تنافـس المحاكم الابتدائيـة، حيث (تسعى كل محكمـة، عبر سرعة الأداء والنزاهـة، إلى النظر في أكبر عدد ممكن من القضايا)[١٧]. تلـك فكرة عظيمة - لبرنامج تلفزيوني استعراضي. لكنها لا تجترح المعجزات لمحاكم الاستئناف في الولايات المتحدة.

في الأشغال العامة ومؤسسات تسهيل تجارة المجتمع:

لم يتغير شيء في المشروعات الانتهازية للسياسة منذ القرن الثامن عشر. يتضح ذلك من عبارة شعر سميث أنه مجبر على قولها: (لا يمكن لجسر عظيم أن يشيد على نهر في موقع لا يعبره أحد، أو لمجرد تجميل المنظر من نوافذ قصر مجاور)[١٨]. استخدم فعل (لا يمكن) بالمدلول السياسي الصارم، ومعناه لا يتصل بـ (لن يحدث). أما الكلمات اللاحقة في جملة سميث فهي: (أشياء تحدث أحيانًا).

استخدم سميث إعلانًا تصريحيًّا لا يمكن إنكاره حول تمويل الأشغال العامة: (ربما يمكن بسهولة إدارة جزء كبير منها.. بحيث تتيح عائدًا معينًا يكفي لتغطية نفقاتها)[١٩]. وأعلن بأسلوب لا يمكن إنكاره أيضًا أنه لا يوجد أمل في الحصول على ذلك التمويل: (في مسار الحكومة الاستبدادية، تمتص السلطة التنفيذية بالتدريج صلاحيات السلطات الأخرى كلها في الدولة، وتتولى بنفسها إدارة كل فرع من العائدات)[٢٠].

فهم سميث الإمكانيات المتاحة في الخوصصة: (لا تكون الخدمات العامة أفضل أداء أبدًا من الوضع الذي تأتي فيه مكافآتها عاقبة لما أنجز، وبصورة تناسب الجهد الموظف في أدائها)[٢١]. لكن خبرته في الشركات التي وكلت بمهمة أداء خدمات الحكومة البريطانية - مثل شركة الهند الشرقية، هاليبرتون عصره -

تركتـه متشـككًا ومترددًا في اقـتراح حل الخوصصـة: (أثبتت هذه الشـركات.. على المدى البعيد، بصورة شاملـة، إما أنها عبء ثقيل أو عديمة الجدوى)[٢٢].

كل ما استطاع سميث فعله إزاء المشروعات السياسية الانتهازية هو التعبير عن نـوع من المنطق البدهي السليم غير الفعال الذي لن يؤثـر في السياسة أبدًا: (يمكن تنفيذها حيـث تحتاج إليها التجارة فقط، ويجب.. أن تناسب عظمتها وروعتها ما تستطيع هذه التجارة دفعـه)[٢٣]. وسيكـون عاجـزًا عـن منـع تشييـد طريـق سريعة في كيتشيـكان بولاية ألاسكا (عدد السـكان ٧٤١٠)، بلغت كلفتها مئتي مليـون دولار. لكـن سميث لـن يقترح علـى أقل تقديـر إنشاء (قبة الألفيـة) في لندن، أو مجمعات ومبان سكنيـة للمحتجين الغاضبين في ضواحـي باريس، أو إعادة بناء أحيـاء الفقر تحت مستوى سطح البحر بحيـث يتوافر مكان كاف لشباب الجامعـة لتناول المسكرات أثناء كرنفال الصوم الكبير.

في تكلفة مؤسسات تعليم الشباب:

سرعـان ما يتحول أي نقاش عن السياسـة التعليمية إلى جلسة غاضبة يفقد فيها المشاركـون أعصابهم. فالكل متخم حتى الثمالة بسـت عشرة أو عشريـن سنة من التعليم، وعلـى استعداد لتقيؤها. لم يكـن سميـث يمثل استثنـاء، بل دعـا الجامعـات (ملاجئ تجد

فيها الأنظمة المتفجرة والأحكام المسبقة المتحيزة التي تجاوزها الزمن ملاذاً وحماية، بعد أن جرى البحث عنها في كل ركن من أركان العالم)[٢٤].

أعلن سميث نظريته التعليمية. وحبذ إدخال مزيد من العلم: (الموضوع المناسب للتجريب والمشاهدة، موضوع يستطيع فيه الانتباه الدقيق تحقيق الكثير من الاكتشافات المفيدة)[٢٥]. في حين عارض الموضوعات (التي لا يتمكن فيها الانتباه الدقيق، لقلة من الحقائق البسيطة والواضحة، اكتشاف شيء سوى الغموض وعدم اليقين)[٢٦]. كان يشير هنا إلى الميتافيزيقا، لكن يمكننا استبدالها بالنقد الأدبي ما بعد البنيوي المتعلق بالأقليات، والحركة النسوية، وحقوق المثليين. استشهد بمنهج الإغريق القدماء واستحسنه: (الفيزياء، أو الفلسفة الطبيعية؛ والأخلاق أو الفلسفة الأخلاقية؛ والمنطق)، مؤكدًا أن (هذا التقسيم العام يبدو مناسباً تماماً لطبيعة الأشياء)[٢٧]. مع أنني لست متيقناً أين نضع التعليم المهني والتربية البدنية وغيرهما فيه. وانتقد بشدة الأنطولوجيا (علم الوجود) ودعاه (هذا العلم المتشابك مثل نسيج العنكبوت)[٢٨]، وشعرت لذلك بالارتياح لأنني حصلت على درجة متدنية بسببه في امتحان المقدمة التمهيدية إلى الفلسفة.

لكن الآراء المعقولة والمنطقية لم تتجاوز هذا الحد فيما يتعلق بالقضايا التعليمية. وسرعان ما يدخل سميث في منطقة تثير الجدل الخلافي. فقد عارض مجانية التعليم، واحتج على سيطرة

الحكومة على المدارس: (إن سلطة خارجية من هذا النوع.. لا بد أن تمارس بأسلوب جاهل ومزاجي)[٢٩]. عرف سميث، المدرس، ما يفعله الضغط السياسي على المدرسين:

لا بد أن تنحط مكانة الشخص الخاضع لمثل هذه السلطة بسببها، وبدلًا من أن يحظى بأرفع درجة من الاحترام والإجلال، يتحول إلى أدنى الناس مرتبة وأجدرهم بالازدراء في المجتمع. ولا يمكنه صون نفسه بطريقة فعالة إلا بحماية قوية من الاستغلال السيئ الذي يتعرض له في كل وقت؛ حيث لن يكتسب هذه الحماية على الأرجح إلا بالخضوع لإرادة رؤسائه، وليس بقدرته أو جده ودأبه في مهنته[٣٠].

يبدو هنا كأنه ينضم إلى نقابة المعلمين ويصوت لمصلحة الديمقراطيين الأحرار!

هاجم سميث التعليم الإلزامي أيضًا. كتب يقول: (لا توجد مؤسسات عامة لتعليم المرأة، ومن ثم لا يوجد ما هو عديم النفع أو عبثي أو خيالي في البرنامج المشترك لتعليمها)[٣١]. لا تجد في القرن الثامن عشر ربات بيوت ينفجرن باكيات غاضبات أثناء المناقشات الجماعية لكتاب (هل وجود الرجال ضروري؟). فغالبيتهن من الأميات.

امتدح سميث المدارس الخاصة. وزعم أن (تلك الأجزاء من التعليم.. التي لا توجد مؤسسات عامة لتدريسها، هي أفضل ما يدرس على وجه العموم)[٣٢]. والأمثلة التي قدمها هي (مدارس

المبـارزة أو الرقص)[٣٣]. لكن لدي ثلاثـة أطفال وهم يمضون وقتًا كافيًّا في التدافع والتلاكم كأنهم في حفلة رقص.

خاض سميث مع نفسه جدلًا خلافيًّا حادًّا حول هذه النقاط. فقد أيد مطلبًا تعليميًّا (يجب توافره في كل شخص قبل أن يسمح لـه بممارسة أي مهنة حـرة)[٣٤]. ودعا إلى تمويل المدارس من دافع الضرائب: (من الضـروري أن تبدي الحكومة بعض الاهتمام لتمنع فساد الكتلة العظمى من الناس وانحطاطها)[٣٥]. وأراد وضع معايير للمناهـج الدراسيـة الوطنية: (العلـم ترياق عظيم لسـم التحمس المتطرف والاعتقاد الخرافي)[٣٦].

لم تنجـح أيـة واحدة من أجنـدات سميث التعليميـة. أي أن كل الحجج التي قدمها ضد التعليم العام (الحكومي) لم تثبت صحتها. وكل الحجـج التـي قدمها لصالـح التعليم العام لم تمنـع ما أصاب الكتلـة الكبـيرة من الناس من فسـاد كلي وانحطـاط شامل تقريبًا (علـى الأقل حـين يشاهدون برنامـج "أمريكان إيـدول"). ولا كان العلـم ترياقًـا فعـالًا للحماس المتطـرف، مثل حماس إيـران لصنع الأسلحة النووية، ولا للاعتقـاد الخرافي (كان رقم ورقة اليانصيب الـذي اخترته في الأسبوع الماضي ذات الرقم التوليفي لقفل خزانتي في المدرسة الثانوية).

يصيبنا آدم سميث حين نقرأ ما كتبه عن التعليم بما أصابه من تشوش وارتبـاك حين كتب عنه. ولا شك في أن جـزءًا من الارتباك

مرده حقيقة أن سميث كان مدرسًا ويعرف واقع المدارس. (لا توجد طريقة أنفع وأفضل على ما يبدو لقضاء المدة الطويلة بين الطفولة وتلك المرحلة من الحياة التي يبدأ فيها الناس بجدية في دخول عالم العمل الحقيقي)[٣٧]، كما كتب. فسر التعليم هو أننا لا نعرف ما نفعله بأبنائنا غير إرسالهم إلى المدارس.

في تكلفة مؤسسات تعليم الناس من الأعمار كافة:

ربما يكون سميث أول من أدرك أن السياسة بحاجة إلى لفظة ملطفة لكلمة (كنيسة). فثمة شيء معاصر جدًا في (مؤسسات تعليم الناس من الأعمار كافة)، يمنح ثقلًا مساويًا لدروس تعليم صنع الخزف، واليوغا، والطقوس الدينية. وفضل سميث دون تحفظ فصل هذه الأشياء عن الدولة.

> **لا تقع المعتقدات الدينية، فضلًا عن الأمور الروحية.. ضمن سلطة الملك الدنيوية، ونادرًا ما يفترض بأنه مؤهل لتلقينها للناس، مع أنه قد يكون مؤهلًا تأهيلًا جيدًا لحمايتها[٣٨].**

باستثناء ما جرى في المستقبل في حالة الملك تشارلز فيما يتعلق بالزراعة الحيوية.

ومع ذلك كله، وعلى شاكلة التعليم، شعر سميث بالحاجة إلى استكشاف خيارات إضافية للسياسة. فمن ناحية، كان فصل الكنيسة عن الدولة أمرًا جيدًا بالتأكيد. ومن ناحية أخرى، ربما

يجب على الدولة تمويل الدين. استشهد سميث بديفيد هيوم فيما يتصل بضرورة قيام (كل مشرع حكيم بدراسة الجهد الدؤوب واللافت لرجال الدين، لمنعه)[٣٩]. فإذا أراد واعظ إعالة نفسه فهو بحاجة كما قال هيوم إلى (حث إخلاص جمهوره المتبلد. ولن تهم الحقيقة، أو الأخلاق، أو الحشمة في غرس العقائد. فكل عقيدة سيتبناها الناس تناسب على أفضل وجه المشاعر غير المنظمة للطبيعة البشرية)[٤٠]. ولذلك، وفقًا لهيوم، فإن ما يجب على الحكومة أن تفعله فيما يتعلق (بالمرشدين الروحيين) - لتجنب ظهور منظمات مثل القاعدة - (هو الاستفادة من كسلهم، وتقديم مرتبات محددة لمهنتهم)[٤١،٤٢].

لكن ذلك سيعني تقديم الدعم لأنواع المذاهب غير العادية كلها، مثل مذاهب أتباع الكنائس المنهجية والمعمدانية وغيرها، ممن تتصف طقوسهم بالغرابة. وهكذا، يجب من ناحية ثالثة ربما، الحفاظ على كنيسة إنجلترا. (منذ البداية، كان هذا النظام من حكم الكنائس مفضلًا وإيجابيًّا للسلام والنظام)[٤٣].

لم يكن ثمة شيء يمكن فعله على الأرجح فيما يتعلق بفصل الكنيسة عن الدولة. وزعم سميث أن الحكومة التي لا تتبنى دينًا رسميًّا كانت شيئًا (لم يرسخه بعد قانون وضعي، ولن يرسخه في أي بلد على الأرجح)[٤٤]. ثم شرح في الفقرة اللاحقة كيف يمكن للقانون الوضعي ترسيخه، (بشرط أن تكون هذه الطوائف عديدة

إلى حد كاف، وصغيرة إلى حد يمنعها من إيقاع الفوضى في الوضع العام الهادئ.. وإذا قررت الحكومة تركها وشأنها تمامًا، وإلزام كل منها بعدم التدخل في شؤون الأخرى)[٤٥]. هكذا نفصل الكنيسة عن الدولة في أمريكا، البلد الذي أسسه المتعصبون المتدينون.

أيد سميث دون تحفظ أيضًا حرية المعتقد الديني، مع أن الطريقة لم تكن محسوبة لإرضاء المؤمنين:

يجب إلزام وعاظ كل طائفة صغيرة، الذين يجدون أنفسهم وحيدين تقريبًا، باحترام أتباع الطوائف الأخرى كلها، والتنازلات التي يجدونها مناسبة ومقبولة لكل واحدة تجاه الأخرى يمكن أن تختزل بمرور الوقت عقيدة الجزء الأكبر منها إلى ذلك الدين النقي والعقلاني، المتحرر من كل مزيج من السخف، أو الخداع، أو التعصب، مثلما رغب الحكماء في العصور كلها في رؤيته يترسخ[٤٦].

يبدو ذلك مثل دعابة الناتج من تهجين جماعة شهود يهوه بطائفة الموحدين - مثل شخص يذهب من بيت إلى بيت ويدق أبوابها دون سبب.

وامتدح سميث بلطف المسيحيين الأصوليين، لكنه مديح سيثير غضبهم وسخطهم كلهم، بدءًا برالف ريد وانتهاءً بآل شاربتون:

من الطبيعي ألا يعد الوضيع.. عضوًا متميزًا في أي مجتمع عظيم.. ولن يثير مسلكه أبدًا كثيرًا من الانتباه

في أي مجتمع محترم، حين يصبح عضوًا في طائفة دينية صغيرة. وهو يتطلب منذ تلك اللحظة درجة من التفكير والاعتبار لم يعرفها من قبل قط(٤٧).

ثم يبدأ الهجوم على الكاثوليكية، فهي (أكثر التوليفات التي تشكلت ضد سلطة الحكومة المدنية وأمنها، وضد حرية البشر وعقولهم وسعادتهم، إثارة للذعر والرعب)[٤٨].

ولن تكون فكرة جيدة إرسال سميث في حملة انتخابية لاستمالة أصوات المتدينين.

في الضرائب:

فكر سميث كثيرًا في الضرائب، وخصص لها أكثر من ثمانين صفحة. بدأ بأربع قواعد معقولة لفرض الضرائب: يجب أن تكون جبايتها غير مكلفة، وأن تجبى حين يكون دافع الضريبة قادرًا على دفعها، وأن تتناسب مع الدخل الذي يحصل عليه المكلف (المتمتع بحماية الدولة)[٤٩]، وأن تكون (محددة ومنظمة لا اعتباطية)[٥٠].

القاعدة الأخيرة هي الأكثر منطقية ولذلك فهي الأقل اتباعًا وتطبيقاً. أما التعقيد المربك والمشوش للقانون الضريبي والتلاعب المتواصل بالضرائب، حتى من قبل المشرعين الذين قد يخفضونها، فينتهكون مبدأ سميث القائل إن (أعلى درجة من الظلم.. لا تقارب الشر المستطير الناجم عن قدر ضئيل من الغموض وعدم

اليقين)[٥١]. ينطبق المبدأ عمليًّا على كل شيء، مثلما يعرف العاشق الولهان، أو الذي ينتظر على أحر من الجمر وصول شيك بالبريد.

عارض سميث ضرائب التركات، التي تشبه في اعتباطيتها الموت، وإن لم تشابهه في الغموض وعدم اليقين. ويصعب القول إنها تجبى في الوقت المناسب حين يكون دافع الضريبة قادرًا على دفعها، لأنه يكون آنئذ في عداد الأموات.

لم يجد سميث في ضريبة الاستهلاك علاجًا سحريًّا للمشكلات كلها: (تميل الضرائب المفروضة على السلع الاستهلاكية كلها.. إلى تقليص كمية العمل الإنتاجي)[٥٢]. ولم يفضل إدخال ضريبة القيمة المضافة إلى الولايات المتحدة. فحقيقة استخدامها في بلدان أخرى حجة ضدها. (لا يوجد فن تسبق حكومة حكومة أخرى في تعلمه مثل تجفيف المال من جيوب الناس)، كما كتب[٥٣].

عارض سميث أيضًا ضرائب الشركات لأن (مالك البضاعة مواطن عالمي)[٥٤]، و(الضريبة التي تبعد البضاعة عن أي بلد معين سوف تنزع إلى تجفيف كل مصدر للدخل، للملك والمجتمع كليهما)[٥٥]. وربما تصبح إمارة ليختنشتاين(*) قوة عالمية كبرى في نهاية المطاف. ومن المستبعد ألا يكون لها مطامح في الأراضي المجاورة.

قدم سميث حجة معقولة ومفحمة لمصلحة ضرائب الأملاك العقارية - لكن فقط على الجمهوريين الذين سببوا تضخم أسعار

(*) إمارة صغيرة مستقلة في وسط أوروبا بين سويسرا والنمسا (المساحة: ١٦٠ كم٢، عدد السكان: ٣٥ ألف نسمة). (المترجم).

البيوت في الأحياء الراقية: (لا يمكن لشيء أن يكون أكثر معقولية من فرض ضريبة غير عادية على ذلك الصندوق الذي يدين بفضل وجوده إلى الحكومة الرشيدة في الدولة)[٥٦]. ونظرًا لأن الحكومة أنشئت للدفاع عن الأغنياء ضد الفقراء، فقد طالب بفرض ضريبة تصاعدية: (ليس من غير المنطقي أن يسهم الأغنياء في الإنفاق العام، لا بالتناسب مع دخلهم فقط، بل بأكثر من ذلك)[٥٧]. لكن فقط إن استطاعت الحكومة منع الفقراء من كتابة الشعارات على الجدران وتخفيض صوت موسيقى (الراب).

وعارض سميث بعض الضرائب على أسس ليبرتارية:

> **سيكون من المستحيل تحديد نسبة الضريبة بدقة على متجر وفقاً لحجم التجارة فيه، دون أن يعني ذلك التفتيش الاستقصائي غير المبرر في أي بلد حر[٥٨].**

نحن نعتز كثيرًا بحريتنا الحديثة، لكن تلك الجملة تشير إلى أننا تخلينا عن بعض الحريات القديمة في خضم انتقائنا للحريات الجديدة.

لدى سميث فكرة ضريبية لماحة فعلاً: رسم إضافي على (الأشخاص المسؤولين في الإدارة الحكومية)[٥٩]. فقد شعر بأنهم (يميلون عمومًا إلى مكافأة أنفسهم وأفراد عائلاتهم أكثر من اللازم)[٦٠]. أسس نادي الغولف الملكي في سانت أندروز (باسكتلندا) عام ١٧٥٤، وجماعات الضغط كانت موجودة منذ

ذلك الحين. (لذلك، يمكن في معظم الحالات أن تتحمل رواتب المسؤولين ودخلهم فرض ضرائب عليها)، كما كتب سميث [٦١]. وتوقع أن تحظى هذه الضرائب (بشعبية كبيرة دومًا) [٦٢].

ومع ذلك كله، يؤدي التفكير في الضرائب إلى التفكير السيئ. فكر بما ستفعله مع مدقق حسابات مصلحة الضرائب، فضلًا عن قوانين الله والبشر. وأولئك الذين يوصون بالضرائب يشابهون في غلوهم أولئك الذين يتهربون من دفعها. أما طريقة سميث المفضلة في زيادة الإيرادات فهي ضريبة الرفاهية. وهذه لا تفرض على الأغنياء العابثين والمستهترين فقط، بل على (النفقات المترفة غير الضرورية للناس من ذوي المراتب الدنيا أيضًا) [٦٣].

دعونا نفكر، وفقًا للدليل الذي قدمه سميث نفسه، بماهية (النفقات غير الضرورية) للفقير في القرن الثامن عشر:

> **من الممكن الشك في أن لحم القصاب يعد ضرورة حياتية. فالحبوب والخضار، مع الحليب، والجبنة، والزبدة، أو الزيت في حالة عدم توافر الزبدة، يمكن، وفقًا لما نعرفه من التجربة، أن توفر - دون لحم القصاب - أغزر الأنظمة الغذائية، وأشملها، وأنفعها، وأكثرها تزويدًا بالطاقة[٦٤].**

ودعونا نفكر إضافة إلى ما سبق في المكونات الفعلية لذلك النظام الذي يعد، وفقًا لسميث، أغزر الأنظمة الغذائية، وأشملها، وأنفعها، وأكثرها تزويدًا بالطاقة:

الظروف التي يعيش فيها الفقراء في معظم أجزاء إنجلترا لا يمكن بالتأكيد أن تعاني أو تتأثر بأي ارتفاع في أسعار لحوم الدجاج أو السمك أو الطيور البرية أو الغزلان، بقدر ما تستفيد من الانخفاض في أسعار البطاطا[٦٥].

والبطاطا لا تسبب أي ضرر للفقراء:

يقال إن معظم المديرين، والحمالين، وعتالي الفحم في لندن، وأولئك المنكودات اللائي يعشن على الدعارة، وأقوى الرجال وأجمل النساء، في جميع المناطق الخاضعة لنفوذ بريطانيا ربما، وحتى أدنى الناس مرتبة في أيرلندا، يتغذون عمومًا على هذا النبات الجذري[٦٦].

في القرن الثامن عشر، لم تتم بعد ترقية الفقراء إلى مكانتهم الراهنة بوصفهم مصدرًا ثمينًا للصرعات العابرة، والأزياء، والمخدرات. فقد عُدّت الطبقات الدنيا دونية علنًا وعلى رؤوس الأشهاد، لا بطريقة سرية وتُشعر بالذنب. بل إن رجلًا محترمًا وطيبًا مثل آدم سميث قبل هذه الدونية دون أي تردد أو تفكير. كتب سميث، بوصفه مستشارًا سياسيًّا، ما يأتي دون أي شعور بأنه يناقض أهم أجزاء (ثروة الأمم):

تمثل الضرائب المفروضة على الفقراء الكادحين والجديين، قوانين ضبط النفقات وإلغاء الهدر، وتدفعهم إما إلى الاعتدال في/ أو الامتناع كليًّا عن استخدام الكماليات غير الضرورية التي لن يتحملوا عبء استخدامها. أما قدرتهم على رعاية عائلاتهم وتنشئتها، نتيجة لهذا الاقتصاد الإجباري في النفقات، فكثيرًا ما تزداد بالضريبة بدلًا من أن تنقص)[٦٧].

ربما. لكن التفكير بالضرائب يمكن أن يدفع المرء إلى ما وراء مجرد الخطأ. بدأ سميث يفقد أي إحساس بالتبعات والمنطق العقلاني حين أعلن: (لكن كل ضريبة تمثل لدافعها شارة، لا للعبودية، بل للحرية. فهي تشير إلى أنه مواطن خاضع لحكومة، فعلًا، لكن نظرًا لأن لديه بعض الأملاك، لا يمكن أن يكون ملكًا لسيد)[٦٨]. ولا بد أنه فقد عقله تمامًا حين كتب عن الدخل الذي يتلقاه مالك الأرض أجرة لأرضه: (مع أن من الضروري أخذ جزء من دخله لدفع نفقات الدولة، إلا أن ذلك لا يسبب إحباطًا لأي نوع من الصناعة)[٦٩].

تدفع الضرائب الناس إلى الجنون. اعترف سميث بذلك حين أعلن، بجنون تقريبًا: (بعد استنفاد كل الموضوعات المناسبة لفرض الضرائب.. يجب فرضها على الموضوعات غير المناسبة)[٧٠].

لم تكن توصيات آدم سميث كلها عديمة النفع، أو معدومة

القيمة، أو متناقضة، أو لا عقلانية. فقد رفض ملكية الحكومة للأعمال والنشاطات التجارية بجملة واحدة: (لا يمكن للدولة أن تكون عظيمة حين يتمتع الملك بوقت فراغ ليصبح صيدلانيًّا)[٧١].

بدد الضباب عن الدين القومي، بوصفه فحشًا أخلاقيًّا (خلافًا لآراء جون مينيارد كينز(*) وميلتون فريدمان(**)). فهو يتيح للحكومة التسلل سراً:

يشعر الناس على الفور تقريبًا بكل ضريبة جديدة. فهي تسبب دوماً بعض الهمهمة المتشكية وتقابل ببعض المعارضة.. أما الدين فلا يشعر به الناس على الفور، ولا يسبب اعتراضًا ولا شكوى.

والاختلاس: حين تتراكم الديون القومية إلى درجة معينة، نادرًا ما تسدد بطريقة نزيهة وكاملة[٧٣].

والتزوير: لأن تخفيض قيمة العملة الناجم عن العجز عن السداد يجب تسميته.. ظلمًا وخداعاً خائناً[٧٤].

ويؤدي المحتوم إلى التضخم، الذي..

يسبب أكثر أنواع تدمير ثروات الناس الخاصة ضرراً ووبالاً وشمولاً؛ ويثري في أغلب الحالات الدائن الكسول والمسرف على حساب المدين المجد والمقتصد[٧٥].

(*) (١٨٨٣-١٩٤٦): اقتصادي إنكليزي شهير رأى أن السياسة الناجعة للقضاء على البطالة والسيطرة على التضخم تقوم على تنويع معدلات الفائدة، ومعدلات الضرائب، والإنفاق العام، وأن الإنفاق الحكومي يجب أن يعوض عن نقص الاستثمار في حقب الانكماش (المترجم).

(**) (١٩١٢-): اقتصادي أمريكي فاز بجائزة نوبل عام ١٩٧٦. (المترجم).

تحت عنوان (في نفقات الدفاع)، نصحنا آدم سميث بأن نشعر بالامتنان والعرفان لأن الدفاع باهظ الكلفة: (في الحرب الحديثة، تمنح التكلفة الباهظة للأسلحة النارية ميزة واضحة للأمة التي تستطيع دفعها)[٧٦]. لهذا السبب انهار جدار برلين. ولم ينجح نظام (حرب النجوم) الدفاعي، لكن لم تقدر الولايات المتحدة على اكتشاف فشله إلا بعد تمكنها من بناء آخر جديد. أما الاتحاد السوفييتي فلم يكن في وضع اقتصادي يمكنه من تهديد أمريكا بـ (الإفلاس المؤكد المتبادل).

كان سميث مؤهلًا ليكون مستشارًا للأمن القومي من الدرجة الأولى في إدارة ريغان. لكن حتى أكثر النصائح فائدة وصدقًا لا يمكن تقديمها مرتين. (إن اختراع الأسلحة النارية، الذي يبدو للوهلة الأولى شديد الإيذاء والضرر، مفيد لاستدامة الحضارة وتوسعها في آن معا)، كما كتب سميث[٧٧]. وادي الرافدين هو مهد الحضارة. ويمكن للعراقيين تحمل المدافع.

يجب على المستشار السياسي، أكثر حتى من السياسيين الذين يطلبون مشورته، أن يعرف أين يقف. وينبغي ألا يكون ذلك المكان قريبًا من الاقتصاد. في نهاية الجزء الرابع من (ثروة الأمم)، يلاحظ سميث أن (الملك، من أجل الأداء الناجح الذي لا تكفيه أي حكمة بشرية أو معرفة إنسانية، يعفى كليًّا من أداء واجب..

الإشـراف على صناعة الناس الخاصـة)[٧٨]. ويتابع ليضيف أن كل ما يجب قوله عن الواجبات التي تؤديها الحكومة هو:

> **أولًا، واجـب حمايـة المجتمـع مـن العنـف وغـزو المجتمعـات المستقلة الأخرى؛ ثانيًـا، واجب حماية كل عضـو من المجتمـع بقدر المستطـاع من ظلـم أي عضو أو قهـره..؛ ثالثـاً، واجب إقامة بعض الأشغال العمومية والمؤسسـات العامـة والحفـاظ عليهـا، دون أن تصـب إقامتهـا والحفاظ عليها في مصلحة فرد بعينه، أو عدد قليل من الأفراد[٧٩].**

ومـع ذلك، وفيما يتعلق بالنقطة الثالثـة، إذا لم تصب الأشغال والمؤسســات العامة في مصلحة أي فرد، فلماذا ندفع، نحن الأفراد، مـن مالنا لإقامتها والحفاظ عليهـا؟ يعيدنا هذا - مع آدم سميث - إلى السياسة.



١٢

كتاب آدم سميث الضائع

لم يؤلف آدم سميث كتابًا عن السياسة. هنالك عدد من الأسباب التي أدت إلى عدم اكتمال الجزء الثالث من ثلاثية سميث للتحسين والتطوير، عمله حول (مبحث القانون). فقد انشغل بتنقيح (نظرية العواطف الأخلاقية). وأصبح مسؤولًا حكوميًّا في اسكتلندا. ثم مات.

لكن أتساءل: هل يوجد سبب آخر؟ كان سميث فيلسوفًا أخلاقيًّا. وربما أدرك في مرحلة ما أن السياسة ليست المكان المناسب للفلسفة والأخلاق. هل حدث ذلك عند كتابة الجزء الخامس من (ثروة الأمم)؟ الهامش القديم الذي كتبه سميث عن نفسه في (نظرية العواطف الأخلاقية) واهتمامه بـ (الحقيقة) لا بـ (الصواب)، لا

يمكن تطبيقه على التفكير في السياسة. فالسياسة تتعلق بالصواب، بل بالخطأ.

تأسست النظم السياسية على مفارقات أعمق من أن تطولها الفلسفة. وأدرك آدم سميث ذلك حين كتب (نظرية العواطف) في خمسينيات القرن الثامن عشر. وألمح إليه في الفصل الأول: (السجن أكثر نفعًا بالتأكيد لعامة الناس من القصر؛ والشخص الذي شيد الأول موجه عمومًا بروح وطنية أكثر استقامة من ذلك الذي بنى الآخر)[١]. لكن لا يقول للطفل حديث الولادة شيئًا مثل: (في يوم ما ستصبح مأمور سجن ليفينورث).

ثمة معضلة تدحض أفضل نيات النظم السياسية وتنقض أنبل مقاصدها. إذ تحمل القيادة السياسية مسؤولية (ترويج رخاء الأمة وتشجيع ازدهارها، عبر ترسيخ الانضباط ومنع كل أنواع الرذيلة والسلوك غير اللائق)، كما كتب سميث[٢]. أما إهمال ذلك (فيعرض الأمة إلى كثير من الاضطرابات الفظيعة والفواحش الشنيعة، في حين أن المغالاة في التطبيق تؤدي إلى تدمير الحرية والأمن والعدالة)[٣].

لا تستجيب السياسة لنظام الحرية الطبيعية الواضح والبسيط. لنتخيل سياسيًّا يقف على المنبر الانتخابي ويقول مثلًا: (افعلوا ما تشاؤون)!!

وفيما يتعلق بالنوع الأكثر نجاحًا من السياسيين، وصف سميث شخصيتهم في قسم أضافه إلى (نظرية العواطف) عام ١٧٩٠:

ليس لديهم سوى القليل من التواضع؛ وكثيرًا ما يكونون مدعين، ومتغطرسين، ووقحين؛ ويبالغون في الإعجاب بأنفسهم، ويغالون في ازدراء الآخرين.. ووقاحتهم المغالية المؤسسة على الإعجاب المتطرف بالذات، تذهل الجمهور.. والنجاح المتكرر والمدهش غالبًا لأكثر الدجالين والمدلسين جهلًا.. يظهر إلى حد كاف مدى سهولة التأثير في الجماهير عبر أكثر الادعاءات غلوًا وتطرفًا وبهتانًا[٤].

لكن – وفي السياسة دومًا (لكن).. حين تُدعم هذه الادعاءات بدرجة عالية من الجدارة الحقيقية والراسخة، وحين تُعرض بالألق البراق الذي يسبغه عليها التظاهر المتباهي، وحين تساندها قوة عظيمة رفيعة المرتبة.. كثيرًا ما يذعن حتى الحصيف صاحب الحكم المنطقي الرزين ويعجب بها[٥].

لكن أشد ما حير سميث وأربكه في السياسة أحجية اختلاط العدل بالظلم حتى في أكثر النظم السياسية منطقية وعقلانية وجدارة. في (ثروة الأمم)، ذكر المتطلبات الضرورية للنظام السياسي الذي يشجع رفاه الناس وسعادتهم:

من النادر أن تزدهر التجارة والتصنيع في أي دولة لا تتمتع بإدارة نظامية للعدالة، حيث لا يشعر الناس

بأنهم آمنون في حيازة أملاكهم، وحيث لا يدعم القانون تنفيذ العقود، وحيث لا تستخدم سلطة الدولة بانتظام - كما مفروض - في فرض سداد الديون[٦].

العدالة ضرورية لحماية الملكية. لكن الملكية غير عادلة بالضرورة (كلما زادت الملكية تفاقم الظلم)[٧]. كتب سميث يقول إن بمقدورنا العيش دون قانون. (حين لا توجد ملكية.. لا تغدو الحكومة المدنية ضرورية كثيراً)[٨]. لكننا سنواجه عندئذ عكس القانون (والملكية) ونقيضه، كما كانت الحال في عهد الإقطاع، أو ماو تسي تونغ. لذلك، يجب إقامة النظم السياسية للحفاظ على ظلم الملكية عبر إدارة العدل.

لم يكن آدم سميث عبثيًّا. ومن الأفضل ترك الانتقادات السياسية إلى جوناثان سويفت(*) أو برنارد مانديفيل(**). في بدايات القرن الثامن عشر، كتب مانديفيل (حكاية النحل الخرافية)، وهي قصيدة وتعليق قال فيهما: (أمتدح نفسي على إظهار أن.. ما ندعوه بالشر، الأخلاقي والطبيعي، في العالم يعد مبدأ عظيمًا يجعلنا كائنات اجتماعية)[٩].

الأسوأ أن تفعل الجماهير شيئًا للصالح العام

..

(*) (١٦٦٧-١٧٤٥): رجل دين، وروائي، وناقد إنكليزي ساخر ولد في أيرلندا. ركز سويفت سخريته المريرة على السياسة والأدب والمجتمع البشري. من أشهر أعماله (رحلات غوليفر) (١٧٢٦). (المترجم).

(**) (١٦٧٠-١٧٣٣): طبيب وناقد إنكليزي ساخر ولد في هولندا. (المترجم).

.. في حين أن الترف

يستخدم مليون فقير،

والفخر المقزز مليونًا آخر:

فإن الحسد والغرور

هما وزيرا الصناعة؛

حماقتهما المحببة؛ التقلب،

في الطعام، والأثاث، واللباس،

تلك النقيصة الغريبة السخيفة، صنعت

العجلة ذاتها التي أدارت التجارة.

..

وهكذا، ترعى الرذيلة الإبداع،

الذي حمل، مع الزمن والصناعة،

الحياة ومباهجها، ووسائل العيش الرغيد،

إلى ذرى سامقة

غدت فيها حياة الفقير اليوم

أفضل من حياة الغني أمس

ولا شيء يمكن إضافته[١٠].

من أعمال مانديفيل الأخرى (دفاع متواضع عن المواخير العامة؛ أو، مقالة عن الدعارة). كان أكثر قدرة حتى من سويفت على إخفاء مشاعره الحقيقية في مساعيه (لإذهال البرجوازيين). وهذا ما سبب إخفاق سميث في فهم روح الدعابة لديه في (نظرية العواطف الأخلاقية): (لكن هناك نظام آخر يبدو أنه يلغي التمييز الفاصل بين الفضيلة والرذيلة، والنزعة نحوه، في هذا الاعتبار، مؤذية ووبيلة: أعني نظام الدكتور مانديفيل)[١١].

ليس النظام الذي (يبدو أنه يلغي التمييز الفاصل بين الفضيلة والرذيلة) سوى علم السياسة في ثماني كلمات.

تتمثل إحدى الإجابات عن المعضلة السياسية في التوسيع الشعبوي لحريات سميث الواضحة والبسيطة. يمكن للمنتقدين المشككين في السياسة في العصر الحديث الاستشهاد على أقل تقدير بخطبة ونستون تشرشل الشهيرة أمام مجلس العموم البريطاني في نوفمبر ١٩٤٧: (الديمقراطية هي أسوأ أنواع الحكم، باستثناء تلك الأشكال الأخرى التي جربت واختبرت). لكن الديمقراطية لم تكن قد جربت واختبرت في زمن سميث. ولم يكن لديه مثل هذا الملاذ ليلجأ إليه.

لا شيء يدهش على الصعيد النظري في حكم الشعب وبالشعب. على سبيل المثال، في إحدى محاضرات سميث حول فلسفة الأخلاق، قال – منظرًا – إن من المستحيل إلغاء الرق في الجمهورية لأن

(الأشخاص الذين يضعون القوانين كلها في ذلك البلد يملكون عبيدًا)[١٢].

معظم المعلومات المتوافرة في القرن الثامن عشر عن الديمقراطية يتجاوز عمرها ألفي سنة. وعلى شاكلة أي مثقف، عرف سميث تاريخ الحروب البيلوبونية. وقصتها طويلة لكن يمكن روايتها باختصار: أثينا الديمقراطية خسرت الحرب.

لم يعد سميث التجارب الأحدث عهدًا للديمقراطية مشجعة. وعاين البروتستانتيين من أتباع كالفن في سويسرا، واستنتج أن (حقهم في انتخاب راعي كنيستهم.. لم ينتج على ما يبدو شيئًا سوى الفوضى والارتباك والتشوش، فضلًا عن إفساد أخلاق رجال الدين والناس في آن معًا)[١٣] (أمر جون كالفن بإحراق مايكل سيفيتوس المناهض لعقيدة التثليث حيًّا عام ١٥٥٣). ولم يتأثر بالديمقراطية التي شاهدها حتى ذلك الحين في المستعمرات الأمريكية. ولاحظ (الفصائل الفئوية المتخمة بالأحقاد والضغائن المؤذية التي يتعذر فصلها عن الديمقراطيات الصغيرة)[١٤]، وتوقع أن (يتضاعف ضرر هذه الفصائل الفئوية عشر مرات عن ذي قبل) إذا فاز الأمريكيون باستقلالهم[١٥]. واعتقد أن النزاعات الأمريكية الداخلية (سوف تتفجر قريبًا على الأرجح إلى عنف سافر وسفك دماء)[١٦]. أخطأ سميث فيما يتعلق بـ (قريبًا). إذ سيتطلب الأمر خمسة وثمانين عامًا قبل قصف فورت سومتر(*).

(*) موقع أول معركة في الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١). (المترجم).

لكن، إذا تعذر على المرء وضع ثقته في الأغلبية، فلا بد أن يضعها في الأقلية. وهذا ما فعله سميث: (يعتمد استقرار كل نظام قائم على الحكم الحر وديمومته، على القوة التي يمتلكها الجزء الأكبر من الزعامة، والارستقراطية الطبيعية في كل بلد، للحفاظ على أهمية كل منهما)[١٧]. هذه الثقة بـ (الأرستقراطية الطبيعية) قادت سميث إلى منطق خطر، بل مشابه للمنطق الذي ساد في أمريكا اللاتينية:

حيث توضع القوة العسكرية تحت قيادة أولئك الذين يمتلكون أكبر مصلحة في دعم السلطة المدنية، لأنهم يمتلكون أكبر حصة من السلطة، يستحيل على الجيش أن يمثل خطرًا على الحرية.. فالأمن الذي يمنحه إلى الملك يجعل تلك الغيرة المسببة للمتاعب، التي تبدو في الجمهوريات الحديثة كأنها تراقب أدق التفاصيل، ومستعدة دومًا لتعكير صفو كل مواطن وأمنه، غير ضرورية[١٨].

من المستحيل تخيل آدم سميث يكتب مثل هذا الهراء عن الأخلاق أو الاقتصاد. فلديه اليد الخفية التي تحمل عصا المارشالية. وضع (المراقب الحيادي) في منزل فخم وسط أرض واسعة. وفهم آلية عمل الحرية الطبيعية في أخلاقنا ومحافظ نقودنا، لكنه لم يمتلك المفتاح لتشغيلها في صندوق الاقتراع. وحين خلط مكونات وصفة تحضير السياسة، استبدل بالحرية الطبيعية الحيوية تلك المصنعة والمعالجة، و(الأرستقراطية الطبيعية) المعدلة وراثيّاً.

لا فائدة من انتقاد سميث. فبعد أكثر من مئتين وثلاثين سنة من التجربة والخبرة، ما زلنا نجهل الكثير عن الديمقراطية. اكتشفنا أنها تعمل بنجاح. فإذا قارنت البلدان التي تتمتع بأعظم درجة من الديمقراطية مع تلك التي تتمتع بأعظم قدر من الأشياء الأخرى التي تثمنها وتقدر قيمتها، تصبح متماثلة. لكن تقصي حالة أي حكومة منتخبة ديمقراطيًّا يؤدي إلى شعور بالذهول العميق المربك حول أسباب نجاح الديمقراطية. وكل انتخابات ديمقراطية تنتج عرضًا موحشًا وهزيلًا لآلية عملها الناجحة. ربما يكمن السبب في أننا، نحن البشر بكل حماقاتنا، نحيّد بعضنا بعضاً. وربما لا يختلف الأشخاص المتمكنون سياسيّاً عن الآفات والضواري.

يمكن لجرعات صغيرة من السياسة أن تجعل الحياة أفضل حالًا، بالطريقة التي قيل فيها إن تناول جرعات صغيرة من السم كل يوم جعل ملك بونتوس، ميثريديتيس، يتمتع بالمناعة من التسمم. لكن السياسة، بوصفها مشروعًا، غير مناسبة لتكون جزءًا من مشروع لتحسين حياة البشر. السياسة مشروع مختلف اختلافًا كليًّا. عرف سميث هذه الحقيقة. وقدم الحجة على التمايز بين الأخلاق والسياسة في (نظرية العواطف الأخلاقية):

> **ما هي المؤسسة الحكومية التي تنزع إلى تشجيع سعادة البشر بوصفها المطلب السائد عموماً للحكمة والفضيلة؟ الحكومات كلها مجرد علاج قاصر لنقصهما[١٩].**

أكد سميث على التمييز بين الاقتصاد والسياسة، وضرورة فك الارتباط والاشتباك بينهما في (ثروة الأمم):

الجشع الوضيع والنزعة الاحتكارية في التجار، الذين يجب ألا يكونوا حكام البشر، وهم ليسوا كذلك، يمكن منعهما بكل سهولة، وإن تعذر تصحيحهما، من تعكير صفو أي شخص وحياته الهادئة، باستثنائهم هم أنفسهم[٢٠].

وعن السياسة نفسها، أعلن:

إن عنف حكام البشر وظلمهم شر مستطير قديم العهد، وأخشى أن طبيعة شؤون البشر نادرًا ما تسمح بعلاجه[٢١].





بحث استقصائي في آدم سميث

اعترف آدم سميث فعلًا بعلاج واحد لعنف حكام البشر وظلمهم: يجب أن يحكم البشر أنفسهم بأنفسهم. ولم يقترح اختيار قادتنا ديمقراطيًّا. فقد تبين أنهم لا يتخلون عن العنف والظلم بأي حال من الأحول. ولا عن الحمق والغباء. فالأنا لديهم بارزة متضخمة. وهم مع مرؤوسيهم ومساعديهم يلهون ويعبثون، ويماطلون ويسوفون، ويضيعون الوقت ويؤجلون النظر في القضايا الملحة ذات الأهمية الوطنية. ولا يصغون إلا إلى آراء زوجاتهم الحمقاء، ولا يطيعون سوى مستشاريهم السياسيين وأفكارهم الهوجاء. ما أراد سميث منا فعله هو استخدام قدراتنا الذهنية والجسدية لجعل حكام البشر غير ضروريين وغير مهمين بقدر الإمكان، وتركهم في قلاعهم التي تذروها الريح مثل أسلافهم من السادة الإقطاعيين.

بهـذه الطريقة وغيرهـا، اعتمدت فلسفـة آدم سميث اعتمادًا راسخًـا على التشبث بأمان الواقع الحقيقي. يمكن استخدام أفكاره وتطبيقهـا. إذ إن (نظريـة العواطف الأخلاقيـة)، و(ثروة الأمم) يـزودان القارئ بأفـكار عملية قابلـة للتطبيق لا أفـكار أنطولوجية (مهمـا كان معناهـا). كأنما الامتحـان الذي أجريتـه عن المقدمة التمهيديـة للفلسفة أسقط كتاب كانط المعقد (نقد العقل المحض)، واستبدله بمقالة نقدية سهلة لشقيقتي الصغرى!

إلا أن سميث كان فيلسوفًا. وربما يعرض كتابا (نظرية العواطف الأخلاقيـة)، و(ثـروة الأمم) برنامجًـا للتفكـير العملـي، لكنهمـا لا يقدمـان خطـة للتطبيق العملـي. ولا يوفـران بالتأكيـد برنامجًا سياسيًّا، مثلما أظهرت نصيحة سميث فيما يتعلق بالسياسة.

يعـرف قاموس ويبستر الفلسفـة، في المعنى الرابع للكلمة، بأنها (جملة أفكار الفـرد ومعتقداته)، (وبالمصادفة، يجب قراءة المعنى الرابـع للتوصـل إلى تعريف مفيد للفلسفـة). لا حاجة بنا لتفحص جملـة أفكار ومعتقدات الرجـل الذي يصلح سيارتنـا، إلا إذا أدين بسرقـة أسطول مـن السيـارات أو تبنى فكرة تقول بضـرورة وضع الدبس في المكربن (حـارق الوقود). إذ يجب ألا تهمنا كثيرًا الحياة الخاصـة للميكانيكـي - ولا حتى للرئيـس. لكن الفيلسـوف مسألة مختلفـة. لدينا اهتمام مشـروع بمعرفة ماهية الحيـاة التي أنتجت جملة أفـكار آدم سميث ومعتقداته. صحيـح أن حياة الفرد لا تؤكد

حقيقة أفكاره، مثلما تظهر أفكار الرجال عن الممثلة شارليز ثيرون، لكن الحياة معرض للأدلة والبينات في محاكمة تلك الأفكار.

تحظى هذه الأدلة بأهمية خاصة في حالة الفيلسوف الذي يتبنى الحرية ويستخدمها لممارسة معتقده المتبنى. على سبيل المثال، يجد الرومانسيون والمتطرفون الآن أن من الضروري إدانة جان جاك روسو، الذي نال إعجاب ثمانية أو تسعة أجيال. فقد احتفظ مؤلف (العقد الاجتماعي) بغسالة جاهلة خليلةً له وعاملها معاملة وحشية على مدى ثلاثة وثلاثين عامًا. أما أطفالهما الخمسة فقد وضعوا في ملاجئ الأيتام عند الولادة، ولم يكلف روسو نفسه حتى عناء تسميتهم. عبر سميث نفسه ذات مرة عن إعجابه بروسو، حيث قال لضيف زاره إن: (روسو يوجه القارئ إلى العقل والحقيقة عبر جاذبية العاطفة وقوة الإقناع)[1]. لكن سميث كتب أيضًا رسالة من باريس إلى ديفيد هيوم عن (هذا المتحذلق المنافق). وأضاف: (أنا مقتنع تمامًا بأن روسو وغد كبير.. مثلما يعتقد الكل هنا)[2]. ومن المشكوك فيه أن سميث سمح لنفسه بالخضوع لتوجيه روسو نحو العقل أو الحقيقة أو أي شيء آخر دون مراقبة دقيقة للسبيل الذي دفع إليه. فروسو، وليس سميث، هو من كتب: (كل شيء يعتمد في أصله وفصله على السياسة)[3].

من كان آدم سميث فعلًا، وإلى أي مدى يجب ألا نتدخل في حياته الشخصية.

لدينا سبب وجيه لنعرف المعلومات الضرورية عن حياة آدم سميث، لكن تواجهنا مشكلتان اثنتان. المشكلة الأولى يمثلها سميث ذاته. إذ لم يترك مذكرات؛ كان مغرمًا بالمراسلة دون اهتمام كبير بجمع الرسائل التي تلقاها؛ بل أحرق ملاحظاته المتعلقة بالأبحاث والدراسات. ولم يكن لديه متملق مداهن يدون كل فكرة وكل لمحة. ولا مدونة على الإنترنت.

المشكلة الثانية نمثلها نحن وما اعتدنا معرفته عن العظماء أو الذين يدعون العظمة. تعودنا البحث عن المعلومات كلها. ثمة سيرة مستمرة لليندون جونسون، تطلبت كتابتها وقتًا يعادل المدة التي قضاها ليندون جونسون فاعلًا في حياته السياسية. وسوف تتطلب مني قراءتها مدة أطول. إن النفس الإنسانية لا يمكن أن يعلم أغوارها سوى بارئها، ولذلك فإن أفضل ما يمكن للبشر الفانين الحصول عليه من مثل هذا المشروع التطهري مجرد فهم لشخصية موضوع السيرة العظيمة.

لم تبتكر (الشخصية) في القرن الثامن عشر؛ فقد قبلت وجهة نظر كوبرنيكوس عن الكون. ولم تعد الأرض قابعة في مركزه؛ لكن نظرة الأفلاطونيين الجدد الرومانسية للكون لم تتشكل بعد: لم تأخذ الذات مكان الأرض بعد. ولم تكن مضمومة النعرات العصبية اللاإرادية والسمات والخصائص المميزة والأفكار اللامعقولة التي تجعل شخصًا مختلفًا عن آخر، مهمة وجوهرية. فقد كانت

الشخصية تعني في القرن الثامن عشر شخصًا لا شيئًا. ويبدو أن رالف والدو إيمرسون، المتشدق المؤمن بالذات حقيقةً وحيدة، هو من ابتدأ استخدام الكلمة بالمدلول الذي نستعمله الآن.

كان كل فرد في القرن الثامن عشر يعد شخصًا. فإذا امتلك أي خصال شخصية مميزة، استحق التنويه والإشادة بشخصه. وكما هي أفضل الأشياء في الحياة، فإن الشخصية مملة ورتيبة. (الرذيلة نزوية ومتقلبة، في حين تتصف الفضيلة بالنظام والترتيب)، مثلما كتب سميث في (نظرية العواطف)[٤]. وبرأيه فإن (الفارق المميز بين رجل المبادئ والشرف والشخص التافه عديم القيمة هو أن الأول يتشبث، في المناسبات والحالات كلها، بتصميم وثبات بمبادئه، ويحافظ طوال حياته على مسار متكافئ من السلوك. أما الآخر فيتصرف بطريقة متقلبة واعتباطية، حيث يكون للدعابة أو الميل النفسي أو المصلحة اليد العليا)[٥].

كل شخص في العصر الحديث عديم القيمة، وفقًا لرأي سميث. ولا عجب أن العديد من الأشخاص الذين عاشوا في القرن الثامن عشر ونالوا الإعجاب لا (يبعثون أحياء على صفحات الكتب) في نظرنا، نحن المحدثين. في هذه الأثناء، يُبعث بعض من الأقل نيلًا للإعجاب، مثل روسو، ويدب فيهم النشاط والحيوية إلى حد يتطلب التخلص منهم اليوم. تغلب ريتشارد بروكهايزر على مشكلة الشخصية الطيبة هذه في تأريخه لسيرة جورج واشنطن (الأب المؤسس):

تقلقنا حقيقتنا الصادقة الموثقة - فيما يتعلق بتمثيلاتنا وهل تعبر فعلًا عمن نكون (حقًّا). كان الأمريكيون في القرن الثامن عشر أكثر اهتمامًا بالقصة الخارجية وأقل حماسة للفصل بين ظاهر الشخص وباطنه. كانت (الشخصية).. دورًا يلعبه المرء إلى أن يصبح هو؛ عنت (الشخصية) أيضًا كيف يحكم الآخرون على الدور. أداء ومراجعات في آن معًا. ولكل إنسان شخصية يحافظ عليها؛ كل إنسان ممثل شخصية(٦).

كان دور آدم سميث، على شاكلة فريد ميرتز في (أحب الاقتصاد السياسي)، منظمًا ومرتبًا ومملًّا مثلما يأمل أي مروج لأفكاره ومدافع عن شخصيته. فقد عاش معظم سنوات الرشد مع أمه الأرملة، مارغريت دوغلاس سميث، وابنة خاله العانس، جانيت دوغلاس. تبادل معهما الحب والود. (ولا شيء يمكن إضافته).

لا تناسب تعليقات سميث على أمه، حين أبلغ صديقه الناشر وليام ستراهان عن وفاتها عن عمر ناهز التسعين، ما تتناوله المذكرات عادة في القرن الحادي والعشرين: (أحبتني بالتأكيد أكثر من أي شخص آخر فعل أو سيفعل؛ وأنا أحببتها وأجللتها أكثر من أي شخص سوف أحبه أو أحترمه)(٧).

ثمة رواية عن حادثة عائلية واحدة وصلتنا عام ١٧٨٨ تقريبًا، عبر السير والتر سكوت(*)، الذي كان حينذاك طالبًا في جامعة

(*) (١٧٧١-١٨٣٢): شاعر وروائي اسكتلندي. (المترجم).

إدنبرة. قال سكوت إن سميث سبب لجانيت دوغلاس حين جلست العائلة لتناول الشاي: (ارتباكًا محرجًا حين أهمل تمامًا دعوتها إلى الجلوس، وظل يدور حول المائدة.. ليتوقف لسرقة قطعة سكر من السكرية، التي تعمدت العانس المحترمة وضعها على ركبتها، بوصف ذلك الطريقة الوحيدة للحفاظ عليها من عمليات النهب المبذرة)[٨]. لكن بمقدور السير والتر سكوت تلفيق قصة من أي شيء، وكثيرًا ما فعل ذلك.

أُحضر ديفيد دوغلاس، وهو حفيد خال آخر لسميث، إلى العائلة حين كان (سميث) أعزب في الخامسة والخمسين. لم يكن التلفزيون، ولا ألواح التزحلق، ولا ألعاب الفيديو قد اخترعت بعد، فاستغل الفرصة وأمضى وقت فراغه في إعطاء الدروس لديفيد (نأمل أن يكون قد لجأ إلى أسلوب ميسر لتدريسه "التغيرات في قيمة الفضة على مدى القرون الأربعة الماضية"!). أصبح ديفيد دوغلاس وارث سميث. وخلافًا للعقدة في قصة ورثة الشخصيات البارزة التي ألفناها (ما يقابل "إعادة التأهيل" بلغة الاسكتلنديين)، سوف يرتقي دوغلاس منصة القضاء الاسكتلندي باسم اللورد رستون.

ليس ثمة سجل يتهم سميث بالمراوغة، أو الخداع، أو بالغش، أو حتى بالرغبة في العمل في الشركات التي ابتكرتها الطبقة الوسطى المبجلة التي ينتمي إليها. فقد استقال من مهنة التدريس في جامعة غلاسكو ليعمل مدرسًا ومعلمًا (خصوصيًّا) لدوق بوكليوتش. ولأنه

تـرك العمل في منتصف العام الدراسي، حـاول إعادة الرسوم التي دفعها طلابه. أحبه هؤلاء إلى حد رفضهم قبول المال المردود. فأعلن سميـث: (يجب ألا تحرموني من هذا الرضى؛ لا، وحق السماء، أيها السـادة، لا تفعلوا). ثم أمسك بأقرب طالب من معطفه ووضع المال في جيبه[٩].

تلقـى سميث راتبًا تقاعديًّا مدى الحياة على تعليم الدوق، الذي دعاه (صديقًـا أحببته وأجللته، لا بسبب مواهبـه الفكرية العظيمة فقط، بل كل فضيلة تمتع بها)[١٠]. بعد سنوات، ساعد الدوق سميث في الحصول على منصب حكومـي، ورد سميث بعرض بالتنازل عن راتبـه. أما الأسلوب الوحيد الـذي اتبعه الدوق لإقناعه بالتخلي عن هـذا العمـل المشرف الـذي يعبر عن الكبريـاء والاعتـزاز بالذات، فهـو إسباغ مزيد من الشرف الشخصي عليـه. ومثلما شرح سميث في رسالـة بعث بهـا إلى أحد الأصدقاء: (أرسـل لي صاحب النيافة يقـول إنني لم آخـذ بالاعتبار مـا يناسب كرامته وشرفـه، مع أنني أخـذت بالاعتبار ما يناسب كرامتي وشـرفي؛ وإنه لن يتحمل معاناة الاشتباه بأنه دبر وظيفة لصديقه لكي يحرره من عبء ذلك المعاش التقاعدي)[١١].

عاش سميـث حيـاة مريحـة وميسـورة بوصفـه عضـوًا في ما وصفه (ذلـك العرق غير الثري من البشر الذيـن شاعت تسميتهم بالكتّـاب)[١٢]. ووزع معظـم دخلـه هنا وهناك. ثمـة مثال يبرز في

رسالة تجارية كتبها سميث وبيعت في مزاد جرى عام ١٩٦٣[١٣]. شرح سميث قائلًا إن من الضروري إرسال مئتي جنيه (مبلغ يعادل راتبه التقاعدي في ثمانية أشهر) إلى (ابن أخ ويلزي) بحيث لا يضطر الشاب إلى بيع ترقيته إلى ضابط في الجيش. لم يكن سميث يملك عربة خاصة أو ينفق بإسراف على بيته أو ملابسه. كان ضيوفه على العشاء أيام الأحد يجلبون طعامهم معهم. (أكد وضعه المالي عند وفاته، مقارنة بمستوى حياته المعتدل في البيت، دون أدنى شك ظنون معارفه المقربين، فقد خصص نسبة كبيرة من مدخراته السنوية لمكاتب الأعمال الخيرية السرية)[١٤].

كان سميث رجلًا ضخمًا في كل شيء، بدءًا بالكفين وانتهاء بالأنف. وفي صوره المرسومة شبه بذلك الرجل الآخر المصمم على الاحتفاظ بنمط سلوكه، جورج واشنطن، لكنه أكثر بدانة وأقل ابتلاء بالديمقراطية. (كانت ملامحه رجولية ولطيفة)، مثلما قال أحد الأصدقاء[١٥]. مع (ابتسامة ودودة يتعذر التعبير عنها بالكلمات)، كما أضاف آخر[١٦].

هنالك ملمح مقلق، للقارئ الحديث، فيما يتعلق بالفضائح الرومانسية التي طالت سميث: لم يتورط في أي واحدة. وليس لدينا سوى القليل من المعلومات عن ذلك النوع الآخر غير الفضائحي أيضًا. والمؤرخ الوحيد لسيرة سميث الذي عرفه شخصيًّا هو دوغلاس ستيوارت، الذي احتل كرسي سميث القديم في جامعة

غلاسكو ودرس فلسفة الأخلاق، وابن زميل له على مقاعد الدراسة. يمكن الاشتباه بأن ستيوارت متكتم لا يفصح عن مشاعره. لكنه روى القصة الآتية:

في المرحلة المبكرة من حياة السيد سميث، عرف أصدقاؤه أنه ارتبط عدة سنوات مع سيدة بارعة الجمال فائقة الذكاء.. ولم أتمكن من معرفة الظروف التي حالت دون زواجهما؛ لكن أعتقد أن من المؤكد بعد هذه الخيبة أنه تخلى عن فكرة الزواج. والسيدة التي ألمح إليها توفيت دون أن تتزوج أيضًا.. وتشرفت برؤيتها حين بلغت الثمانين، وما زالت تحتفظ بآثار جمالها الغابر[١٧].

ويمكن الاشتباه أيضًا بأن ستيوارت كان يسهر ويقرأ الشعر الغزلي.

كتب المؤرخ الأشمل والأحدث عهدًا لسيرة آدم سميث، إيان سيمبسون روس (١٩٩٥) يقول: (يُخشى ألا يتجاوز كاتب السيرة كثيرًا، حين يتناول موضوع حياة سميث الجنسية، مجرد الإسهام بهامش في تاريخ السمو والترفع عن الأهواء الجنسية)[١٨].

إلا أني لن أكون قارئًا حديثًا حقًّا إذا لم أحاول. ترك سميث بضعة تلميحات إلى أنه رجل كباقي الرجال. ويضم كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) تعليقًا عابرًا ومرتجلًا من النوع الذي يقدمه الرجال الذين يعدون أنفسهم مثل غيرهم من الرجال على

الـدوام حين تحبط إملاءات الزي السائد الميـول الطبيعية: (سعت السيـدات.. طوال قرن مضـى تقريبًا إلى ضغـط قوامهن الطبيعي الجميل الملفوف إلى شكل مربع)(١٩). وهنالك أيضًا تلك الإشارة في (ثروة الأمم) إلى (النسـوة المنكودات اللائي يعشن على الدعارة) ويعتمدن على البطاطـا غذاء لهن. ودعاهن سميث (أجمل النساء، في جميـع المناطـق الخاضعة لنفـوذ بريطانيا ربمـا)(٢٠). ولا بد أن (يهمهم) القارئ الحديث ويومئ رأسه.

حـين كان سميث مع دوق بوكليوتش في جولـة مترفة في فرنسا، تعرضـ لغزوة غرامية من ماركيزة فرنسيـة، قال عنها مؤرخ سيرة سميـث في القرن التاسع عشر، جـون راي، إنها (صممت على الفوز بمحبتـه)(٢١). كل ما فعله سميث هو مراوغتها والتملص منها، مما أحرجـه وسلا المسافريـن بصحبته. لكن ربما لم يكـن ذلك نتيجة العفة وحدها. فقد قال أحد الأصدقاء إن السبب الرئيس وراء عدم رغبته بالماركيزة هـو غرامه بسيدة إنجليزية تقيم في البلدة ذاتها. ويبـدو أن ذلـك أدى إلى خيبـة أمـل إضافية إلى تلـك التي وصفها دوغلاس ستيورات. وربما تخلى سميث نهائيًّا عن فكرة الزواج أكثر من مرة. فهذا ما اشتهر به الرجال.

علـى أي حال، فـاز سميث بقلب مـدام ريكوبـوني (وربما أكثر مـن قلبهـا)، التي كانـت ممثلـة شهيرة اعتزلـت المسـرح لتصبح كاتبـة روايـات رومانسيـة أكـثر شهـرة. كتبـت المـدام رسالة إلى صديقها المؤلف والممثـل المسرحي ديفيد غاريك، وهي رسالة تركها

جون راي وغيره من مؤرخي سيرة سميث حتى ستينيات القرن العشرين بالفرنسية لتجنب إحراج القراء:

أوه، يا لهؤلاء الاسكتلنديين! هؤلاء الكلاب الاسكتلندية! يأتون لإسعادي وإزعاجي! أنا مثل البنت الحمقاء التي تصغي إلى عاشق دون أن تفكر في الندم.. افعل بي ما شئت: وبخني، اضربني، اقتلني! لكني أعشق السيد سميث، أحبه كثيرًا. أتمنى لو يأخذ الشيطان كل عقولنا الأدبية، وفلاسفتنا، ويعيد إلي السيد سميث[٢٢].

ولكيلا تتفوق عليه في إطلاق العنان للمشاعر (مع أنه من النوع الاسكتلندي)، ضم سميث مدام ريكوبوني إلى مراجعته لكتاب (نظرية العواطف الأخلاقية):

الشعراء والكتاب الرومانسيون، الذين هم أفضل من يصور عذوبة الحب ورقة الصداقة، وغيرهما من المشاعر الشخصية والعائلية، راسين، وفولتير؛ ريتشاردسون، وموريفو، وريكوبوني؛ أكثر خبرة ومعرفة في مثل هذه الحالات من زينو، أو كريسيبوس، أو إبيكتيتوس[٢٣].

يمكن أن تضم قائمة سميث بعد تحديثها أسماء مثل (ستوبارد، وبنتر، وأبدايك، وبيلو، ودانييل ستيل).

لكن جرت العادة في عصر الأنوار أن تطغى سمات الفرد على خصائص الشخصية، وتمتع سميث بكثير من هذه الخصائص.

كان يتحدث إلى نفسه، ويلتفت يمنة ويسرة باستمرار حين يمشي، كأنما يريد السير في الاتجاهات كلها. أبلغ أصدقاءه ذات مرة بأنه سمع بائعة، حين كان يعبر شارعًا في إدنبرة، تعبر عن تعاطفها مع مجنون منعم على ما يبدو سُمح له بالتجول على غير هدى وحده دون مرافق.

كان شارد الذهن بطريقة محببة. حين كان يعمل على (ثروة الأمم) في منزل والدته في كيركالدي، اعتاد أن يخرج إلى الحديقة بلباس النوم، لكنه شرد مع أفكاره وخرج إلى الطريق. سار إلى دومفيرلين على بعد خمسة عشر ميلًا، قبل أن توقظه أجراس برج الكنيسة من شروده الذهني ليدرك أنه يلبس ثوب النوم وخفين وسط حشد من الناس الداخلين إلى الكنيسة.

قال أحد الذين تناولوا الإفطار مع سميث في لندن إنه، في خضم الحديث المحتدم، وضع الزبدة والخبز والماء المغلي في إبريق الشاي، وشرب، ثم أعلن أنه أسوأ فنجان شاي شربه في حياته. كان زملاؤه الأساتذة في جامعة غلاسكو يتجنبون لعب الورق معه، لأنه يخطئ في اللعب حين تخطر له فكرة. عندما كان يتناول العشاء في مزرعة دوق بوكليوتش، بدأ ينتقد بشدة أحد السياسيين النافذين بينما جلس قريبه مقابله. ولم يتوقف إلا عندما أدرك ذلك. لكنه تابع مكلمًا نفسه، ليقول بسرور وتهور إن انتقاده صحيح.

تصنف غالبية هذه القصص في الفئة التي يدعوها الصحفيون (موثوقة إلى حد انتفاء الحاجة إلى التحقق من صدقيتها). لكن

هنــاك أدلة دامغة تثبت صحتهــا عمومًا في ملاحظات الطلاب التي دونوها أثناء محاضــرات سميث في جامعة غلاسكو عن البلاغة في الخطابة. ذكر سميث شخصية شاردة الذهن في مسرحية فرنسية، و(خربش) أحدهم على الهامش ملاحظة باللاتينية تعني (انظروا من يتكلم).

حين كان سميث مسؤولًا حكوميًّا في إدنبرة، عُين أمام بابه حارس يرتدي ملابس عسكرية مزركشة ويحمل صولجانًا طوله متران. وفي كل يــوم يصل فيه سميث إلى مــكان عمله، يؤدي له الحارس التحية. في أحد الأيام، فــتن بالمراسم، واستخدم عصــاه الخيزرانية عوضًا عــن الصولجان، ليقلــد حركات الحارس ومشيتــه. ولم يستطع أحد فيما بعد إقناع سميث بأنه تصرف تصرفًا غريبًا. يقول ستيورات إن سميث تبنى نظرية أخلاقية تشير إلى أن معظم المتعة التي نستمدها من فنون التقليد والمحاكاة لها علاقة بصعوبتها. أو ربما كان يسخر.

بقــدر مــا اشتهــر بشــرود الذهــن، عــرف بالاتصــال بالواقع والحضــور. فقد ثمــن عاليًا التواصــل الاجتماعي إلى حــد إضافته إلى القسم المتعلق بآداب السلوك في (نظرية العواطف الأخلاقية): (تمثــل العلاقــات الاجتماعية والحــوار.. العلاج الأقــوى لاستعادة هــدوء البال وصفاء الذهن)[٢٤]. كان عضوًا في مجموعة واسعة من النوادي، بدءًا بجمعية لندن الملكية وانتهاء بجمعية إدنبرة المختارة، التي ناقشــت موضوعات مثل الحجم المثالي للمــزارع في اسكتلندا،

وعرضت جائزة لكل من يتمكن من (العثور على حل لأكبر عدد من المداخن). بل نال رتبة نقيب شرفي في حرس مدينة إدنبرة. لكن لا نعلم هل حصل ذلك قبل أن يقلد حارس مكتبه أم بعده.

من المؤكد أن سميث كان شخصًا ودودًا محبوبًا. يروي جون راي حكاية عن أستاذ جامعة فرنسي يدرس الجيولوجيا أجبره سميث على حضور حفلة لموسيقى القرب (الاسكتلندية). وصف الأستاذ الموسيقى بأنها (أشنع صوت سمعته). لكن ذكر الفرنسي نفسه فيما بعد أنه (لم يزر أحدًا في إدنبرة أكثر مما زار سميث)[٢٥].

عرف سميث ديفيد هيوم، وإدوارد غيبون، وبت الابن، والسير والتر سكوت، وفولتير، وروسو، وإدموند بيرك، وجيمس واط، وبنجامين فرانكلين، ودوق روشفو. ومن المستحيل اليوم معرفة هذا الطيف الواسع من الأشخاص. وعلى أي حال لا يوجد مثلهم في هذا العصر.

كان ديفيد هيوم أقرب أصدقاء سميث إليه، فقد قابله في إدنبرة عام ١٧٥٠ تقريبًا. ثمة شيء في علاقتهما السامية الفكرية يشبه العلاقة بين لوريل وهاردي، لكن دون تبادل قذف (قوالب الكاتو) أو نوبات الغضب الصبياني، أو بين هاردي وهاردي، لأنه لم يكن أي منهما نحيلًا أو موجزًا في كلامه. هنالك فقرة في (نظرية العواطف الأخلاقية) يبدو أنها تمثل نسخة الممثل الهزلي، الذي يستفز التعليق الساخر من شريكه، للعلاقة:

لكن من بين كل الروابط مع فرد بعينه، التي أسست على تقدير سلوكه اللائق واستحسان تصرفاته المهذبة، وتؤكدها التجربة المديدة والصحبة الطويلة، وهي عمومًا الأكثر احترامًا.. الرابطة التي ارتكزت على حب الفضيلة، وهي بالتأكيد الأكثر تشبثًا بالفضيلة من بين الروابط كلها؛ ومن ثم فهي الأكثر إسعادًا، وديمومة، وثباتًا[٢٦].

فيما يتعلق بنسخة هيوم، هنالك مشهد هزلي مفصل في ألف ومئتي كلمة ضمن رسالة كتبت في لندن وأرسلت إلى سميث المنتظر في غلاسكو على أحر من الجمر ليعرف كيف استقبل القراء نشر كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية). عدد هيوم أسماء الأشخاص المهمين الذين أعطاهم نسخًا وزوده بتفاصيل عن سيرهم المهنية، قبل أن يقول:

(أخرت الكتابة إليك إلى أن أتمكن من إخبارك شيئًا عن نجاح الكتاب، والتنبؤ بمستقبله ببعض الأرجحية: هل يكون مصيره النسيان والإهمال والفناء، أم يسجل في معبد الخلود. ومع أنه لم ينشر إلا قبل بضعة أسابيع، إلا أنني أعتقد أن هناك أعراضًا قوية ظهرت، إلى حد أنني أستطيع المخاطرة بالتنبؤ بمصيره. مصيره باختصار هو.. لكن قاطعتني زيارة وقحة حمقاء من شخص أتى مؤخرًا من اسكتلندا. وها هو يخبرني أن جامعة غلاسكو تنوي إعلان حاجتها إلى تعيين..).

بعد ذلك يضيف هيوم فقرة مطولة عما يدور من كلام وأقاويل حول من سيشغل المنصب، لينتقل إلى الإشاعات عن المعارف المشتركين بينهما، ثم يستطرد حول صديقهما اللورد كيمس وكتابه (دراسات القانون التاريخية)، الذي يقول عنه هيوم:

(ومن يفكر بتحضير صلصة سائغة من خلطة من الحنظل والصبر، يشبه من يفكر بتركيب مستساغ ومرض من إضافة الميتافيزيقا إلى القانون الاسكتلندي.. لكن بالعودة إلى كتابك، ونجاحه في هذه البلدة، يجب أن أبلغك – وباء كاسح من المقاطعات! أمرت بألا يدخل علي أحد؛ ومع ذلك ها هو رجل يقتحم علي المكان مجددًا. إنه رجل فكر وتبادلنا كثيرًا من الأحاديث الأدبية. أبلغتني بأنك مغرم بالنوادر الأدبية، ولذلك سأروي لك بعض..).

وهذا ما فعله.

ستقول: (لكن ما علاقة ذلك كله بكتابي؟ عزيزي السيد سميث، تحلى بالصبر: هدئ أعصابك. أثبت أنك فيلسوف في الممارسة العملية مثلما أنت في المهنة: فكر بخواء الأحكام المشتركة للإنسان، وتهورها، وعبثيتها: كم هي بعيدة عن تنظيم العقل في أي موضوع، فضلًا عن الموضوعات الفلسفية، التي تجاوزت فهم العامة).

أقحم شاهدًا لاتينيًّا مناقضًا بعد سلسلة إضافية من النصائح بالتزام الهدوء والاتزان، وقصة عن السياسي الأثيني فوشيون

وكيف اشتبه دومًا بأنه ارتكب خطأ كلما صفق له الجمهور. (لذلك، لنفترض أنك جهزت نفسك على أكمل وجه لمواجهة الأسوأ عبر هذه الأفكار التأملية؛ وسأتابع لإبلاغك الخبر المثير للكآبة: كتابك كان سيئ الحظ؛ إذ يبدو أن الجمهور ميال إلى التصفيق له بحرارة. وبحث عنه الحمقى بصبر وأناة؛ وبدأ الغوغاء من المفكرين يمتدحونه بأعلى أصواتهم)[٢٧].

في هذا الكتاب، الذي امتدحه الغوغاء من المفكرين بأعلى أصواتهم، عبر آدم سميث عن اعتقاده بأن (الجزء الرئيس من السعادة البشرية ينبثق من الوعي بمحبة الآخرين)[٢٨]. إلا أن سميث لم يكن واحدًا من أولئك الأفراد المزعجين الذي يقال عنه (إنه محبوب من الكل). فالدكتور جونسون لم يكن يحبه. من المفترض أن لقاءهما الأول جرى في حفلة في لندن، وفي وقت لاحق من تلك الليلة، ظهر سميث في حفلة أخرى ليقول عن جونسون: (إنه وحش؛ وحش). إذ هاجم جونسون سميث بسبب دفاعه عن شخصية هيوم على الرغم من آرائه الجمالية، وألح سميث على الدفاع عن هيوم.

سئل سميث: (ماذا قال جونسون؟).

(قال أنت كذاب).

(وماذا قلت أنت؟).

(قلت: أنت ابن عاهرة)[٢٩].

يبدو أن هذه القصة ليست صحيحة تمامًا. لكن لنقبل ما تسرب عن اللقاء بين أعظم عقلين في ذلك العصر.

من الواضح أن سميث وجونسون تبادلا بعض العبارات غير الودية. وحين أعلم بوزويل(*) الدكتور جونسون أن سميث يمقت الشعر المرسل الحر، قال جونسون: (سيدي، كنت ذات مرة بصحبة سميث، ولم نتبادل الحديث، لكن لو عرفت أنه مغرم بالشعر الموزون المقفى مثلما تقول لعانقته)[٣٠].

لكن لا بد أن العلاقة تحسنت لأن سميث أصبح عضوًا في (النادي الأدبي)، حيث كان الدكتور جونسون محط الأنظار وبؤرة الاهتمام. كما دافع جونسون عن (ثروة الأمم)، قائلًا: (لا ريب في أن من لم يعمل في التجارة سيتفوق في الكتابة عن التجارة، ولا يوجد شيء يتطلب الشرح والتفصيل بواسطة الفلسفة أكثر من التجارة)[٣١].

(*) كان بوزويل طالباً متملقاً لسميث في جامعة غلاسكو، لكنه أصبح فظاً صفيقاً فيما بعد. وبعد موت ديفيد هيوم، كتب سميث مرثية قال فيها: (كنت أعده دوماً.. أقرب ما يمكن إلى فكرة الإنسان المثالي في الحكمة والفضيلة، بقدر ما تسمح به طبيعة البشر الهشة). انظر:
Correspondence of Adam Smith. Edited by E. C. Mossner and I. S. Ross. Oxford، 1977. Liberty Fund، 1987، p. 221.
لكن بوزويل عدّ المرثية تجديفاً وإهانة للمسيحية، ودعاها (وقاحة) وتبجح قائلاً: (من المؤكد أنني الآن أكثر فهماً من أساتذتي). انظر:
Rae, John. Life of Adam Smith. London: Macmillan, 1895, p. 312.
ومن المؤسف أن سميث هو الملام ربما على جود أمثال بوزويل الذين يفضحون كل شيء في هذا العالم. زعم بوزويل أن سميث نفى، في محاضراته عن الخطابة والبلاغة، أن يكون من التهور والطيش معرفة تفاصيل حياة العظماء، وأنه سعيد لمعرفة أن ميلتون استخدم الرباط لحذائه لا الإبزيم. انظر:
Rae, John. Life of Adam Smith. London: Macmillan, 1895, p. 371.

حياة آدم سميث: وصف وجيز:

ولد آدم سميث عام ١٧٢٣، وهو ابن آدم سميث آخر كان محاميًا عسكريًّا في اسكتلندا، ومشرفًا ماليًّا على الجمارك في مقاطعة كيركالدي. يمكن لفرويدي ليبرتاري (إن وجد مثل هذا التعبير) أن يستشف شيئًا من الموقف النفسي لسميث الابن تجاه التجارة الحرة.

كانت أسرته ميسورة الحال ومتوسطة النفوذ والصلات. أمضى طفولته في كيركالدي على الضفة الأخرى من خليج (ومصب نهر) فورث مقابل إدنبرة. حدثت أعظم مغامرة في حياته حين كان في الرابعة. فقد اختطفته جماعة من الغجر، لكن (في نهاية مخيبة للقصص المثيرة ربما) عثر عليه بعد بضع ساعات. كتب مؤرخ سيرة سميث، جون راي، يقول: (أخشى أنه كان سيصبح غجريًّا فقيرًا)[٣٢]. لست متيقنًا من صحة هذا الرأي. فبدلًا من قراءة الطالع وممارسة أعمال الخداع، يمكن لغجر هذه الأيام إدارة مجموعة سيتي كورب!!

انتسب سميث إلى مدرسة في قرية صغيرة في مقاطعة كيركالدي، يبدو أنها مختلفة نوعًا ما عن مدرسة القرية الصغيرة التي التحق بها أطفالي. فقد بدأ سميث دراسة اللاتينية في عمر العاشرة. وفي الرابعة عشرة، أرسل للدراسة في جامعة غلاسكو، في كلية لطلاب السنة الأولى لنيل الشهادة الثانوية في تلك الأيام. وهذا

ما زوده بالذريعة للتصرف مثل طلاب الجامعة، رغم عدم وجود دليل لدينا يثبت ذلك.

كانت الرياضيات الموضوع المفضل لسميث. ولا ندري هل لذلك معنى منطقي أم لا، فهو يعتمد على مدى تأثير الرياضيات - في رأينا - في اقتصاد السوق الحر. لكن الأستاذ المفضل لدى سميث كان فرانسيس هتشسون، الفيلسوف، والمتخصص في فلسفة الأخلاق، وأحد أشهر مفكري عصر الأنوار الاسكتلندي، الذي وضع نوره هذه الأيام تحت عبء التاريخ الفكري. كان هتشسون أول أستاذ في جامعة غلاسكو يحاضر بالإنجليزية بدلًا من اللاتينية. ودافع دفاعًا قويًّا عن الحرية الشخصية والجزء الاقتصادي من تلك الحرية، الذي نعده من الحقوق الشخصية. وهتشسون، لا جيرمي بينثام، هو أول من أعلن أن العامل الحاسم في الأخلاق هو (تحقيق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس)(*)(٣٣).

دان سميث بجزء من الفضل إلى هتشسون على أطروحة اعتماد الحق في الملكية على العمل (قدم جون لوك حجة مشابهة). فقد اعتقد هتشسون أن للإنسان الحق في الملكية لأنه يتمتع بحق الاستفادة من العمل الممارس على تلك الملكية. وزود بطريقة غير مباشرة آدم سميث بفكرة (المراقب الحيادي). واستنتج أن التعاطف لا يمكن أن يشكل أساس الأخلاق لأننا كثيرًا ما نوافق على

(*) بغض النظر عن (جمهورية) أفلاطون، الجزء الرابع: (هدفنا من تأسيس الدولة لم يكن السعادة غير المتناسبة لأي طبقة، بل أعظم قدر من السعادة للكل).

أفعال أشخاص لا نتعاطف معهم. ووجد سميث سبيلًا للالتفاف على هذه الحجة.

أثناء السنة الأولى من دراسة سميث في جامعة غلاسكو، حاول رجال الدين (من الكنيسة المشيخية) حرمان هتشسون من الحقوق الكنسية. وعُدّ من المغالين في التفاؤل من الناحية الدينية، حيث قال إن الله يسر لنا سبلًا لتمييز الخير من الشر حتى وإن لم نكن من المؤمنين بالأديان. استمر النزاع بعد موت هتشسون، لكن يبدو أنه أثر في سميث. وكان في أعماله معاديًا على الدوام للجدل الديني، بل للدين نفسه، لكن في الوقت ذاته، تدبر أمر البقاء، بطريقته الخاصة، في فئة المتفائلين دينيًّا.

حصل سميث على منحة دراسية (من النوع السائد في عصره) أتاحت له الانتساب إلى جامعة أكسفورد. كان طفلًا معتل الصحة، لكنه لم يكن ضعيفًا خائرًا. فقد اعتاد السفر المرهق والموجع مسافة ٣٥٠ ميلًا على ظهر حصانه من غلاسكو إلى إدنبرة.

كره المكان. في جامعة أكسفورد، تخلى الجزء الأكبر من الأساتذة طوال سنين عديدة حتى عن التظاهر بالتدريس، مثلما كتب[٣٤]. قضى وقته في القراءة الموسعة والمسهبة حتى بمعاييره. قرأ الكتب باللاتينية، واليونانية، والفرنسية، والإيطالية، والإنجليزية. وقبض عليه متلبسًا بقراءة كتاب هيوم (بحث في الطبيعة الإنسانية)، وذلك قبل أن يلتقي الاثنان وجهًا لوجه، وإن تبادلا الرسائل. صادر المدرسون المحافظون الكتاب. ويبدو أن مدة بقائه في أكسفورد، من

عمر السابعة عشرة إلى الثالثة والعشرين، هي المدة الوحيدة في حياة سميث التي لم يعقد فيها أواصر الصداقة مع أحد.

في عام ١٧٤٦ تخلى عن المنحة وعاد إلى بيته ليعيش مع أمه. وكسب رزقه من محاضرات مأجورة ألقاها عن الأدب الإنجليزي. كان معجبًا ببوب وغراي، ولم يحب قصائد ميلتون القصيرة والأكثر متعة. واعتقد أن درايدن تفوق في الشعر على شكسبير ووافق على رأي فولتير بأن شكسبير كتب مشاهد بارعة لكن مسرحياته لم تكن على المستوى ذاته من البراعة. في مقدمة (قصائد غنائية)، سيدعو وردزورث سميث (أسوأ ناقد أنتجته اسكتلندا، التي يبدو هذا النوع من الأعشاب الضارة طبيعيًا في تربتها، مثلما توقع ديفيد هيوم)[٣٥].

ربما لم يبالغ سميث نفسه في تقدير قيمة هذه المحاضرات. فثمة تعليق في (نظرية العواطف الأخلاقية) على بعض الأشياء بوصفها (مجرد أمور تتعلق بالذوق)، وتعاني (ضعف وهشاشة تلك الأنواع من المدركات)[٣٦]. وبالنسبة للمطالبين بالتطوير الذاتي في إدنبرة، تمثل جزءًا من جاذبية المحاضرات في اللغة الإنجليزية لا الأدب. وقد استمع المهتمون إلى سميث بوصفه شخصًا ساير الأسلوب الدارج وتخلى عن نبرته الاسكتلندية. وهذا أمر جيد بالنسبة لنا، وإلا لكانت قراءة (ثروة الأمم) مثل سماع أسوأ تلاوة لقصائد روبرت بيرنز[*].

(*) (١٧٥٩-١٧٩٦): شاعر اسكتلندي. (المترجم).

في عام ١٧٥١، حين كان سميث في الثامنة والعشرين، عين أستاذًا للمنطق في جامعة غلاسكو. وسرعان ما ترقى ليحتل منصب أستاذ الفلسفة الأخلاقية الأرفع مكانة. حظي سميث بالشعبية بين الطلاب. أرسل الدكتور ترونشان، طبيب فولتير، ابنه ليحضر دروس سميث، كما أرسل اللورد شيلبيرن، رئيس الوزراء فيما بعد، شقيقه الأصغر. وإلى جانب أمثال جيمس بوزويل، اجتذب سميث طلابًا حتى من روسيا. وسيصبح سميون إيفيموفيتش ديزنيتسكي، وإيفان أندريفيتش تريتياكوف، أستاذين في جامعة موسكو، حيث بشرا بأفكار آدم سميث. لكنها لم تنتشر.

في غلاسكو، عمل سميث أيضًا مديرًا ماليًّا، وأمينًا لغرف الكليات، ونائبًا لرئيس الجامعة، ومسؤولاً عن اللقاءات والاجتماعات، وغير ذلك من المناصب الإدارية الغريبة. لكن وفقًا للروايات كلها، كان موثوقًا ومؤثرًا وفاعلاً. هنالك فارق مهم بين الشرود الذهني والعجز عن ترتيب الأفكار - بين السياسة الخارجية في بريطانيا وفرنسا مثلاً.

دعا سميث مدة عمله في جامعة غلاسكو (الحقبة التي امتدت ثلاثة عشر عامًا.. وأتذكرها بوصفها الأكثر فائدة ومن ثم الأسعد والأكرم والأشرف في حياتي)[٣٧]. كتب سميث ذلك في رسالة شكر فيها الجامعة على انتخابه رئيسًا لها عام ١٧٨٧، وماذا يمكن أن يقول إضافة إلى ذلك؟ هنالك أيضًا "ومن ثم" يجب أخذها بالاعتبار.

في عام ١٧٦٣، عرض على سميث تعليم دوق بوكليوتش (١٧ سنة)، ومرافقته في رحلة إلى فرنسا. وقبل الوظيفة دون تردد.

سُجل رأي سميث في مثل هذه الجولات القارية في (ثروة الأمم):

في إنجلترا، تنتشر كل يوم عادة إرسال الشباب إلى البلدان الأجنبية بعد استكمال الدراسة مباشرة.. وشبابنا، كما يقال، يعودون عمومًا إلى الوطن وقد تحسنت أحوالهم ومعارفهم بالسفر. والشاب الذي يسافر ولما يبلغ السابعة أو الثامنة عشرة، ثم يعود إلى الوطن في الحادية والعشرين، يعود وقد كبر ثلاث أو أربع سنين.. ومن الصعب جدًا في ذلك العمر ألا تشهد معارفه تحسنًا كبيرًا في ثلاث أو أربع سنوات.. من جوانب أخرى، يعود عمومًا أكثر زهوًا وانحلالًا، وأقل انضباطًا وقدرة على أي تطبيق جدي لما تعلمه في الدراسة أو التجارة، مقارنة بما يمكن أن يصبح عليه في هذا الوقت القصير لو بقي في الوطن ولم يسافر[٣٨].

يبدو أن الدوق كان شابًا لطيفًا رقيقًا. فقد نشأ ليغدو، وفقًا للطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية (مشهورًا بسخائه وهباته)، خصوصًا إلى آدم سميث. ومن المأمول أن سميث كان يعمم (في الشاهد آنف الذكر)، أو كان على ثقة بأن الدوق لن يقرأ (ثروة الأمم).

أتت فرصة عمل سميث من عم الدوق (زوج أمه)، تشارلز تاونزند، الذي سيصبح وزيرًا للخزانة، ويشعل فتيل الثورة الأمريكية

بقانونه الشهير الذي فرض الرسوم على الشاي (وغيره من السلع) المصدر إلى أمريكا. لكن (ثروة الأمم) لم يكن قد ألف بعد. وتأثر تاونزند بكتاب سميث الأول.

أثر كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) في الفرنسيين أيضًا. واستقبل سميث في معظم الصالونات الأدبية والفكرية، على الرغم من رداءة لغته الفرنسية. وربما وصل كثير من الملاحظات إلى كيناي، وتيرغو، وهيلفيشس(*)، وديدرو(**)، وبالطبع مدام ريكوبوني. وإذا كانت رسالتها إلى غاريك صحيحة، يمكننا تخيل نوع الملاحظات التي ردت بها على سميث.

في رحلة إلى جنيف، التقى سميث بفولتير خمس أو ست مرات. وعلى ما يبدو روى فولتير لسميث كيف استعار صديقهما المشترك، دوق ريشليو، العجوز الفاسق، لوحة السفارة في فيينا ولم يرجعها. وعلق أمامه، كما فعل أمام غيره، قائلًا إن: (الإنجليز ليس لديهم سوى نوع واحد من الزبدة السائلة). لقاء بين أعظم عقلين في ذلك العصر: الجزء الثاني (بعد اللقاء مع صمويل جونسون). قال الأستاذ الفرنسي الذي تحمل ضوضاء موسيقى القرب إن سميث كان يجل ذكرى فولتير.

عند نهاية عام ١٧٦٦، عاد سميث إلى الوطن وعمل بصورة جدية في تأليف (ثروة الأمم). كانت بدايات الكتاب في تولوز أثناء

(*) كلود إدريان هيلفيشس (١٧١٥-١٧٧١): فيلسوف فرنسي. (المترجم).

(**) دينيس ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤): فيلسوف، وناقد، وموسوعي فرنسي. (المترجم).

نوبة من نوبات السأم التي أصابت سميث - رد مناسب على رتابة الحياة في المدينة يظل أفضل من حرق السيارات في ضواحيها كما يحدث هذه الأيام. بقي سميث يكتب ويعيد الكتابة على مدى السنوات العشر اللاحقة.

كان لنشر (ثروة الأمم) تأثيرات فورية، لم تكن كلها بالضرورة إيجابية. فقد مثل الجزء الخامس فرصة اغتنمها أصحاب السلطة والنفوذ. وأي نصيحة قدمت إلى الحكومة، بغض النظر عن مدى معقوليتها أو ألمعيتها، أو مبدئيتها، أفرزت نتيجة واحدة: مزيد من السيطرة الحكومية. في عامي ١٧٧٧ و١٧٧٨، فرض رئيس الوزارة اللورد نورث أربع ضرائب جديدة، اقترحها آدم سميث كلها، دون قصد على الأرجح.

فرضت ضريبة على الخدم، الذين انخرطوا حسب تصنيف سميث في فئة (العمل غير الإنتاجي)، وضريبة على المساكن غير المأهولة، لأن سميث قال: (أجرة البيوت تدفع للاستخدام غير المنتج)[٣٩]. وثالثة على العقارات التي تباع في المزاد. وكان سميث قد ذكر لسوء الحظ أن بعض عمليات نقل الأملاك (إما عامة، أو غير قانونية، أو.. يتعذر إخفاؤها طويلًا)، و(لذلك فإن مثل هذه الصفقات يجب أن تخضع لضريبة مباشرة)[٤٠][٤١].

أفرز (ثروة الأمم) بعض التأثيرات الإيجابية أيضًا، منها العالم الحديث الحر برمته. فقد ساعدت حجج سميث على صياغة

معاهـدة باريس لإنهاء حرب الثورة الأمريكية. وكان إيرل شيلبيرن، الـذي أقام شقيقه الأصغـر في سكن سميث في جامعة غلاسكو، من أوائل الذين تبنوا أفـكاره. وزعم أنه اعتنق أفكار سميث أثناء رحلة قـام بها الاثنان من غلاسكو إلى لنــدن عام ١٧٦١. أصبح شيلبيرن رئيسًا للوزراء عـام ١٧٨٢. وفي السنة اللاحقة وقع معاهدة السلام مـع الولايـات المتحـدة. وزعـم أيضًا أن معاهـدة باريس استمدت إلهامها مـن (مبدأ التجارة الحـرة العظيـم)، وأن (السلام مفيد بقدر ما يعترف بذلك المبدأ)[٤٢].

بعد أربع سنوات، سوف يستحضر بت الابن(*) مبدأ سميث ذاته لإصدار قانونه الموحد لإصلاح قوانين الرسوم الجمركية والضرائب في بريطانيا. لكن قرونًا من القوانين الميركانتيلية المتعجلة والسيطرة الحكوميـة الصارمـة على العائـدات أدت إلى تزايد هـذه القواعد التنظيمية إلى درجة الاضطرار إلى إصدار ٢٥٣٧ قرارًا لتقديم بنود ومـواد القانون الموحد أمـام البرلمان. حاول بـت أيضًا تطبيق فكرة سميث عـن الاتحاد الدستوري على أيرلنـدا. والنزاع الذي نتج عن المحاولة لا يزال مستمرًا.

هنالـك قصة تقول إن سميث ذهـب قبل وفاته ببضع سنين إلى بيت في لندن حيث تجمع عدد من الشخصيات المتميزة، منها هنري دونداس، رئيس الهيئـة القضائيـة في اسكتلندا؛ ووليـام غرنفيل،

(*) وليام بت (١٧٥٩-١٨٠٦): سياسي ورئيس وزراء بريطاني (١٧٨٣-١٨٠١، ١٨٠٤-١٨٠٦). (المترجم).

كبير مستشاري التاج؛ والأسقف وليام ويلبرفورس؛ وبت؛ وهنري آدينغتون الذي سيخلف بت في رئاسة الوزارة. نهض الكل احترامًا حين دخل سميث.

قال لهم: (تفضلوا أيها السادة).

قال بت: (لا والله، لن نجلس قبلك، لأننا جميعًا من تلاميذك) [٤٣].

ربما حدث ذلك فعلًا. لكن نظرة السياسيين إلى آدم سميث ربما وجدت أبلغ معبر عنها في تشارلز جيمس فوكس، الخصم السياسي لبت المحافظ. كان فوكس، لا بت، هو الذي شارك سميث معتقداته (القريبة من آراء حزب الويغ، الذي تحول إلى حزب الأحرار في القرن التاسع عشر): الليبرالية السياسية، والتسامح الاجتماعي، ودعم سلطة البرلمان على حساب امتيازات الملك. كان فوكس واحدًا من أولئك المفكرين التقدميين الذين يعانون الفوضى والاضطراب في حياتهم الشخصية (من نوع تيد كنيدي). فقد أيد الثورة الفرنسية وعارض التدخل البريطاني في الحروب النابليونية. أبلغ المؤلف وكاتب المذكرات تشارلز بتلر بأنه لم يقرأ (ثروة الأمم)، لأن (هناك شيئًا لا أفهمه في هذه الموضوعات كلها؛ شيئًا واسعًا عريضًا لم أستطع الإحاطة به ولا أجد أحدًا استطاع) [٤٤].

لذلك كله، مثلما يستطيع أي طالب يدرس السياسة أن يتوقع، من الطبيعي أن يكون فوكس أول من استشهد بـ (ثروة الأمم) في البرلمان. ويشير الشاهد إلى صدق ما أبلغه إلى بتلر:

ثمة حكمة متضمنة في كتاب ممتاز حول ثروة الأمم.. لا يمكن الشك في صحتها. ذكر ذلك الكتاب أن الطريقة الوحيدة لتصبح غنيًّا هي إدارة الأمور بصورة تجعل الدخل يتجاوز النفقات. وتنطبق هذه الحكمة بالتساوي على الفرد والأمة(٤٥).

منح النظام السياسي آدم سميث تعويضًا مناسبًا، مثلما تكافئنا الأنظمة السياسية في حالات كثيرة على أخطائنا. في عام ١٨٧٧، عين سميث مفوضًا للجمارك الاسكتلندية، براتب كبير وعلاوات ومزايا مختلفة الأنواع، مثل ذلك الحارس الذي قلده على باب إدارة الجمارك.

وهكذا، كان سميث يجني المال من مبيعات الكتاب ومفوضية الجمارك، مع الجهود الرامية إلى إلغاء الرسوم الجمركية، والساعية لجبايتها. لم يعتقد أن ذلك كله مجرد تناقض يدعو للسخرية مثلما نفعل نحن. فهذا هو عمل الأسرة المتوارث. إذ كان والده مشرفًا ماليًّا على الجمارك في كيركالدي، وكذلك فعل ابن عم له، اسمه آدم سميث أيضًا، تسلم منصب المفتش العام لجمارك الموانئ الثانوية. هنالك أيضًا تاريخ من العجز وانعدام الكفاءة والاختلاس في مصلحة الجمارك البريطانية. ولا ريب في أن تعيين ذئب لمراقبة الحملان – حتى وإن كان منظِّرًا وشريفًا ونزيهًا – يظل أفضل من الممارسة المعتادة لوضع حمل لمراقبتها.

بعد سبع سنين من العمل مفوضًا، كتب سميث إلى وليام إيدن، أمين عام مجلس إدارة التجارة، يقول: (إن صافي الإيرادات من

الجمارك الاسكتلندية ارتفع أربع مرات على أقل تقدير مقارنة بالوضع قبل سبع أو ثماني سنوات.. ويسرني أن أعلن أنه سيشهد مزيدًا من الارتفاع)(٤٦).

في الوقت ذاته، فإن من المستبعد أن يكون سميث مغاليًا في التضييق والصرامة على طاولة التفتيش الجمركي. فقد فكر في رسوم الاستيراد المرتفعة بوصفها نوعًا من الشراك المفخخة، وكتب في (ثروة الأمم) يقول: (خلافًا لمبادئ العدالة العادية كلها، يخلق القانون الإغراء أولًا، ثم يعاقب أولئك الذين استسلموا له)(٤٧). وعبر عن قلقه من أن التهريب لا يخرب الاقتصاد، بل (يدمر المهرب. فمع أنه الملام على انتهاك قوانين بلاده، إلا أنه كثيرًا ما يكون عاجزًا عن انتهاك قوانين العدالة الطبيعية، وسيكون من النواحي كلها مواطنًا صالحًا وممتازًا لولا أن قوانين بلده جعلت التهريب جريمة لم تكن الطبيعة تعده كذلك)(٤٨). بل بلغ حد إعلان أن (الادعاء بالتردد في شراء البضائع المهربة لدوافع أخلاقية.. يعد نفاقًا ورياءً، وبدلًا من اكتساب الفضل فإنه يفضح المنافق المرائي، ويثبت أنه أكثر خداعًا من معظم جيرانه)(٤٩). ومن المؤكد أن السيدات العجائز في الحافلات السياحية التي تعبر الحدود الكندية عند شلالات نياغارا وحقائبهن متخمة بالعقاقير الكندية، سيلاقين معاملة طيبة من آدم سميث.

مثلما فعل تمامًا مع والدته وابنة خالته العانس اللتين نقلهما إلى منزل فخم في إدنبرة. هناك، عاش اثني عشر عامًا من حياته، في

نشـاط وتواصل اجتماعي مع النـاسـ، وفقًا للبرنامج الذي أوصى به لعمال انجلترا واسكتلندا في الجزء الأول من (ثروة الأمم):

(إن الجهد العظيم، الذهني أو الجسمي، المستمر عدة أيام، تتبعه بصورة طبيعية رغبة في الراحة والاسترخاء.. نداء الطبيعة، الذي يتطلب التحرر من الانشغال والعمل، بطريقة سهلة حينًا، لكن بالمتع الحسية والتسلية واللهو أحيانًا)[٥٠].

أسلم سميث الروح في السابع عشر من يوليو ١٧٩٠، بعد أن تدهور وضعه الصحي. في مراجعاته الأخيرة لـ (نظرية العواطف الأخلاقية)، أضاف قرابة عشرين فقرة، معظمها يستحسن موقف الرواقيين(*) تجاه الموت: (سر قدمًا دون تشكٍّ أو تذمر، هادئًا، راضيًا، قانعًا، مستمتعًا، واحمد الله، الذي فتح بآلائه اللامتناهية مرفأ الموت الآمن الهادئ، الجاهز دومًا لاستقبالنا من البحر العاصف المتلاطم للحياة البشرية)[٥١]. هزل جسمه ونحل وضعف، لكن في يوم الأحد السابق على وفاته، استضاف أصدقاءه على العشاء الأسبوعي المعتاد. وكانت آخر كلماته المسجلة: (أعتقد أن علينا رفع هذه الجلسة ونقل اللقاء إلى مكان آخر)[٥٢].



(*) أتباع مذهب فلسفي أسسه زينو (٣٠٨ ق.م) أكد أن الوصول إلى السعادة لا يتم إلا بقبول تقلبات الدهر وعاديات الزمن، وأن الحكيم لا يتأثر بها. (المترجم).

❁

ملحق

(معجم آدم سميث الفلسفي)

يترك أي تفكير يستقصي أعمال آدم سميث كثيرًا من البقايا والآثار التي يجب أخذها في الحسبان. ولا يوجد مجال في هذا المؤلف الصغير عن كتاب سميث العظيم لكل، أو حتى لمعظم، حكمه السائرة، وأقواله المأثورة، وطرفه الحكيمة، ورؤاه الثاقبة، ومشاهداته الذكية، وقواعده السلوكية، ومسلماته البدهية، ومدركاته الحصيفة، وآرائه المتحيزة(*). جمع فولتير، الذي ألهم بطريقة ما آدم سميث، كتاباته التوجيهية ونصائحه المفيدة الوجيزة في كتاب سماه (معجم الفلسفة). وحين جمع جلادو فولتير (من نقاد الأدب) نسخة كاملة من أعماله، وجدوا أنفسهم في مواجهة

(*) في البنود الآتية، تصرفنا ببعض الحرية في نصوص سميث. ففي بعض الأحيان، دمجت العبارات المستقلة في جمل كاملة. كما شطب عدد من كلمات (لكن) و(مع ذلك) التي تشير إلى عبارات أو كلمات سابقة محذوفة أو خارج السياق. ولم تستخدم النقاط (...) إلا في حالة حذ جزء كبير من النص الأصلي.

مجموعة من أنواع الكتابات الأدبية كلها - كراسات، ومقالات طويلة مملة، ومقالات قصيرة، وملاحظات مكتوبة باليد، إلخ. ثم سرقوا عنوان فولتير، وكدسوا هذه المواد في (المعجم)؛ ليوجدوا خلطة متنافرة لا علاقة لها تقريبًا بالمعجم ولا بالفلسفة إلا بالمعنى الأوسع. ويبدو أن مزيدًا من الانتحال لفكرة فولتير أسلوب معقول (وسهل) لترتيب الفضلات الفكرية الناتجة من محاولة تحضير وجبة دسمة من فكر آدم سميث.

البنوك الإسلامية:

حين يحرم القانون الفائدة، لا يمنعها.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[١]

الرابطة المتخيلة بين العمل التجاري والحكومة:

يعاني الجشع والظلم دومًا من قصر النظر.

(ثروة الأمم)، الجزء الثالث[٢]

تنظيم الحكومة للأعمال التجارية:

ربما يكون عدم الجدوى وانعدام الفائدة أسمى مرثية يمكن قولها بحق الشركة التي خضعت للتنظيم.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٣]

لا جدوى المشورة المهنية وعبثيتها:

ما يشعر به جزء كبير من البشر من تكبر وزهو وغرور ومبالغة في تقدير حجم قدراتهم، شر مستطير قديم لاحظه الفلاسفة وانتبه له الوعاظ في العصور كلها. لكن لم يحظ افتراضهم السخيف واعتقادهم الصفيق بحظهم السعيد بما يستحق من انتباه وملاحظة... إن ازدراء المخاطرة والأمل الخيالي بالنجاح، لا ينشطان في أي مرحلة من العمر أكثر من تلك التي يختار فيها الشباب مهنتهم.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٤]

(التعاطف مع الآخرين):

لنفترض أن إمبراطورية الصين العظيمة، بعدد سكانها الهائل، ابتلعها فجأة زلزال مدمر، ولنفكر كيف يتأثر أحد أصحاب المشاعر الإنسانية النبيلة في أوروبا... عند سماعه أنباء هذه الكارثة المروعة. أتصور أنه سيعبر أولًا عن حزنه الشديد للمحنة التي أصابت هذا الشعب المنكود، ويفكر متأملًا بأسف وأسى بتزعزع أركان الحياة الإنسانية وافتقارها إلى الاستقرار والثبات... وحين تنتهي هذه الفلسفة كلها، ويعبر على أكمل وجه عن هذه المشاعر النبيلة والعواطف الإنسانية، سوف يسعى إلى العمل أو المتعة، ويهدأ أو ينشغل، كأنما لم يحدث شيء... لو كان سيفقد خنصره غدًا لن

ينام الليلة؛ لكنه... سوف يغط في نوم عميق ويعلو شخيره، ولن يؤثر الخراب الذي حل بمئة مليون من إخوانه البشر في شعوره العميق بالأمان والطمأنينة.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٣(٥)

إغراء الشهرة:

تراقب عيون العالم الشخص المتميز صاحب المكانة الرفيعة. الكل متشوق لرؤيته، والإحساس، عبر العاطفة على أقل تقدير، بتلك المتعة والسعادة اللتين أفرزتهما ظروفه بصورة طبيعية... نادرًا ما يتجاهل الناس كلمة منه أو تفوتهم إيماءة أو إشارة.. فلديه في كل لحظة فرصة لإثارة اهتمامهم، وجعل نفسه هدفًا للمراقبة والملاحظة والتعاطف من الجميع. وهذا بالضبط... ما يجعل العظمة هدفًا للحسد والغيرة، على الرغم مما تتطلبه رعايتها من فقدان للحرية.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١(٦)

كيف يدفع المغمور إلى طلب الشهرة:

مع أن التجاهل والرفض والنبذ أمور مختلفة اختلافًا تامّاً، لكن حين نشعر بأننا مغمورون، وبعيدون عن أضواء المجد والاستحسان، ونتعرض للإهمال... تحبط بالضرورة أشد رغبات الطبيعة البشرية إلحاحًا وتلهفًا وحماسًا.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١(٧)

كلمة أخيرة عن الشهرة:

هذا الميل إلى الإعجاب بالأغنياء والأقوياء، بل عبادتهم تقريبًا، واحتقار الفقراء وازدراء الوضعاء أو تجاهلهم على أقل تقدير... يسبب مفسدة وأي مفسدة لعواطفنا الأخلاقية.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١[٨]

نصيحة إلى الشباب الكسالى الذين يرتدون ثيابًا سخيفة:

يشابه سخف عدم ارتداء الملابس مثل الآخرين، سخف التكاسل عن العمل مثلهم.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١[٩]

سوء فهم جون بابتست كولبرت، وزير مالية لويس السادس عشر، لطبيعة التشابه بين الشركة والحكومة:

سعى إلى تنظيم الصناعة والتجارة في بلد عظيم وفقًا لنموذج الإدارات الحكومية.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٤[١٠]

الاعتراف...

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٧[١١]

أول إعلان معروف عن حقوق المستهلك:

يجب الاهتمام بمصلحة المنتج، إلى الحد الذي يكون فيها ضروريًّا تشجيع مصلحة المستهلك.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع(١٢)

إدارة الشركات:

تدار الشركات المساهمة دومًا بواسطة مجلس من المديرين... الخاضعين من جوانب عديدة إلى هيئة عامة من المالكين. لكن نادرًا ما ادعى الجزء الأعظم من هؤلاء المالكين فهم أي شيء عن نشاط الشركة التجاري؛ و... لا تحملوا عناءه، لكنهم يتلقون أرباحًا سنوية أو نصف سنوية، حسبما يراه المديرون مناسبًا لهم... لكن نظرًا لأن مديري مثل هذه الشركات يديرون أموال غيرهم لا أموالهم، لا يمكن أن نتوقع منهم القدر ذاته من الدأب والاهتمام والسهر الذي يميز الشركاء المتساوين في شراكتهم. وعلى شاكلة خدم الغني، من المرجح أن يتركز اهتمامهم على الشؤون التافهة لا الجليلة التي تؤثر في شرف سيدهم، ومن السهل جدًا عليهم التملص من هذا الواجب. لذلك كله، يجب أن يسود دومًا الإهمال والإسراف إلى حد ما.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس(١٣)

الشكاوى من معدلات الفائدة على بطاقات الائتمان:

مثلما يمكن الحصول على شيء في أي مكان باستخدام المال، كذلك يجب أن يدفع شيء مقابل استخدامه.

(ثروة الأمم)، الجزء الثاني(١٤)

الثقافة الشعبية:

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس(١٥)

الثقافة الشعبية (تابع):

الهمج مشغولون كلهم بهموم رغباتهم وحاجاتهم الضرورية، إلى حد أنهم لا ينتبهون لرغبات وحاجات الآخرين.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٥(١٦)

مزيد من الأفكار عن الثقافة الشعبية:

يبدو أن الحمق المصاحب للكسل، في المجتمع المتحضر، يصيب بالخدر والبلادة فهم معظم الطبقات الدنيا من الناس.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس(١٧)

لماذا لا تنجح القوانين في مكافحة المخدرات:

(ولماذا أتأخر إلى هذا الحد في الوصول إلى البيت)

(ثروة الأمم)، الجزء الثاني(١٨)

الاتحاد الأوروبي:

لا تترك سياسة أوروبا الحرية الكاملة لأي شيء.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[١٩]

سببان اثنان لوجود الاقتصاد:

يقترح الاقتصاد السياسي، بوصفه فرعًا من علم رجال الدولة أو المشرعين، موضوعين متميزين: أولًا، توفير إيراد كبير أو وسائل معيشية للناس، أو بالأحرى تمكينهم من توفير إيراد أو وسائل معيشية لأنفسهم؛ ثانيًا، تزويد الدولة أو الأمة بإيراد كاف للخدمات العامة.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٢٠]

السببان الآخران لوجود الاقتصاد:

رخص السلع الاستهلاكية وتشجيع الإنتاج، هما بالتحديد التأثيران اللذان يجب على الوظيفة الكبرى للاقتصاد السياسي تشجيعهما.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٢١]

الطلب الفعال:

يمكن أن يقال عن كل فقير إنه يطلب بمعنى من المعاني عربة وستة..؛ لكن طلبه لا يعد طلبًا فعالًا.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٢٢]

الأعداء من الأهالي البدائيين (كلما زاد تغير الأشياء بقيت على حالها):

لا شيء أكثر إثارة لمشاعر الازدراء من حرب هندية في أمريكا الشمالية.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٢٣]

المجاعة:

كل من يستقصي، باهتمام وانتباه، تاريخ أوقات العسر والمجاعات التي حلت بأي جزء من أوروبا، على مدى القرن الحالي أو القرنين السابقين... سوف يجد... أن المجاعة لم تحدث نتيجة أي سبب آخر سوى عنف الحكومة حين تحاول عبر الوسائل غير المناسبة التصدي للمشقات المزعجة في أوقات الشدة والعسر والندرة.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٢٤]

تجنب المجاعة:

بعد تجارة المزارع، لا توجد تجارة تسهم بهذا القدر في زيادة محصول الحبوب مثل تجارة تاجر الحبوب.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٢٥]

دعابات مزعجة:

كثيرًا ما يكون الظهور العلني لمن حلت به كوارث صغيرة أشد خزيًا من ذلك الذي حلت به نكبات كبيرة.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١[٢٦]

ضحايا الزي الدارج (الموضة):

في المجتمع المتحضر جدًا... هنالك خطتان مختلفتان أو نظامان متباينان للأخلاق يتعايشان جنباً إلى جنب؛ أحدهما يمكن دعوته بالصارم أو المتقشف؛ والآخر بالليبرالي أو المتحرر، أو إن شئت المنفلت. ينال الأول عمومًا إعجاب الناس العاديين وإجلالهم: في حين يقدر قيمة الآخر ويتبناه من ندعوهم بأهل الموضة.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٢٧]

القوة اللاسياسية للمشروع الحر:

مع أن إسراف الحكومة قد أعاق دون شك التقدم الطبيعي لإنجلترا باتجاه الثروة والتطور، إلا أنه لم يتمكن من إيقافه.

(ثروة الأمم)، الجزء الثاني[٢٨]

الولع بالطعام، وعلاقته بالعجز الراهن في الميزانية الوطنية:

إن محاولة زيادة ثروة أي بلد، عبر إدخال كمية غير ضرورية من الذهب والفضة أو الاحتفاظ بها، تماثل في سخفها وعقمها محاولة زيادة ولع العائلات بالطعام الشهي، عبر إجبارها على الاحتفاظ بعدد غير ضروري من أدوات المطبخ.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٢٩]

الجشع: لماذا يعد مفيداً؟ وكيف تدمر الذهنية الجشعة التوليفات الاحتكارية بين التجار والمصنعين؟

لا يمكن ترسيخ توليفة فعالة في التجارة الحرة إلا بالموافقة بالإجماع من التجار كلهم، ولا يمكن أن تستمر مدة أطول من استمرار كل تاجر في التزام موافقته.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٣٠]

مقاضاة جرائم الكراهية:

حين تصبح العواطف والأفكار والنيات خاضعة للعقوبة... تغدو كل محكمة قضائية محكمة تفتيش حقيقية. ولن يحظى معظم أنواع السلوك البريء والحذر والحريص بالأمان. وتبقى الرغبات السيئة، والآراء السيئة، والمخططات السيئة، محل شبهة.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٢[٣١]

النزاعات العديدة تفسر شخصية باريس هيلتون:

تجعلُ المنافسةُ والتسابق على النجاح الامتيازَ، حتى في المهن الوضيعة، محلاً للإعجاب، وكثيرًا ما يؤديان إلى أعظم الجهود والإنجازات.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٣٢]

نظرة بديلة إلى المشردين:

يتمتع المتسول، الذي يجلس على الرصيف تحت الشمس، بالأمان الذي يقاتل الملوك من أجله.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٤[٣٣]

الأزواج:

مــن مصلحة كل شخص العيش حياة خالية من الهموم والمشقة بقــدر الإمكان؛ وإذا أراد الحفــاظ على أجره ذاته، بغض النظر هل أدى واجبًــا مجهدًا أم لا، فإن من مصلحته بالتأكيد... إما أن يهمله برمتــه، أو يؤديه، إن كان خاضعًــا لسلطة، بأقصى قدر من الإهمال واللامبالاة والتواني تسمح به تلك السلطة.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٣٤]

الأزواج (تابع):

التظاهر بعدم التأثــر بأفراح أصحابنا ليس سوى تصرف قليل التهذيــب؛ لكــن عدم رســم أمــارات الجدية والحزن علــى وجوهنا عندما يخبروننا عن أتراحهم تصرف لا إنساني شنيع.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١[٣٥]

المخاوف المغالية من الهجرة:

من بين الأمتعة كلها، يعد الإنسان الحمل الأصعب على النقل.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٣٦]

اقتراح جديد للتصميم (الديكور) الداخلي:

تـذكارات الآلات الموسيقيـة أو الزراعية، المقلـدة في الرسوم أو اللوحـات الجصية، تعـد زخرفة شائعـة ومقبولـة لقاعاتنا وغرف طعامنـا. ولكن تذكارًا من النـوع نفسه، مؤلفًا مـن آلات الجراحة، وسكاكـين التشريح والبـتر، ومناشـير تقطيع العظـام... إلخ، يعد سخيفًا وصادمًا.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١[٣٧]

إيطاليا:

لا تزال إيطاليا مستمرة في التمتع بنوع من الإجلال بسبب عدد التماثيـل والنصب التذكارية والآثار التاريخيـة التي تملكها، مع أن الـثروة التي أنتجتهـا اضمحلت وتراجعـت، وجـذوة العبقرية التي خططتها خمدت وانطفأت.

(ثروة الأمم)، الجزء الثاني[٣٨]

تفسير لنفاق الليبراليين الأثرياء الذين يتبنون قضية الفقراء:

على وجه العموم، يملك أصحاب رؤوس الأموال الضخمة... إما حصة مباشرة، أو يمارسون تأثيرًا غير مباشر في إدارة الحكومة، وفي سبيل ما يستمدونه من احترام وسلطة من هذا الوضع، فإنهم على استعداد للعيش في بلد يجلب لهم رأسمالهم فيه... قدرًا أقل من الربح.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٣٩]

تفسير حقيقي لنفاق الليبراليين الأثرياء الذين يتبنون قضية الفقراء:

في النفقات العامة، والخاصة أيضًا، كثيرًا ما يمكن القبول بالثروة الضخمة بوصفها اعتذارًا عن الحماقة الكبيرة.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٤٠]

مستويات المعيشة الحديثة:

لا يتجاوز مستوى مسكن الأمير الأوروبي كثيرًا بيت الفلاح المجد والحصيف، نظرًا لأن مستوى مسكن هذا الأخير أعلى من مستوى بيوت كثير من الملوك في إفريقيا، الذين يتمتعون بسلطة مطلقة للتحكم بحياة –وحريات عشرات الألوف من الهمج العراة.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٤١]

دحض توماس مالثوس:

أوضح علامة دالة على الرخاء والازدهار في أي بلد هي الزيادة في عدد سكانه.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٤٢]

دحض توماس مالثوس مرة أخرى:

الطلب على البشر، مثل الطلب على أي سلعة أخرى، ينظم بالضرورة إنتاج البشر.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٤٣]

أيهما أسوأ: الملكية أم الديمقراطية؟

تصرفت إنجلترا... في زمن السلم بالإسراف والكسل والإهمال، المميزة لطبيعة الملكيات؛ وفي زمن الحرب، تصرفت باستمرار وفقًا لأكثر أنواع التبذير والإسراف التي تميل الديمقراطيات إلى السقوط في شراكها.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٤٤]

المال:

المال... صديق مخلص لا يتغير.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٤٥]

المال: صديق مخلص لا يتغير حين يمكن أن نجده:

حين نملك المال، نستطيع بواسطته الحصول على ما نريد، خلافًا لحالنا حين نملك أي سلعة أخرى. وأهم الشؤون، كما نجد دومًا، هو الحصول على المال.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٤٦]

الجانب المشرق من الانتشار النووي:

منذ الآن فصاعداً... يمكن أن يبلغ سكان العالم في مختلف أركانه تلك النوعية من الشجاعة والقوة، التي يمكنها وحدها عبر إثارة الرعب المتبادل، رفع الظلم بين الأمم المستقلة وترهيبها ودفعها إلى احترام حقوق بعضها بعضاً.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٤٧]

فكرة لمسرحية تعرض خارج برودواي:

على وجه العموم، يعد بتر ساق نكبة أشد إيلاماً من خسارة خليلة. لكن المأساة المثيرة للسخرية هي التي تركز كارثتها على خسارة من هذا النوع.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١[٤٨]

تنبؤ بطبيعة التخطيط المركزي في الاتحاد السوفييتي:

لا يمكن للخوف من العقاب أن يمثل دافعاً محفزاً يحظى بثقل كاف للاهتمام بالعمل التجاري بطريقة متواصلة وإجبارية.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٤٩]

تفسير الشر المتأصل في السياسة:

من الظلم القول إن على المجتمع كله الإسهام في تكلفة تعود فائدتها على جزء منه.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٥٠]

فقراء لكن سعداء:

رذائل الطيش والهزل مدمرة دوماً لعامة الناس.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٥١]

الرؤساء السابقون:

قلة قليلة فقط تمكنت من النجاح من بين جميع رجال الدولة المهملين، الذين درسوا لتحقيق مطامحهم دون تعب، وازدراء الأمجاد المشرفة التي لم يعد بإمكانهم بلوغها.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١[٥٢]

الرؤساء السابقون (تابع):

أي ضيق صدر ونفاد صبر يعانيهما رجل المبادئ الأخلاقية والطموح، الذي أترعه وضعه بالكآبة والحزن، حين يلتفت حوله بحثًا عن فرصة لتمييز نفسه؟... حتى أنه يتطلع راضياً قانعاً إلى احتمال اندلاع حرب خارجية أو أهلية.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج١[٥٣]

دفاعًا عن الكبرياء والزهو:

كثيراً ما يرعى الغرور العديد من الفضائل المحترمة... ويرعى الزهو العديد من الفضائل الطيبة.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٦[٥٤]

ضمانات الجودة:

الجودة شأن خلافي، ولذلك أنظر إلى كل المعلومات المتعلقة بها بنوع من عدم اليقين.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٥٥]

المصدر الأصلي لجملة شاعت نسبتها إلى رونالد ريغان:

في إشارة إلى شركة الهند الشرقية... لا بد أن ينتج الإسراف والتبذير بالضرورة عن الغش والتزوير وسوء المعاملة، التي لا يمكن فصلها عن إدارة شؤون مثل هذه الشركة الكبرى.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٥٦]

الأغنياء:

تتألف المتعة الرئيسة للغنى، لدى الجزء الأعظم من الأغنياء، من استعراض الثروات، التي لا تكتمل في عيونهم أبداً إلا بامتلاك تلك العلامات الحاسمة الدالة على الوفرة والثراء، التي لا يمتلكها أحد سواهم.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٥٧]

محدثو النعمة:

سوف تثير ثروتهم وحدها سخط العامة، في حين يستفز الزهو المصاحب دوماً تقريباً لمثل هذه الثروات التي جنوها حديثًا، والتظاهر الأحمق الذي يستعرضونها به، مزيدًا من السخط والاستياء.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٥٨]

الخراب الوطني:

تأكد أن في الأمة قدراً كبيراً من الخراب.

- آدم سميث، لشاب أبلغه بخبر هزيمة البريطانيين في ساراتوغا، وقال إن الخراب لا بد أن يحل بالأمة[٥٩].

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٧[٦٠]

العلماء والباحثون:

قبل ابتكار فن الطباعة، كان العالم والمتسول على ما يبدو تعبيرين مترادفين تقريبًا.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٦١]

التسوق:

يُخصص ما فوق - وراء - تلبية الرغبة المحدودة لإلهاء تلك الرغبات التي يتعذر تلبيتها، لكن تبدو بلا حدود.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول[٦٢]

تفسير الضمان الاجتماعي:

في أثينا القديمة كان الأطفال يعفون من رعاية آبائهم في أرذل العمر، إذا أهملوا تعليمهم مهنة أو صنعة مربحة.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٦٣]

كل ما تريد معرفته عن الإحصائيات الحكومية:

ليس لدي ثقة كبيرة بالحساب السياسي.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع[٦٤]

العوامل المساعدة والمعرقلة للنجاح:

تعد السلطة والثروة... آلتين هائلتين وفاعلتين... ومكونتين من أدق النوابض وأكثرها هشاشة، ويجب حفظهما بترتيب ونظام بأكبر قدر من الرعاية والاهتمام، وعلى الرغم من ذلك كله هما معرضتان في كل لحظة للانفجار والتحطم، ليتحطم مع خرابهما مالكهما المنكود...

إن متع الثروة ومباهج العظمة... تغزو المخيلة مثل خاطر جليل وجميل ونبيل، وتستحق عناء وقلق الحصول عليها في رأينا. من المفيد أن تفرض علينا الطبيعة ذلك بهذه الطريقة. فهذا الخداع هو الذي يستفز – ويحافظ على – الحركة المستمرة لصناعة البشر.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٤[٦٥]

وعاظ التلفزيون:

الإخوان المتسولون، الذين لم تكتف الكنيسة الإنجيلية بترخيص تسولهم، بل قدسته أيضًا، يفرضون أعلى ضريبة على الفقراء.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع(٦٦)

نجاح وعاظ الكنيسة الإنجيلية على التلفزيون مقابل التيار الرئيس من رجال الدين البروتستانت

يشعر رجال الدين هؤلاء، حين يتعرضون للهجوم من مجموعة من المتحمسين الذين يتمتعون بالشعبية والجرأة، مع أنهم ربما يتسمون بالغباء والجهل، بالعجز والضعف، مثل الأمم الكسولة الواهنة والمخنثة والمسمنة - إذا جاز التعبير - في الأجزاء الجنوبية من آسيا، حين غزتها جحافل التتار الشمالية، الجائعة والنشيطة والجريئة.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس(٦٧)

السياح: النوع الذي يعود إلى الوطن جامحًا في حماسه للخدمة الممتازة لوسائل النقل العامة في البلدان الأخرى:

في الصين... الطرقات السريعة الممهدة، والقنوات المائية الصالحة لعبور المراكب، تتفوق فيما يُزعم على كل شيء معروف من هذا النوع في أوروبا. لكن مثل هذه الروايات الضعيفة، التي نقلت إلى أوروبا، رواها رحالة هائمون على وجوههم؛ نقلاً في كثير من الأحيان عن مبشرين أغبياء وكاذبين.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس(٦٨)

الأمم المتحدة:

احترام قوانين الأمم، أو تلك القواعد والأنظمة التي تظن الدول المستقلة أنها ملتزمة بها في تعاملاتها مع بعضها بعضاً، لا تتجاوز كثيرًا مجرد ادعاء وزعم.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٦[٦٩]

صدق المشرعين:

لا تعد المناظرات والمناقشات في مجلس العموم دوماً أصدق السجلات عن الحقيقة.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس[٧٠]

الشعر المرسل الحر:

أحسنوا بإطلاق هذا الاسم عليه. فأنا نفسي الذي لم أعثر على قافية واحدة في حياتي، أستطيع نظم قصيدة من الشعر الحر بالسرعة التي أتكلم بها.

سميث، إلى مراسل صحيفة مجهول الاسم[٧١]

تحليل اقتصادي للفضيلة:

القرار الأخير لطائفة الكويكرز في بنسلفانيا بتحرير عبيدهم كلهم، ربما يشير إلى أن عددهم ليس كبيراً.

(ثروة الأمم)، الجزء الثالث[٧٢]

الأجور المتدنية مقارنة بالأرباح:

الطلب على أولئك العمال الذين تعتمد حياتهم على العمل المأجور... يزداد بصورة طبيعية بزيادة الثروة الوطنية، ولا يمكن أن يزداد من دونها على الأرجح.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول(٧٣)

الأجور المرتفعة مقارنة بالأرباح:

التشكي... من المكافأة الحرة على العمل يعني الأسف على السبب والنتيجة الضروريين لأعظم قدر من الرخاء العام.

(ثروة الأمم)، الجزء الأول(٧٤)

الحرب، بوصفها محفزًا اقتصاديًا سنكون دونه أفضل حالاً:

في خضم أشد الحروب الخارجية تدميرًا،... ربما تشهد أعمال المصنعين ازدهارًا كبيرًا؛ وعلى العكس، ربما تتراجع وتنحسر عند عودة السلام. وقد تزدهر مع خراب بلادهم، وتبدأ بالتراجع والانكماش عند عودة الازدهار إليها.

(ثروة الأمم)، الجزء الرابع(٧٥)

الشغف العام بالحرب

في الإمبراطوريات الكبرى، نادرًا ما يشعر أغلب السكان الذين يعيشون في الحواضر، وأولئك الذين يقطنون المقاطعات النائية

بعيداً عن مسرح العمليات، بالصعوبات والمضايقات الناجمة عن الحرب؛ بل يستمتعون في أرائكهم المريحة بتسلية قراءة أخبار إنجازات جيوشهم وأساطيلهم المثيرة في الصحف. وتعد هذه التسلية بالنسبة لهم تعويضاً عن الفارق البسيط بين الضرائب التي يدفعونها زمن الحرب، وبين تلك التي اعتادوا دفعها زمن السلم. تسخطهم عودة السلام عمومًا، لأنها تضع حداً لتسليتهم المتعة.

(ثروة الأمم)، الجزء الخامس(٧٦)

خطة سميث لتقليص احتمال اندلاع الحروب:

حين تدفع تكلفة الحرب من العائدات المجمعة على مدار السنة... سوف يزيد احتمال انتهائها بسرعة ويتقلص احتمال شنها بطريقة طائشة ولا مسؤولة.

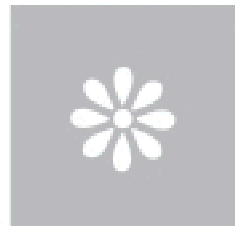
(ثروة الأمم)، الجزء الخامس(٧٧)

الزوجات:

نادرًا ما تمتع الجنس اللطيف، الأكثر رقة ولطفًا منا، بما لدينا من صفات الكرم والسخاء.

(نظرية العواطف الأخلاقية)، ج٤(٧٨)





هوامش

- CAS: Correspondence of Adam Smith. Edited by E. C. Mossner and I. S. Ross. Oxford, 1977. Liberty Fund, 1987.
- DS: Stewart, Dugald. Collected Works. Vol. 10, Biographical Memoirs of Adam Smith, William Robertson, Thomas Reid.
- EPS: Essays on Philosophical Subjects. Edited by W. P. D. Wightman and J. C. Bryce. Oxford, 1980. Liberty Fund, 1982.
- ISR: Ross, Ian Simpson. The Life of Adam Smith. Oxford: Oxford University Press, 1995.
- LJ: Lectures on Jurisprudence. Edited by R. L. Meek, D. D. Raphael, and P. G. Stein. Oxford, 1978. Liberty Fund, 1982.
- Rae: Rae, John. Life of Adam Smith. London: Macmillan, 1895.
- TMS: The Theory of Moral Sentiments. Edited by D. D. Raphael and A. L. Macfie. Oxford University Press, 1976. Reprint, Indianapolis: Liberty Fund, 1982.
- TRTS: Hayek, Friedrich A, von. The Road to Serfdom. Chicago: University of Chicago Press, 1944.
- West: West, E. G. Adam Smith. New Rochelle, N. Y.: Arlington House, 1969.

- W/L: An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations (2 vols.), edited by R. H. Campbell and A. S. Skinner, Oxford, 1976; Liberty Fund, 1981.
- W/ML: An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations. Edited by Edwin Cannan. New York: Modern Library, 1937.

الفصل الأول:

١- W/ML 715
٢- W/ML 90
٣- DS 52
٤- TMS 226
٥- W/L 782
٦- W/ML lix

الفصل الثاني

١- W/ML 932
٢- W/L 124
٣- TMS 28
٤- West 111
٥- Rae 269
٦- W/ML 214
٧- W/ML 552
٨- W/ML 467
٩- CAS 387
١٠- W/ML 148
١١- W/L 388
١٢- W/ML xliii

الفصل الثالث

١- W/L 471
٢- W/ML 584
٣- EPS 105

٤- Ibid.
٥- TMS 82
٦- TMS 9
٧- TMS 10
٨- TMS 9
٩- TMS 106
١٠- TMS 304
١١- TMS 137
١٢- Ibid.
١٣- TMS 247
١٤- TMS 86
١٥- Ibid
١٦- TMS 142
١٧- TMS 241
١٨- TMS 25
١٩- TMS 184
٢٠- TMS 118
٢١- TMS 25
٢٢- TMS 219
٢٣- TMS 272
٢٤- W/L 14
٢٥- TMS 77
٢٦- TMS 292

الفصل الرابع

١- W/ML 15
٢- Ibid.
٣- W/ML 140
٤- Ibid.
٥- Ibid.
٦- W/ML 99

٧- W/L 14
٨- Rae 286
٩- W/ML 28
١٠- W/ML 47
١١- W/ML 7-36
١٢- W/ML 39
١٣- W/ML 47
١٤- W/ML 95
١٥- W/ML 250
١٦- W/ML 61
١٧- Ibid
١٨- W/ML 56
١٩- W/ML 76
٢٠- W/ML 113
٢١- W/ML 287
٢٢- W/ML 288
٢٣- W/L 570
٢٤- W/ML 87
٢٥- W/ML 274
٢٦- W/ML 63
٢٧- .Ibid
٢٨- W/ML 95
٢٩- W/ML 89
٣٠- W/ML 279
٣١- W/ML 287
٣٢- W/ML 42
٣٣- W/ML 188
٣٤- TMS 5-184
٣٥- TMS 57
٣٦- TMS 234
٣٧- W/L 48
٣٨- W/ML 162

الفصل الخامس

١- W/ML 5-304
٢- W/ML 321
٣- LJ/ 352
٤- W/ML 314
٥- W/ML 32
٦- W/ML 349
٧- W/ML 6-335
٨- W/ML 110
٩- W/ML 359
١٠- W/ML 353
١١- Ibid.
١٢- W/ML 348
١٣- W/ML 314
١٤- Ibid.
١٥- W/ML 349
١٦- Ibid.
١٧- W/ML 350
١٨- W/ML 345
١٩- LJ 518
٢٠- W/ML 6-355
٢١- W/ML 353
٢٢- W/ML 552
٢٣- W/ML 423
٢٤- W/ML 341
٢٥- W/ML 343
٢٦- Ibid.
٢٧- W/ML 345
٢٨- Ibid.

الفصل السادس

١- W/ML 372
٢- W/ML 376
٣- W/ML 7-376
٤- W/ML 360
٥- W/ML 361
٦- Ibid.
٧- Ibid.
٨- W/ML 372
٩- W/ML 381
١٠- W/ML 319
١١- W/ML 19
١٢- W/ML 320
١٣- W/ML 306
١٤- W/ML 843
١٥- W/ML 838
١٦- Ibid.
١٧- W/ML 146
١٨- W/ML 145
١٩- W/ML 6-145
٢٠- TRT 55
٢١- W/ML 391
٢٢- W/ML 365
٢٣- W/ML 366
٢٤- W/ML 6-365
٢٥- W/ML 309
٢٦- Ibid.
٢٧- Ibid
٢٨- W/ML 394
٢٩- W/ML 395
٣٠- Ibid.
٣١- Ibid.

٣٢- W/ML 397
٣٣- .Ibid
٣٤- W/ML 399
٣٥- W/ML 406
٣٦- W/ML 5-374
٣٧- W/ML 4-803
٣٨- W/ML 804
٣٩- LJ 570
٤٠- W/ML 4-273
٤١- W/L 19

الفصل السابع

١- W/ML 409
٢- TMS 57
٣- W/ML 413
٤- .Ibid
٥- W/ML 440
٦- W/ML 414
٧- W/ML 443
٨- W/ML 31
٩- Alexander Carlyle, Anecdotes and Characters of Our Times, quoted in Arthur Herman, How the Scots Invented the Modern World (New York: Crown, 2001), 122

الفصل الثامن

١- W/ML 552
٢- W/ML 7-456
٣- W/ML 467
٤- W/ML 461
٥- W/ML 530
٦- W/ML 521
٧- W/ML 498

٨- W/ML 485
٩- W/ML 629
١٠- W/ML 738
١١- W/ML 737
١٢- W/ML 498
١٣- W/ML 496
١٤- W/ML 319
١٥- W/ML 458
١٦- W/ML 479
١٧- W/ML 530
١٨- W/ML 528
١٩- W/ML 526
٢٠- W/ML 409
٢١- W/ML 421
٢٢- W/ML 569
٢٣- W/ML 2-531
٢٤- W/ML 532
٢٥- W/ML 581

الفصل التاسع

١- W/ML 723
٢- W/ML 725
٣- W/ML 724
٤- W/ML 726
٥- W/ML 731
٦- W/ML 745
٧- W/ML 736
٨- TMS 185
٩- TMS 232
١٠- Ibid.
١١- Ibid.
١٢- TMS 4-233

١٣- TMS 187

١٤- W/ML 728

١٥- W/ML 735

١٦- ديفيد هيوم إلى أندريه موريليه، ١٠/٧/١٧٦٩ في:

ed. J. Y. T. ,1776-The Letters of David Hume, vol. 2,1766 Greig (Oxford: Oxford University Press, 1932), 205

كان موريليه فيلسوفًا وصديقًا لفولتير.

الفصل العاشر

١- V. I. Lenin, «Imperialism, the Highest Stage of Capitalism,» quoted in Thomas Sowell, Marxism: Philosophy and .Economics (New York: Morrow, 1985), 213

٢- V. I. Lenin, Imperialism, International Publishers, 1939, .quoted by Thomas Sowell, ibid

٣- David Hume, «The Sceptic», in Essays, Moral, Political, and .Literary (Indianapolis: Liberty Classics, 1987), 169

٤- W/ML 1026

٥- CAS 383

٦- CAS 1-380

٧- CAS 384

٨- CAS 383

٩- W/ML 636

١٠- W/ML 556

١١- W/ML 477

١٢- W/ML 637

١٣- W/ML 636

١٤- W/ML 660

١٥- W/ML 629

١٦- .Ibid

١٧- W/ML 663, 665

١٨- W/ML 9-618

١٩- CAS 481

٢٠- W/ML 672
٢١- W/ML 660
٢٢- Ibid
٢٣- Ibid.
٢٤- CAS 382
٢٥- W/ML 1013
٢٦- CAS 382
٢٧- Ibid
٢٨- W/ML 675
٢٩- W/ML 1028
٣٠- Ibid.

الفصل الحادي عشر

١- TMS 291
٢- Ibid.
٣- W/ML 633
٤- W/ML 858
٥- W/ML 774
٦- W/ML 2-771
٧- W/ML 771
٨- W/ML 766
٩- Ibid.
١٠- W/ML 7-766
١١- W/ML 767
١٢- W/ML 768
١٣- Ibid
١٤- W/ML 769
١٥- W/ML 770
١٦- W/ML 778
١٧- W/ML 776
١٨- W/ML 782
١٩- W/ML 780

٢٠- W/ML 6-785
٢١- W/ML 775
٢٢- W/ML 791
٢٣- W/ML 781
٢٤- W/ML 831
٢٥- W/ML 829
٢٦- W/ML 30-829
٢٧- W/ML 827
٢٨- W/ML 830
٢٩- W/ML 821
٣٠- W/ML 822
٣١- W/ML 839
٣٢- W/ML 824
٣٣- Ibid.
٣٤- W/ML 855
٣٥- W/ML 839
٣٦- W/ML 855
٣٧- W/ML 832
٣٨- W/ML 857
٣٩- W/ML 849
٤٠- W/ML 50-849
٤١- ضم سميث إلى هذا القسم من «ثروة الأمم» شاهدًا مطولًا من كتاب ديفيد هيوم «تاريخ إنجلترا، من غزو يوليوس قيصر إلى ثورة عام ١٦٨٨» ج٤ (London: T. Caddell, 1773) ص ٣٠-٣١. يقول سميث في الهامش إن نسخة عام ١٧٧٣ «تختلف في كلماتها عن النسخ السابقة واللاحقة».
٤٢- W/ML 850
٤٣- W/ML 867
٤٤- W/ML 852
٤٥- Ibid.
٤٦- Ibid
٤٧- W/ML 854

٤٨- W/ML 862
٤٩- W/ML 888
٥٠- Ibid.
٥١- W/ML 889
٥٢- W/ML 970
٥٣- W/ML 929
٥٤- W/ML 914
٥٥- Ibid.
٥٦- W/ML 909
٥٧- W/ML 907
٥٨- W/ML 919
٥٩- W/ML 934
٦٠- Ibid.
٦١- Ibid
٦٢- W/ML 935
٦٣- W/ML 985
٦٤- W/ML 945
٦٥- W/ML 278
٦٦- W/ML 185
٦٧- W/ML 941
٦٨- W/ML 923
٦٩- W/ML 909
٧٠- W/ML 980
٧١- W/ML 880
٧٢- W/ML 997
٧٣- W/ML 1008
٧٤- W/ML 1012
٧٥- W/ML 1009
٧٦- W/ML 765
٧٧- W/ML 669
٧٨- W/ML 745
٧٩- Ibid.

الفصل الثاني عشر

١- TMS 35
٢- TMS 81
٣- .Ibid
٤- TMS 249
٥- TMS 50-249
٦- W/ML 985
٧- W/ML 766
٨- W/ML 767
٩- Bernard Mandeville, The Fable of the Bee, vol. 1, (Oxford: Oxford University Press, 1924), 369
١٠- .Ibid., 24, 25, 26
١١- TMS 308
١٢- LJ 181
١٣- W/ML 868
١٤- W/ML 6-1025
١٥- W/ML 1026
١٦- .Ibid
١٧- W/ML 671
١٨- W/ML 4-763
١٩- TMS 187
٢٠- W/ML 527
٢١- .Ibid

الفصل الثالث عشر

١- Rae 372
٢- CAS 13-112
٣- Quoted in Paul Johnson, Intellectuals (London: Weidenfeld & .Nocolson,1988), 26
٤- TMS 225
٥- TMS 163

٦- Richard Brookhiser, Founding Fathers: Rediscovering George Washington (New York: Free Press, 1996), 131-2.

٧- CAS 275

٨- ISR 310

٩- Rae 170

١٠- ISR 227

١١- CAS 3-252

١٢- W/ML 152

١٣- CAS 269

١٤- DS 72

١٥- ISR 311

١٦- ISR 416

١٧- DS 97

١٨- ISR 214

١٩- TMS 199

٢٠- W/ML 185

٢١- Rae 213

٢٢- Rae 211; ISR 210; West 146

٢٣- TMS 143

٢٤- TMS 23

٢٥- Rae 372, 374

٢٦- TMS 5-224

٢٧- CAS 5-33

٢٨- TMS 41

٢٩- Rae 156

٣٠- Rae 35

٣١- Rae 288

٣٢- Rae 5

٣٣- Rae 12

٣٤- W/ML 821

٣٥- Rae 34

٣٦- TMS 193

٣٧- West 204

٣٨- W/ML 832
٣٩- W/ML 907
٤٠- W/ML 925
٤١- W/ML 960
٤٢- Rae 383
٤٣- Rae 405
٤٤- Rae 289
٤٥- Rae 290
٤٦- West 8-187
٤٧- W/ML 90-889
٤٨- W/ML 970
٤٩- Ibid.
٥٠- W/ML 94
٥١- TMS 280
٥٢- Rae 435



مراجع

أفضل نص لقراءة آدم سميث هي طبعات غلاسكو، التي صدرت بتفويض من جامعة غلاسكو احتفالًا بمرور مئتي عام على نشر كتاب «ثروة الأمم». ثمة مجموعة من الباحثين والمختصين البارزين كرست جهدها لأعمال آدم سميث كلها، ومنها ما سجل من محاضراته، حيث طبعت في كتاب أنيق مع مقدمة وهوامش. ويغطي فهرس مستقل الأشخاص والموضوعات التي تناولها آدم سميث. وأصدرت مطبعة جامعة أكسفورد هذه الأجزاء الثمانية في مجلدات بأغلفة سميكة. وهي متوافرة أيضًا بطبعات بأغلفة ورقية من دار ليبرتي فوند Liberty Fund في إنديانابوليس (بولاية إنديانا). الجدير بالذكر أن طبعات الدار عبارة عن نسخ فوتوغرافية من كتب أكسفورد.

للأسـف، لم أستخـدم طبعـة غلاسكـو من (ثـروة الأمم) في قراءتـي الأولية. فما زالت لدي نسخة عام ١٩٣٧ التي أصدرتها دار مودرن لايبراري Modern Library منذ قرابة أربعين سنة، لكن بليت صفحاتهـا وامتلأت بالخطوط تحت الجمـل والكلمات (في الأجزاء القليلـة التي قرأتها – كما يجـب أن أعترف). لكن لهذه النسخة مزاياهـا. فهي تضـم مقدمة ماركسية مسليـة كتبها الراحل ماكس ليرنـر (بأسلوبـه الممل). لكـن الأهم أنهـا نقحت بواسطـة إدوين كانان، وضمت مقدمته، وهوامشه، وملخصاته على الهامش، وكلها مفيدة وممتازة. ربما يعد كانان أعظم من مرجعيات سميث النصية كلهـا إلى حد أن النص الناتج عن التنقيح الدقيق لطبعة غلاسكو لا يختلف أبدًا عن نسخة كانان عام ١٩٠٤.

لا تـزال نسخـة مودرن لايـبراري متوافرة، باستثنـاء المقدمة الماركسيـة. وكتابي المسكين تمزق نتفًا. لكن وجدت نسخة أخرى من إصـدار عام ١٩٣٧، وبقي غلافها المكسو بالغبار سليمًا. هنا أرى أن طبعـة مودرن لايبراري جيانت (حرفيا: المكتبة الحديثة العملاقة)، كمـا كانـت تسمـى، مزخرفـة برسـم بالفحـم بالأسلـوب الواقعي الاشتراكي على خلفيـة (بلشفية) حمراء، يظهر بعض عمال العالم يجـرون حبلًا دون هدف واضح. نأمل ألا يراود القارئ شعور مماثل من الكتاب الذي يفتح صفحاته الآن.

أعمال آدم سميث:

- Modern Library Editions.
- An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations. Edited by Edwin Cannan. New York: Modern Library, 1937.
- The Wealth of Nations. Edited, with an Introduction and Notes by Edwin Cannan. New York: Modern Library, 1994.
- The Glasgow Editions.
- The Theory of Moral Sentiments. Edited by D. D. Raphael and A. L. Macfie. Oxford: Oxford University Press, 1976. Reprint, Indianapolis: Liberty Fund, 1982.
- An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations. Edited by R. H. Campbell and A. S. Skinner. 2 vols. Oxford, 1976. Liberty Fund, 1981.
- Essays on Philosophical Subjects. Edited by W. P. D. Wightman and J. C. Bryce. Oxford, 1980. Liberty Fund, 1982.
- Lectures on Rhetoric and Belles Lettres. Edited by J. C. Bryce. Oxford, 1983. Liberty Fund, 1985.
- Lectures on Jurisprudence. Edited by R. L. Meek, D. D. Raphael, and P. G. Stein. Oxford, 1978. Liberty Fund, 1982.
- Correspondence of Adam Smith. Edited by E. C. Mossner and I. S. Ross. Oxford, 1977- Liberty Fund, 1987.
- Index to the Works of Adam Smith. Compiled by K. Haakonssen and A. S. Skinner. Oxford, 2001. Liberty Fund, 2001.
- Other Books and Articles.
- Boaz, David, ed. The Libertarian Reader. New York: Free Press, 1997.
- Buchholz, Todd G. New Ideas from Dead Economists. New York: New American Library, 1989.

- Campbell, R. H., and A. S. Skinner. Adam Smith. New York: St Martin›s, 1982.
- Friedman, Milton. Capitalism and Freedom. Chicago: University of Chicago Press, 1962.
- Friedman, Milton, and Rose Friedman. Free to Choose. New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1980.
- Fry, Michael, ed. Adam Smith›s Legacy. London: Routledge, 1992.
- Greenspan, Alan, ‹Adam Smith.› Adam Smith Memorial Lecture, Kirkcaldy, Scotland, February 6, 2005. Washington, DC: Federal Reserve Board, 2005. http:/ /www.federalreserve.gov/ boarddocs/ speeches/200520050206//default.htm (accessed August 28, 2006).
- Hayek, Friedrich A. von. The Road to Serfdom. Chicago: University of Chicago Press, 1944.
- Hazlitt, Henry. Economics in One Lesson. New York: Harper & Broth¬ers, 1946.
- Herman, Arthur. How the Scots Invented the Modern World. New York: Crown, 2001.
- Johnson, Paul. Intellectuals. London: Weidenfeld & Nicolson, 1988.
- Mandeville, Bernard. The Fable of the Bees. 2 vols. Oxford: Oxford Uni¬versity Press, 1924.
- Pipes, Richard. Property and Freedom. New York: Knopf, 1999.
- Rae, John. Life of Adam Smith. London: Macmillan, 1895.
- Raphael, D. D. Adam Smith. Oxford: Oxford University Press, 1985.
- Ross, Ian Simpson. The Life of Adam Smith. Oxford: Oxford University Press, 1995.

- Ryan, Edward W. In the Words of Adam Smith. Sun Lakes, Ariz.: Thomas Horton, 1990.
- Salerno, Joseph T. ‹Carl Menger: The Founder of the Austrian School/ Auburn, Ala.: Ludwig vonMises Institute, 2005. http:/ / www.mises.org/content/mengerbio.asp (accessed August 28,2006).
- Samuelson, Paul A., and William D. Nordhaus. Economics. 15th edn. New York: McGraw-Hill, 1995.
- Sowell, Thomas. Marxism: Philosophy and Economics. New York: Mor¬row, 1985.
- Stewart, Dugald. Collected Works. Vol. 10, Biographical Memoirs of Adam Smith, William Robertson, Thomas Reid. Edinburgh: T. Constable, 1858.
- Tufte, Edward R. The Visual Display of Quantitative Information. 2nd edn. Cheshire, Conn.: Graphics Press, 2001.
- Weatherford, Jack. The History of Money, New York: Crown, 1997.
- West, E. G. Adam Smith. New Rochelle, NY: Arlington House, 1969.
- White, T. H. The Age of Scandal. London: Jonathan Cape, 1950.
- Williams, Jonathan, ed. Money: A History. London: British Museum Press, 1997.
- Yardeni, Edward E., and David A. Moss. ‹The Triumph of Adam Smith.› Topical Study 19. New York: Prudential-Bache Securities, 1990. http://www.adamsmith.org/smith/triumph-of-smith. pdf (accessed August 28, 2006).

